الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية

لماذا.. وكيف ؟..

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الإسلام
ملاذ كل المجتمعات الإنسانية

تصوير ١٤١٣ هـ =١٩٩٣ م



الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

سورية ـ دمشق ـ شارع سعد الله الجابري ـ ص.ب (٩٦٢) ـ س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ ـ برقياً : فكر ـ تلكس Tx FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لوليّ كل نعمة .. اللهم لك الحمد كالذي تقول وخيراً مما نقول . اللهم لك صلاتي ولـك نسكي ، ولـك محيـاي ولـك ممـاتي وإليك النشور . وأصلي وأسلم على نبيك محمد الذي أرسلته رحمـة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأسـألـك اللهم كـلاءة ككـلاءة الـوليـد ، وأن لاتكلني إلى غيرك ، وأن تختم حياتي بأحب الأعمـال إليـك حتى ألقـاك وأنت عني راض ، يارب العالمين .

مدخل وتقديم

يتجه حديثي ، في الفصول الأساسية من هذا الكتاب ، إلى أولئك الذين يتطلعون من جديد إلى الإسلام ، ويصغون بجدّ إلى أولئك الذين بوسعهم أن يعرّفوهم عليه . سواء كانوا يعيشون بتبعيات إسلامية شكلية في بلادنا العربية والإسلامية ، أو كانوا من الأجانب الذين لم تكن لهم علاقة بالإسلام من قبل .

ولست أعلم شيئاً عن مدى النجاح الذي حالفني في القدرة على اختيار صياغةٍ أو أسلوبٍ يتناسب مع حاجاتهم الفكرية ويجيب على تساؤلاتهم أو مشكلاتهم النفسية ، ويتناسب مع الأولويات الإسلامية التي يجب ـ في هذه الحال ـ أن تعالج قبل غيرها . فاني لأعتقد أنه طريق مستوعر إذا أريدت فيه الدقة وابتغى السالك فيه بلوغ المأمول .. ولكن الذي أعلمه أن هذا الفريق من الناس ، ربما كانوا بأمس الحاجة اليوم إلى أن نحاورهم عن حقيقة الإسلام ونصور لهم بنيانه الكلي الشامل ، ومدى علاقته بذاتية الإنسان وكيانه ، ومدى الحاجة إليه في خضم هذه الحياة الاجتماعية ، وبيان وجه ذلك كله ، بطريقة علمية منهجية مقنعة . وإذا لم أكن مخطئاً في هذا العلم أو الشعور ، فإن علينا جميعاً أن نتجه بحوار مناسب إلى هؤلاء الناس ، وهذا ماقد حاولته في الفصول الأساسية الأولى من هذا الكتاب ، راجياً من الله التوفيق .

قد يتصور بعض القراء ، أن هذا الاتجاه الذي اقتنعت به ، دليل تشاؤم من واقع المسلمين ويأس من صلاح حالهم ، وتجاهل للصحوة الإسلامية التي تنتشر في سائر الآفاق والبلاد الإسلامية اليوم .

إنني لست متشائماً بحمد الله ، مهما تعثر المسلمون على الصراط الذي خطّـه الله لهم ، ومهما دارت عليهم رحى المصـائب والمحن ، فـإنّ الأمل بفضـل الله أعظم من كل تلك المصائب والعثرات . أليس هو القائل في محكم كتابه : ﴿ إنه لا يَيْـأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاّ القَـوْمُ الكافرون ﴾ [يـوسف ٨٧] أو لم يقـل رسـولـه عليـه الصـلاة والسلام : « مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر ، لا يُدْرى أوله خيرٌ أم آخره »[١] .

ولكنـا لا نحصر الأمل بـالخير في جهـة بعينهـا ، ولا نـدري شيئـاً عن سيـاسـة الخالق في إصلاح حال خلقه ؛ فليس شرطاً لصلاح حال المسلمين أن يبـدأ الصلاح بهم ، وأن يظهر الخير لهم من أرضهم ، وأن تكون تباشير صحوتهم بإيقـاظ ذاتي يتم فيما بينهم .

قد يتدارك الله هذه الأمة بإصلاح حالها ، وإيقاظ ضميرهـا ، وإعـادتهـا إلى رشد الاعتزاز بدينها ، ولكن ، لأمر مّا ، تقتضي حكمته أن يكون المنبـه إلى ذلـك والدافع إليه ، يقظة الغرب من رقـدة ضلالـه ، وصحوتـه الفكـريـة والنفسيـة إلى حقائق الإسلام التي تخرّ لها اليوم خاشعة جبهة المنطق والعلم .

وإذا كان هـذا هو سبيل رحمـة الله بهـذه الأمـة ، فـإنـه لسبيل أوسـع فضـلاً وإحساناً . وإن تباشير هذه الرحمـة ـ فيما يبـدو لكل متبصر ـ تؤذن ببزوغ فجرهـا الصادق المنير .

ولكني مـع هـذا ، أفرض أن الأخ القـارىء ، سيظـل يسـألني : ولكن لمـاذا لا تحاور المسلمين من أجل أن يتموا السير على طريقهم الإسلامي الذي قطعوا منه أشواطاً كثيرة أو قليلة ، بدلاً من محاورة غيرهم ، أولئك البعيدين عنه ، الـذين لم يقطعوا على طريقـه حتى الخطـوة الأسـاسيـة الأولى ؟! أليس السعي مـع أولئـك المسلمين أقرب إلى الهدف المطلوب ، منه مع هؤلاء الناس ؟

---

(١) رواه الترمذي والدارقطني عن أنس مرفوعاً .

والجواب : أن مقياس هذا الأمر هو الشعور الداخلي المهين على النفس ، وليس الواقع المادي المشاهد أمام العين . إنّ التائه عن الطريق ، الشارد عنه في الصحارى المهلكة ، إذا شعر بأن من حوله ـ في مكان ما ـ طريقاً آمناً يوصله إلى غايته وأنه تائه ضائع عنه ، فإنه يخضع حتى لتذكرة طفل صغير ، ويتعلق شاكراً بكل من يمنحه أيّ رشد لتخليصه مما هو فيه .. ولكن ربّ رجل يتبع في طريقه النهج السليم ، انحرف عنه إلى بستان ذي مناظر جميلة في العين آسرة للنفس ، استجابة لهوى وتحقيقاً لشهوة ، ثم جنّ عليه الليل وهو ثمل بلهوه غافل عما هو بصدده ، لا يصحو إلى تنبيه منبه ولا يصغي إلى نصيحة ناصح ، إذ هو ابن الطريق ومن أهل المكان ، فليس بحاجة إلى من يرشده ويهديه . ثم إنه لم يصح من لهوه وعبثه إلا على صياح قاطعي الطرق بعد أن احتوشوه وأحاطوا به ، وهكذا ذهب ضحية رعونته واستكباره .

إن هذا المقياس ذاته يصدق على واقع كثير من المسلمين الذين عرفوا الطريق ، فلم يعودوا بحاجة إلى تذكرة مذكر ونصيحة ناصح ، وعلى واقع كثير من الخارجين عن دائرته الشاردين عن هديه سواء كانوا داخل بلاده أو خارجها .. أولئك يحجبون عن الحق بعتوهم واستكبارهم ، وهؤلاء يصلون إليه بتحرقهم على معرفة الحق وصدقهم في البحث عنه .

وهذا المقياس جزء من المعنى الواسع الكبير لقول ابن عطاء الله السكندري في حكمه الشهيرة : « معصيةٌ أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

إن الصحوة الإسلامية التي تطوف اليوم برؤوس الشباب المسلم في مختلف البلاد العربية والإسلامية ،لا يحدق بها أي خطر من خارج المحيط الإسلامي ، كالخطر الذي يحدق بها من المسلمين أنفسهم .. أعني بهم أولئك الذين يتقنون ركوب الموجة ، أياً كانت وإلى أي جهة سارت ، ليظلوا دائماً في مستوى الإرشاد

والتوجيه ، انظر إليهم كيف يحاولون أن يجعلوا من السبيل الإسلامي الواحد طرائق شتى ، وكيف ينبشون المشكلات الوهمية من قاع الأخيلة الفارغة ، ويتساءلون عن الحلول الإسلامية لمعضلات لم تقع ، كل ذلك من أجل أن تتبدد الرؤية الصافية أمام أبصار الجيل الجديد الذي استيقظ ، ومن أجل أن تنسحب غاشية من ضباب الاضطراب والهرج والخلاف ، على الصراط الإسلامي العريض الذي أخذ يتجه إليه السواد الأكبر من هذا الجيل ، فتضيع عليهم معالمه وحدوده .

وإن هذه الجماهير المتكاثرة التي تقبل على الإسلام من خارج حدوده ، لا يثور الحنق عليها في صدور أعدائه التقليديين ، كما يثور في صدور كثير من المسلمين التقليديين . وقد يعبرون عن حنقهم هذا بالتسخيف إن استطاعوا ، أو بالجدل الباطل إن واتتهم الظروف ، وإلا فبالصمت الأليم الذي هو أضعف « الإيمان »

في ملتقى الفكر الإسلامي الذي عقد في الجزائر عام ١٩٧٨ م ، ألقى الدكتور موريس بوكاي العالم والطبيب الفرنسي ، محاضرة قيمة عن الإعجاز العلمي في القرآن ، وقد كان فرغ آنذاك للتوّ من تأليف كتابه : (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) وبدأت طبعته الفرنسية الأولى تنتشر في أوربا . وقد كان في قاعة المؤتمر أجانب ومستشرقون كثيرون ، لم أذكر أن واحداً منهم قام فعارض أو ناقش الدكتور بوكاي في شيء من محاضرته أو شيء مما جاء في كتابه .

غير أن العاصفة الكبرى من الهجوم المقذع عليه إنما أقبلت إليه ، من المسلمين التقليديين الذين كانوا في القاعة ، فقد اخذوا يتجاذبون منبر الخطابة فيا بينهم ، يتسابقون إلى تسخيفه وتبكيته ، و يؤكدون له أنّ الاسلام ليس بحاجة إلى دراسته له ودفاعه عنه ، فما عليه الا أن يعود فيتفرغ لطبه و إدارة مستشفاه .

وليتهم خطـؤوه في مسـألـة أو نبهـوه إلى ضـلالـه .. إنما هـو الغيـظ من أن يلقى الإسلام هذا التأييد على لسان عـالم فرنسي مشهود لـه بـالعلم والموضوعيـة ! .. كل هـذا وزمرة العلمـاء الأجـانب والمستشرقين ينظرون (ولا أدري إذا كانـوا يستمتعون) ويتأملون في هذا المشهد[1] .

وقد كنت منذ أيام قريبة ، أحدث واحـداً من هؤلاء المسلمين التقليـديين ، عن دخـول المفكر اليسـاري الفرنسي (روجيـه غـارودي) في الإسـلام ، فـأشـاح بوجهه ممتعضاً ، وقفز بالحـديث إلى موضوع آخر . ولو استطـاع أن يبوح بغيظـه أمامي لفعل .

وتصغي إلى حـديث هـؤلاء المسلمين الأجـانب عن الإسـلام وعن سعـادتهم بالانتماء إليه ، فتراهم يتبرّمون بأوضـار الحضـارة الغربيـة وبلائهـا ، ويعـانقون في بلادهم غربة السلوك الإسلامي في نشوة بـالغـة ! .. ثم تصغي إلى حـديث المسلمين التقليـديين ، أولئـك الـذين يعتزون بتراث الآبـاء والأجـداد ، فتراهم يتبرّمـون بـالغربـة التي يفرضهـا عليهم انتماؤهم الإسـلامي ، وينتظرون بفـارغ الصبر ذلـك اليوم الذي يتخلّص فيه الإسلام من تخلّفه على أيدي مطوّريه ومجتهديه ، فيتّحـد الإسلام مع الحضارة الغربية في شخصية واحدة متآلفة .

أليس في هذا كله ـ يا أخي القارىء ـ ما يسوّغ الإعراض عن الحوار العـابث مع هؤلاء التقليـديين ، ومـا يـدعو إلى الإقبـال إلى أولئـك الـذين يبحثـون عمن يعرّفهم على حقيقة الإسلام ، وقد سمعوا الأقوال المتضاربـة عنـه ، ورأوا من حـال أهله ما يفطّر القلب أسى ، لوضع البنية الإجمالية المتكاملة لهذا الدين بين أيـديهم

---

(١) الـدكتور موريس بوكاي ليس مستشرقاً ، وإنما هو مسلم يقيم الإسـلام في بيتـه ، يـؤمن بـأن القرآن كلام الله وبأن محمداً رسول الله ، وبأن الأنبياء كلهم على حق ، وإنما حرفت كتبهم مع الزمن ، فظهر بينها وبين القرآن التعارض المختلق .

وأمـام أبصـارهم ، كما تضع المظهر النموذجي لمجمّع عمراني أو لموقع مـدينـة منبسطـة مترامية الأطراف أمام المشاهدين ؟

فمن يدري ؟ .. ربما كان المفتاح الوحيد لتفتح أفئدة أبناء جلدتنا المسلمين ، لقبول حقائق الإسلام ، والعودة بصدق إليه ، أن ينظروا فيجدوا الفتح الإسلامي قـد أقبـل إليهم من الغرب ، وأنـه قـد حيـل بينهم وبين خمر الحضـارة الغربيـة ، بالغرب نفسه .

وقديماً ومنذ أكثر من خمسين عاماً ، قـال ذلـك العبقري الـذي كان أعجوبـة الذكاء والفكر الإسلامي في عصره ، بديع الزمـان النورسي : « الخلافـة الإسلاميـة حبلى ، وستلـد الإلحـاد يومـاً مـا ، والبلاد الأوربيـة حبلى وستلـد الإسلام يومـاً ما » .

على أنّ كل حوار يصلح أن يخاطب به أولئك المتطلعون إلى الإسلام ، يفيـد المسلمين (لا سيما الجيل النـاشيء فيهم) فـائـدة كبرى . ولكن ليس كل مـا يصلح خطـابـاً لهـؤلاء المسلمين ، يفيـد أولئـك المتطلّعين إلى فهم حقيقـة الإسـلام من جديد . فليكن حديثنا عن الإسلام إذن أشمل نفعاً وأوسع مجالاً .

☆ ☆ ☆

يـدور محور هـذا الكتـاب على بحث أسـاسي واحـد ، هو بيـان أن الإسـلام ضرورة لا بدّ منها لسائر المجتمعات الإنسانية على اختلافها ، وأن سـائر من في هـذه المجتمعات بوسعهم أن يدركوا ذلـك ، لو تجرّدوا عن العصبيـة الـذاتيـة وتحرروا عن الشهوات والأهواء .

وقد بسطت هذا البحث في عدة فصول ..

يلي ذلـك عرض المشكـلات التي قـد تعترض ـ فيما يتخيلـه بعض الأذهـان ـ سبل تطبيق الإسلام .

أولها وأهمها مشكلات المذاهب الفكرية المعاصرة . والحديث عن هذه المشكلات يهم الباحث الغربي كما يهم المسلم المعاصر على السواء ، فإن المسلمين في بلاد الإسلام إلا من رحم ربك ، أكثر ذلاً وخضوعاً لهذه المذاهب الفكرية ، من الغربيين الذين لم تنشأ تلك المذاهب إلاّ في بلادهم .

ثانيها مشكلات تتعلق بفهم القرآن وتفسيره . فإنّ المسلمين (التراثيين) لا يزالون يتسلقون تسلقاً كيفياً على تفسير القرآن حسبما يروق لهم ، وذلك كي يتاح لهم أن يسيروا بالإسلام في الطريق الذي يحبون ، دون أن يُتهموا بأنهم خارجون على الإسلام ، شاردون وراء حدوده .

ثالثها مشكلات الاتباع والابتداع ، وهي التي يثيرها من ينعتون أنفسهم بالسلفية ، فتأخذ أبعاداً سيئة وتترك آثاراً من الضياع والاضطراب في أذهان أولئك المخضرمين أو حديثي العهد بالإسلام .

رابعها مشكلات تتعلق بالمجتمع والتاريخ ، فأما مشكلات التاريخ فإنما اختلقها محترفو الدس في تاريخنا الإسلامي ، وأكثرهم من المستشرقين الذين تعاقدوا مع حكوماتهم للتفرغ من أجل أداء هذه المهمة . فعبثوا بالتاريخ العربي والإسلامي عبثاً منكراً ، وملؤوا جوانبه بما يشبه الألغام التي تزرع خفية في الطرقات الآمنة . ثم لقي هذا ـ مع الأسف ـ من المسلمين التقليديين قبولاً وتشجيعاً .

وأما المشكلات الاجتماعية ، فمن شأنها أن تتكاثر مع تطور الظروف والأحوال ، وهي بحدّ ذاتها ليست مشكلة ، وإنما المشكل أن لا يعالجها المفكرون وعلماء الإسلام ، طبقاً للأحكام الإسلامية الثابتة التي أقامها الله في عباده لحل هذه المشكلات وأمثالها .

وبدهي أنني لم أستقص جزئيات هذه المشكلات الموزعة في أنواعها الأربعة

هذه ، فعلاج ذلك يطول جداً ، دونما حاجة ماسة إلى هذه الإطالة والاستقصاء

ولكني أعتقد أنني عرضت لأهم هـذه المشكلات ، وحـاولت جهـد استطـاعتي أن أنفذ منها إلى حلول واضحة مقبولة .

وقد كنت عالجت بعض هذه المشكلات (معالجة ميدانيـة) كما يقولون ، أي في مناسبات حيـة إذ طَرَحَتْ هـذه المشكلات نفسهـا ، فـاقتضت الحل والبيـان ، كتلك الفصول التي عالجت فيها ، مشكلات فهم القرآن وتفسيره .

إلاّ أن كثيراً من هذه الفصول تمت كتابتها مع تحضير أصول هذا الكتاب .

☆ ☆ ☆

كل مـا أرجوه ، وقـد أنجزت هـذا العمـل الأخير من سلسلـة أعمـالي العلميـة والكتابية ، أن يكون مثبتاً في صحـائف أعمـالي عنـد الله عز وجل ، وأن يتقبلـه الله مني بمحض فضله وإكرامه ، على نقائصه وعلاته .

أمّا مدى النجاح الذي أحرزته في السعي به إلى الهدف المنشود ، فـذلـك مـا لاأعلم شيئاً عنه ، وهو ما ستبـديـه مقبلات الأيـام . وإنمـا مردّ كل توفيق في أي عمل إلى الله .

محمد سعيد رمضان البوطي

دمشق ١٨ ذي الحجة ١٤٠٢ هـ
٦ تشرين أول ١٩٨٢ م

ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية

لماذا ؟... وكيف ؟...

أولاً: لماذا ؟..

لماذا يقبح بالقزم أن يلبس ثياب المردة الطوال ؟ ولماذا يقبح بالمارد أن يرتدي ثياب الأقزام ؟..

لماذا يقبح بالإنسان أن يتشبع بماليس فيه وأن يدعي ماليس له ، وأن يزعم لنفسه الحرية وهو مملوك ، وأن يتجاهل حقوق الآخرين وهو مدين لهم ومستأجر ؟

هل يعجز أحد عن معرفة الجواب البدهي على هذه الأسئلة ؟.. إن الجواب عن سؤال السائل : لماذا الإسلام ، أكثر بداهة ووضوحاً .

عُدْ إلى ذاتك ، وتأمل في كينونتها ، ثم سل نفسك : أأنت حر تملك أن تقيم ذاتك على ماتشاء من رغد الحياة ، بعيداً عن أن يستذلها شيء من المنغصات ، وفواجع البؤس والآلام ، وقيود الأنظمة الآسرة وعواقب الموت والحرمان .. فإن علمت أنك كذلك ، حر طليق عن سائر القيود المذلة والمستعبدة ، فلتهنأ بهذه الحرية ، وماعليك إلا أن تسلك مسالك الأحرار في كل شؤونك وأحوالك . وماالإسلام عندئذ إلا عبء لامسوغ له ، وعقبة تضيق عليك سبيل حريتك بدون موجب . ومثل هذه الأعباء والعقبات لا يليق بمن كان ملك نفسه ، سيد حياته وقدره .

أما إن نظرت ، فعلمت أنك مطبوع بطابع العبودية المطلقة ، مغموس

بصبغتها من فرقك إلى قدمك ، وأنك محكوم لنظام صارم لا تملك التخلص منـه ، منفعل طبق سنن كونية لا تملك ردّها ولا التحرر منها ، مقيد بـذل احتياجـات كثيرة لا سبيـل لـك إلى الاستغنـاء عنها ـ : فـإن من أعبث العبث عنـدئـذ أن تتجاهل ما تحمله من هـذه الآصـار والأثقـال ، ثم تتشـاغل بـالسؤال عن الإسلام ووجه الضرورة الداعية إلى التقيد به !..

وماهو الإسلام ؟

إنه ليس أكثر من الاستسلام طوعـاً ، لهـذا الـذي استسلم لـه كيـانـك كرهـاً وقسراً .

أو هو ، بعبـارة أكثر وضوحـاً وتفصيلاً ، أن تمـارس العبوديـة لله بـالسلـوك والاختيار ، كما قد خلقك عبداً له بـالقسر والاضطرار . وهـذا الالتزام أمر طبيعي تقتضيـه ضرورة التنسيـق بين الأمـور المتقـابلـة والمترابطـة . وبمقـدار مـا يكـون التشاكس عملاً مذموماً ينتج الاضطراب والفوضى بحكم البـداهـة والضرورة ، فـإن ما يقابله من إقامة قواعـد التنـاسق والانسجـام ، منهج منطقي سليم ينتج الآثـار المتناسقة ويرسخ دعائم التماسـك والنظـام . وإنمـا يجـدر أن يوجـه السؤال إلى من يتجه بسلوكـه وجهـة التشـاكس والاضطراب ، إذ هو التصرف الـذي ينـأى عنـه المنطق والعقل ، أمـا السير على الطريق المرسوم ، والتزام الجـادة المعبـدة . فليس من شأنه أن يثير أي استغراب . يدفع إلى التساؤل عن الحكمة والسبب .

☆ ☆ ☆

وبوسعـك ـ إذا كنت ذا فكر موضوعي غير متحيز ـ أن تلاحـظ الاضطراب الخطير النـاتج عن عـدم الانسجـام والتنـاسق بين الواقـع الإنسـاني الخـاضـع لسنن وأحكام صارمة لا يملك أي تحرر منها أو تمرد على سلطانها ، وسلوكه الذي يصطنع

التحرر من كل شيء ويطمح إلى أن يخضع لرغباته كل شيء ، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة .

ماذا حقق الذين تبرموا بالإسلام ، وانطلقوا يرفعون شعار الحرية المطلقة ، وتنادوا بضرورة الانعتاق من القيود والالتزامات ؟ ماذا حققوا لأنفسهم بذلك من الحرية ومكاسبها ؟

إنهم لم يزيدوا على أن جعلوا من الحرية أداة استعباد للآخرين ، وجعلوا من التمرد على القيود قيوداً وأغلالاً صفدوا بها أيدي الناس وأعناقهم . وهل تتهارج الأمم والجماعات اليوم ، إلا لأنها قد خرجت ـ في مجموعها ـ من سلطان العبودية لله والتقيد بأوامره وأحكامه ، وتنادوا بالحرية المطلقة ، فطمح كل منهم إلى أن يصبح سيداً ومتنفذاً ؟ . ولا يكون الرجل سيداً إلا في قوم يكونون عبيداً له ، ولا يغدو متنفذاً إلا وسط جماعة تخضع للأوامر وتنفذ الأحكام .

وهكذا ، كان لابدّ أن يكون الخروج من سلطان العبودية لله ، دخولاً في باب عريض من استعباد الناس بعضهم لبعض ، ثم انطلاقاً حثيثاً لاهثاً في طريق من التسابق الدامي على نيل الحظوظ وعروش القهر والعدوان .

وتأمل فيماأقول ، لترى كيف أن الدنيا كلها كادت أن تتحول اليوم إلى لوحة تبرز فيها هذه الحقيقة على أتم وجه .

هذا على مستوى الجماعة . أما على مستوى الفرد ، فحسبك من آثار هذا التشاكس ما يعاني منه الشارد عن مظلة الإسلام في عقيدته وسلوكه ، اضطراباً وحيرة ، ثم وحشة وقلقاً تجاه ذاته والمكونات التي تحيط به .

تغذى بالحرية ثم فوجىء بنفسه سجيناً في نواميس كونية لامفرّ له منها !..

طمح إلى السيادة المطلقة ، ولكنه لم يعثر على من يبني على كاهله ـ آمناً ـ عرش سيادته !..

أمسك بزمام الطبيعة ليقودها إلى حيث يشاء ، فما كادت تسير وراءه خطوات معدودة ، حتى انقلب الحال ، فإذا الطبيعة هي القائد وإذا الإنسان مقود من الزمام الذي كان بيده .

فلاهو بالحرية الحقيقية تمتع ، ولا على علم بدقائق الكون وأسرار الطبيعة حصل ، ولا على مفتاح قيادة الكون عثر !... وعاد لا ليجر خيبته فقط ، بل ليستوحش حتى من ذاته ، وليضيق ذرعاً حتى بمتعته وأحلامه .

فهاهم أولاء وقد فاضت بهم المجتمعات الغربية ، يقفون في طوابير منتظمة على عيادات الأطباء النفسانيين ، أو يتفرقون على موائد اللهو والشراب ، أو يعكفون على التأمل في أحدث وسائل الموت والانتحار .

ولقد كان الوجوديون ، هم قادة الدعوة إلى ممارسة الحرية ، ولقد فلسفوا السبيل إلى ذلك ونظموه ، ليصبح واضحاً معبداً أمام الناس جميعاً . فإلامَ أوصلهم سبيلهم المفلسف المنظم ؟

لقد أوصلهم إلى ما يسمونه هم أنفسهم بالقلق واليأس والسقوط !..

لماذا ؟ لأن الحرية ليست ممارسة لحقيقة ذات طرف واحد ، حتى يتاح للإنسان أن يمتلك جوانبها كلها ، بمحض قرار منه . وإنما هي ممارسة للاختيار الداخلي الذي يشعر الإنسان بأنه مجهز بالقدرة على ممارسته . وعملية الاختيار هذه ليست في جوهرها أكثر من أن يقيم الإنسان علاقة متناسقة بين حياته والدنيا المحيطة به ، وهي من أجل ذلك لا تتحقق إلا من تلاقي طرفين : أحدهما ثابت في أغوار مشاعرنا ، وثانيهما مرتبط بقوانين الكون وأنظمته . وليست الحرية في حقيقتها شيئاً أكثر من أن يمتلك الإنسان فرصة التنسيق بين هذين الطرفين بقرارٍ من شعوره الداخلي الذي يسمى بالرغبة والإرادة .

ولكن أي هذين الطرفين يعدّ قطباً ثابتاً وأيهما الذي يتحرك و يدور حوله ؟

إن الواقع الذي يفرض نفسه يقرر بأن الطرف المرتبط بقوانين الكون وأنظمته هو القطب الثابت ، على حين لا يشكّل الطرف الآخر إلا اتجاهاً متحركاً نحوه من سبل شتى .. فمن تصور أنه قادر على أن يجعل من رغبته الذاتية القطب الأساسي والمحور الثابت ، وأن الدنيا ستطوف بكل ما فيها حول ذلك المحور الذاتي بالخدمة والتقديس ، ثم اتخذ من حريته سبيلاً إلى ذلك ، فلابدّ أن ينتهي إلى ما انتهى إليه الوجوديون من اليأس والقلق والسقوط .

إذن فلكي يمارس أحدنا إرادته وحريته ، ينبغي أن يبدأ بالتعرف على طبيعة الكون وحقيقة هذه الدنيا التي نعيش فيها ونواميسها الثابتة التي لا مناص من الخضوع لها ، أي إن من العبث أن نتمسك منها بأي فكرة أو عقيدة لا تنسجم مع واقعها وجذورها الثابتة من ورائها . وإذا فعلنا ذلك فلسوف نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام دلائل وجود خالق لها ومبدع لنظامها . ولسوف يدعونا ذلك إلى أن نتساءل عن علاقتنا بهذا الخالق المبدع ، ولابد أن نطلع عندئذ على الجواب الذي لا ثاني له ، وهو أننا عبيد مملوكون لهذا الخالق . وهنا يبدأ الإنسان باكتشاف هويته ، والاطلاع على مهمته التي خلق في هذه الدنيا للنهوض بها .

وعندئذ يتاح للإنسان أن يمارس حريته على وجهها الصحيح . إذ يتكامل حينئذ طرفاها اللذان لا يمكن للحرية الإنسانية أن تتكون إلا منهما معاً : الطرف الداخلي المتصل بأغوار النفس ، والطرف الخارجي المنسجم مع واقع الكون ونظامه .

إذن فوجه الحاجة إلى الإسلام أنه القاعدة الأساسية التي لا تنمو شجرة الحرية الإنسانية الصحيحة إلا في تربتها ، وأنه الشعلة التي لا يستبين نظام الدنيا التي خلقنا للتعامل معها إلا على ضيائها .

وجه حاجة الإنسان إلى الإسلام ، من قبيل حاجة الإناء إلى غطائه ،

وحاجة الجسم إلى غذائه ؛ ومن قبيل حاجة الأرض إلى شمسها ، وحاجة الحرية إلى نظامها .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ، فقد قصدت مماأوضحته ، في هذا المدخل ، بيان أن الحاجة إلى الإسلام ليست حاجة ذرائعية جاءت لسبب ضائقة اجتماعية أو اقتصادية عابرة ، أو لسبب ما يقتضيه الافتخار بتراث الآباء والأجداد ؛ وإنما هي نابعة من صلة ما بين الإسلام وحقيقة الذات الإنسانية ، أياً كانت هذه الذات ، وحيثما كانت تعيش .

وهذا جزء يسير من الحقيقة الكبرى التي نعبّر عنها بقولنا : الإسلام دين الفطرة .

ثانياً : كيفَ ؟..

..ولنعلم قبل كل شيء أننا حيثما أطلقنا كلمة (الدين) فإنما نعني بها الإسلام ، إذ هو الدين الحق الذي ألزم الله به عباده ، إلى أن تقوم الساعة .

نقول بعد هذا : لقد شاء الله عز وجل أن يجعل الإنسان محور المكونات المختلفة التي تطوف من حوله . بل شاء جل جلاله أن يوليه السيادة عليها ، وأن يخصه بالتكريم من بينها ، فجعل معظم هذه المكونات مسخرة لرغبته ، قائمة بخدمته ، ووكل إليه مهمة عمارة الأرض بمغناها الحضاري الشامل المستوعب لكلمتي العمران والتعمير .. ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ ولقد كرَّمْنا بني آدَمَ وحَمَلْناهُم في البرِّ والبحر ورزقناهُم من الطَّيباتِ وفضَّلناهُم على كثيرٍ ممَّن خَلَقْنا تفضيلاً ﴾ [الإسراء ٧٠]

وقوله تعالى : ﴿ هو أنْشَأكُم من الأرْضِ واسْتَعمركُم فيها ﴾ [هود ٦١]

ولقد كان من مقتضى هذه المكانة التي بوأه الله إياها والمهمة التي شرّفه بها ، أن يجهزه بالإمكانات والقدرات الخاصة التي تيسر له سبيل النهوض بما كلف به ، وتعينه على استخدام كل ما حوله لتحقيق ما هو بصدده ، وتمكنه من إدارة شأن هذه الأرض على الوجه المطلوب ، كالعلم والقدرة والنزوع إلى الأثرة والتملك وحب الذات . إلخ ...

غير أن هذه الصفات والقدرات التي جهز الله الإنسان بها ، أسلحة ذات

حدين ؛ فهي تصلح لأن تكون أداة تخريب وإفساد وتـدمير ، وتصلح لأن تكون أداة إصلاح وإسعاد وتعمير ! .

وتوضيح ذلك أن هذه القـدرات ، ليست في أصلهـا وحقيقتهـا إلا من بعض صفات الربوبية .. وإنما متع الله الإنسان منهـا بفيوضـات يسيرة جـداً ، ليستعين بها في تحقيق المهمة القدسية التي أنيطت به . ولذلك فقد كان من شأنهـا أن تبعث في كيانه نشوة كما تبعث الخمرة في نفس شاربهـا ، وأن تنزع بـه إلى شيء من معـاني الربوبية وكبريائها . وربمـا نسي الإنسـان في غمـار ذلـك ذاتـه وضلّ عن هويتـه وطغى فـوق حـدوده ، فتماوج النـاس من ذلـك فيما بينهم في صراع دائب ، لا على الحياة ومقوماتها ، بل على الطغيان وأسبابه .

أجل ، ذلك هو شأن هذه الصفات عندما تستعمل على غير وجهها ، وعندما يجهل الإنسان العلاج الذي يحميه من الوقوع في سُكْرها والتطوُّح في نشوتها .

لذا فقد كان الإنسان بـأمس الحـاجـة إلى تبصرَة سليـة ودقيقـة بحقيقـة هـذه الصفات التي ركبت فيه ، وبالحكمة من وجودها في كيـانـه ، وتميُّزِه بهـا عن سـائر الحيوانات والمخلوقات الأخرى ، وإلى تعريف بكيفيـة استعمالهـا والاستفـادة منهـا على وجهها الصحيح ، وإلى معرفة العلاج الواقي من أوضارها وسوء مغبتها .

لقد كان الإنسان بحاجة ماسة إلى هذا كله ، كي يتاح لـه أن يستعمل أسلحـة هذه الصفات الهامة من حدّها المفيـد ، ويتقي حـدّهـا المفسـد بل المهلـك ، ولكي لا تأخذ بلبّه فيقع صريع سكرها ، ويذهب ضحية رعونتها .

ولولا عنصر الاختيـار والإرادة الـذي لا بـدّ أن يكـون الروح المحركـة لتلـك الصفات والملكات كلها ، لكانت الغريزة القسريـة خير لجام لضبـط الإنسـان عن الوقوع في شِرَّة تلك الصفات وسوء عاقبتها ؛ وإذن لعـاش الإنسـان (كالحيوانـات الأخرى تماماً) يتمتع بهذه المنح التي وهبه الله إيـاهـا ، حتى إذا كادت أن تتجـاوز

به خط الاعتدال ، أقبل لجام الغريزة ، فضبطها وضبطه عن الوقوع في الانحراف والطغيان . فلم يكن يحتاج عندئذ إلى شيء من التعاليم الدينية الضابطة والإرشادات الموجهة .

ولكنّ هذا الذي يصلح في عالم البهائم ، وفي حدود ما خلقت له ، لا يصلح في عالم الإنسان الذي لا تنهض مهمته التي كلف بها إلاّ على أكبر قدر من الحرية والاختيار .. لذا فقد حرر الله الإنسان من قيود الغريزة في نطاق سعيه وسلوكه ، من حيث قيّد بها الحيوانات الأخرى أيّما تقييد !..

ألا ترى أن الوحوش تفترس ، ولكن الغريزة تضبط ذلك منها في حدود تأمين ما تحتاج إليه من قوت وطعام ؛ وأن الحيوانات تتسافد ، ولكن الغريزة تضبط ذلك منها في حدود ما يقتضيه بقاء النوع ، وأنها تحنو على صغارها وتتعهدها بالرعاية والتربية ؛ ولكن الغريزة تُنهي ذلك الحنو وتلك الرعاية عند انتهاء الحاجة إليها .. ويتم هذا الانضباط كله في عالم البهائم دون قصد منها ولا إرادة . وإنما عن طريق كوابح ربانية غرسها الله في طبيعة الحيوانات ، طبقاً لما تقتضيه مصلحتها وحياتها الجماعية والفردية ، نسميها نحن : الغريزة .

أما الإنسان ، فلا مكان في حياته لسلطان هذه الغريزة القسرية ، بعد أن توج الله تلك الصفات التي منحه إياها بنعمة الحرية والإرادة ، بل ما كانت تلك القدرات والصفات لتفيده شيئاً في القيام بمهمته ، لو لم تكن مصبوغة في كيانه بصبغة الحرية والاختيار .

لذا بقيت المشكلة قائمة ، والسؤال مطروحاً : ما الذي يقي الإنسان مغبّة هذه الملكات الخطيرة التي ركّبت فيه ، لا سيا وقد ملكه الله في غمارها مِقْوَد الحرية والاختيار ، فهو يمارسها كيف شاء ، ويتجه بها إلى حيث يريد ؟ ما الذي يجنب الإنسان أوضار الأنانية والعلم والقوة وحب السيطرة والتملك ، وقد

حررته الأقدار الربانية من كوابح الغريزة القسرية التي ألجم الله بها حياة البهائم والوحوش .

قد تقول لدى النظرة العجلى : إنه العقل ! .. أليس في نعمة العقل ما يقي الإنسان أوضار تلك الصفات ؟

ولكنك ، إن تأملت ، علمت أن العقل يفقد معظم سلطانه أمام شراسة هذه الملكات والصفات . بل ما أسرع ما يتحول العقل إلى جند يسعى في خدمتها ويدور في فلكها .

أيّ عقل هذا الذي يملك أن يحدّ من سلطان الأنانية ، إذ تستيقظ بكل جذورها وفروعها في كيان الإنسان ؟ .. وأي عقل هذا الذي يملك أن يكبح جماح القوة عن أن تندفع إلى أهدافها ، عندما يراها الإنسان ملك يمينه ، ويتطوح منها بنشوة ، ولا كالتي تنبعث من الخمر ؟

على أن العقل قد يجالد ويصارع ، إلى بضع مراحل وأشواط ، ولكن لا بدّ أن تكون الغلبة أخيراً (من حيث الجملة وفي مجموع الأحوال لا جميعها) للحرية .. حرية تلك القوى المستشرية الجامحة في كيان الإنسان .

وينبغي أن تعلم أننا إنما نعني بالعقل ، تلك القوة المميزة في داخل كيان الإنسان عندما لا يدعمها أي سلطان خارجي .

وهكذا تتبلور المشكلة ، وتتجلى أمامك في حجمها وأبعادها المختلفة .

هذا المخلوق الفريد من نوعه ، مطلوب منه أن ينهض بعمارة هذه الأرض بمعناها الحضاري الواسع .. وها قد سُخر له معظم المكونات المنثورة من حوله ، أدواتٍ وأجهزةً لذلك ، وهاهو قد أوتي من البصيرة والقدرة وحوافز البحث وحب

الذات والسيطرة والتملك[1] ما يصلح أن يكون مفاتيح في يده ، يفتح بها كل مستغلق ويصل بها إلى كل خافية ضمن حدود المهمة التي أنيطت به .

ولكن فمن له بمن يدرّبه على استعمال تلك المفاتيح ، ويرسم له الطرق الآمنة ، للكشف عن تلك الخفايا . ومن له بأردية واقية تجعله في مأمن من نيران تلك الاستعدادات والملكات الهائجة التي ركبت فيه وأقيمت في طوايا نفسه ؟

لقد أخفقت أمام هذا السؤال الذي لا مفرّ منه إجابات الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأخلاق ، ودعاة الحرية ، وأنصار المادية ، وأولي الفكر السياسي على اختلافه .

وكان لابدّ أن يرتفع من خلال صمتهم أو حيرتهم جميعاً ، الصوت الوحيد الذي يملك الجواب الحق ، ويحمل إلى الناس حل المشكلة بكل مالها من جذور وأبعاد .

وكان ذلك الصوت ، صوت الوحي الرباني الذي تتابع نزوله إلى الناس عن طريق الرسل والأنبياء ، منذ فجر الحياة الإنسانية الذي تمثل في نشأة آدم عليه السلام ، إلى الحلقة الأخيرة التي ختمت بها سلسلة النبوات والرسالات ، والمتمثلة في بعثة سيدنا محمد ﷺ .

ولم يكن يتضمن هذا الوحي الرباني ـ على كثرة ماتضمنه من أحكام

---

(١) ليس في شيء من هذه الصفات بحدّ ذاتها ما يجدر أن يسمى بصفات مذمومة ، بل كل منها في الحدود التي ينبغي أن تقف عندها ، صفات حميدة وضرورية . فلولا قدر من الأنانية يتمتع به الإنسان لما سعى إلى تحقيق ذاته في نطاق المهمة التي كلف بها ؛ ولولا قدر من حب التملك والسيطرة عنده ، لما وجد ما يحمله على حماية أرض أو رعاية وطن . ولولا قدر من البخل والشح ، لما تزايد في يده مال . وإنما تطلق الأخلاق الحميدة في الإسلام ، على ذلك المزيج المعتدل الذي يتألف من مجموع ما ركب الله في الإنسان من هذه الصفات . ولهذا الموجز تفصيل شائق ، ليس هذا مجاله .

وتعليمات متنوعة ـ أكثر من تبصير الإنسان بالطريقة المثلى التي يجب أن يمارس بها تلك الصفات والملكات التي ركبت في كيانه .. وبالعلاج الواقي من الوقوع في سكرها والتطوح بنشوتها . وذلك لكي لا يلقى الإنسان عنتاً في سبيل استعمالها والإفادة منها ، وليكون المجتمع الذي يبنيه الإنسان مجتمع سعادة وسلم لا مصطرع شقاء وعدوان .

وإذا قلنا (الدين) فهذا هو مضمونه منذ أقدم العصور إلى هذا اليوم . وهذا هو المحور الذي يدور عليه والهدف الذي ينتهي إليه . وهو في حقيقته لم يكن إلا ديناً واحداً تضمن مبادىء وحقائق واحدة . ولم يكن الجديد فيه مع الزمن إلا جدّة الرسل الذين كانوا يتتابعون على التذكير به ، ولم يكن المتطور منه إلا جانبه التشريعي الذي يسير وراء مصالح الناس وتبدّل أطوارهم المعاشية . وما كان له من اسم منذ أن اتجه الله به إلى هذه الخليقة إلاّ الإسلام .

﴿ هُوَ سمّاكُم المسلِمينَ مِنْ قَبْلُ وفي هذا ﴾ [الحج ٧٨] ﴿ إنّ الدِّينَ عند اللهِ الإسْلامُ وما اخْتَلفَ الذين أُوتُوا الكِتابَ إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُم العلمُ بَغياً بينَهُمْ ﴾ [آل عمران ١٩] .

وهذا الدين لم يكن يوماً ما اختراع أمة من الناس ، ولا أثر مجتمع من المجتمعات ، ولا فكر حاكم أو سلطان من البشر . وإنما كان ولا يزال وحياً من لدن خالق هذا الكون وقيّومه إلى الصفوة المختارة من خليقته[١] .

---

(١) هذا لا يتعارض مع ماهو ثابت ومقرر من وجود أديان كثيرة أخرى اصطنعتها أخيلة وأوهام كثير من الناس خلال القرون المنصرمة . وإنما علاقة هذه الأديان الوهمية بالدين الواحد الحق الذي نتحدث عنه ، كعلاقة الأعشاب المتنامية بشكل ذاتي وسط الحقول المرعية والمستنبتة .
غير أن الدافع الذي حمل تلك الأمم والجماعات على اختراع ماتوهمته من أديان ، إنما هو الفطرة الكامنة في نفوسهم جميعاً . وهي فطرة الشعور بوجود خالق ومسير لهذا الكون ، غير أن كثيراً من تلك الجماعات تاهوا عن الطريق السديد في البحث والنظر فوقعوا في ضلالات =

وهـذا شيء منطقي يقتضيـه العقل السليم ، بعـد اليقين بوجود الخـالـق . ألم يكلفهم خالقهم باستخدام هذه الأجهزة الكونيـة في عمـارة الأرض ، وأن يستعينوا بتلـك الملكات والقـدرات التي ركبت فيهم ؟.. إذن كان لابـدّ أن يزودهم بصفحـة الإرشـادات والتعليمـات المتعلقـة بسبل استخـدام تلـك الأجهزة الكـونيـة المعقـدة وبطريقـة تسليـط قـدراتهم وملكاتهم عليهـا بحيث لاتعقب شيئـاً من المخـاطر والأضرار .

أليس هذا ـ ولله المثل الأعلى ـ ما يعمد إليه صاحب أي معمل عندما يبـدع جهازاً جديـداً مفيـداً في حقل الخـدمـات الإنسـانيـة ، إنـه لا يصـدّره إلى النـاس المستفيدين منه إلا ومعـه صفحـة الإرشـادات الـدقيقـة المتعلقـة بكيفيـة استعمالـه وسبيل صيانته ، ولا يستخدمه من يشتريه إلا بعد أن يعكف على تلك الصفحة أو الكراس ربما ، فيفهم مافيه على وجهه ، ثم يطبقه في استخدامه لذلك الجهـاز أدق تطبيق .

إلى صفحـة هـذه الإرشـادات يشير النـداء الإلهي الـذي اتجـه إلى أصغر أسرة إنسانية منذ فجر ظهورها على الأرض قائلاً :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا منْها جميعاً فَإمّا يـأتينكم مني هُـدى فمن تبعَ هُـدايَ فلا خوفٌ عليهِم ولا هم يحْزَنون ﴾ [البقرة ٣٨] .

﴿ يابَنِي آدَمَ إمّا يأتينكم رُسُلٌ مِنْكُمْ يقُصُّونَ عليكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقى وأصْلَحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف ٣٥] .

= وأوهام ، وفيهم من أتيح لهم أن يمسكوا بموازين العلم والمنطق فاهتدوا إلى الدين الحق .. وإنما الشأن في ذلك كفطرة البحث عن الطعام عند الإنسان . فهي قاسم مشترك عند جميع أفراده . غير أن فيهم من أوقعهم جهلهم وتخلّفهم في التخبط والضلال ، فـأخـذوا يقتـاتون أوراق الشجر والبشيع من الطعـام . وفيهم من اهتـدوا بسـائق يقظتهم وبصيرتهم العلميـة إلى الغـذاء الصـالح المفيد .

وعن هذا الكراس البياني (إن صح التعبير) يقول الله عزوجل :

﴿ قد جاءكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مبينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ من اتَّبَع رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلام ويُخْرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النور بإذْنِه ويَهْدِيهِمْ إلى صراطٍ مُستَقيم ﴾ [المائدة ١٥ و ١٦] .

☆ ☆ ☆

فكيف أمكن لهذه الصفحات البيانية (الدين الحق الذي تنزل من عند الله = الإسلام الذي هو الخطاب الإرشادي من قبل خالق الكون إلى الصفوة المختارة من مخلوقاته) كيف أمكنها أن تحمي الإنسان من غوائل تلك الصفات الخطيرة التي ركبت فيه ، وأن تبصّره بالسبيل الأمثل إلى تسخير ما حوله من المكونات لعمارة هذا الكوكب الأرضي ؟

كيف أمكنها أن تحقق في حياة الإنسان ما عجز العقل بمفرده عن تحقيقه ، وما عجز عن تحقيقه الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأخلاق ، والسياسة والاقتصاد ، قديماً وحديثاً ؟

هذا ما سنحاول بيانه في الحلقة التالية من هذا البحث .

ثالثاً : لماذا أخفقت المذاهب الإنسانية الأخرى ؟

ودعني أوضح لك أولاً سرّ إخفاق الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأخلاق ، في تحرير الإنسان من غوائل الصفات التي متعه الله بها ، حتى هاج من تلك الغوائل ما جعلها ، في أكثر الأحيان ، أداة شر وسبب شقاء :

يتلخص هذا السر في أن حصيلة البحوث الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية ، تلتقي ، مهما اختلفت واتسعت ، على توجيه الإنسان إلى ماهو الواجب أو الأفضل في نظر أصحاب هذه البحوث .. أي فهي بحوث منطوية على نتائج إنشائية توجيهية صادرة عن أناس مثلنا .

ومهما كان للكلام التوجيهي من قيمة فكرية ومنطقية ، ومهما أوتي صاحبه لباقة في البيان والعرض ، فإنه أضعف من أن يتغلب على نوازع الحرية الهائجة بين جوانح الإنسان . ذلك لأنّ أفكار علماء المجتمع والفلسفة ، إذا كانت تدعو الإنسان إلى السلوك الأفضل من وجهة نظرهم ، فإنّ حريته التي يستشعر سلطانها في داخل كيانه ، هي الأخرى تدعوه وتوجهه إلى ما ترى أنه السلوك الأفضل والأجدى من وجهة نظرها .. والإنسان إنما يستجيب في هذه الحالة للتوجيه المنبثق من ذاته وداخل كيانه ، أكثر من أن يصغي للنصائح التي تقبل إليه من خارج كيانه . إذ هو ميال دائماً بحكم الفطرة إلى الإمعان في تحقيق ذاته ، وإلى مخالفة ـ بل ربما محاربة ـ كل ما قد يتصور أنه يسعى به إلى العكس ، أي إلى

الانتقاص.من ذاتيته . وحرية الإنسان جزء أساسي من وجوده الاعتباري، بل هي عند الوجوديين جوهر الوجود الإنساني كما يقولون .

فمن الذي يملك ، والحالة هذه ، أن ينتقص شيئاً من ذاتي ، أو يضيق عليّ من ساحة وجودها ، ببرهان من إرشاداته ومواعظه والحديث عن الفضيلة والأفضل .

فمن هنا بقيت فلسفة الفلاسفة ونصائح علماء الأخلاق والاجتماع ، مجرد أحاديث تكتب وتروى وتناقش أو تقرظ ، وبقي الناس كما هم لا يتقيدون منها بأي قيد ، ولا يستجيبون إلا لحكم أهوائهم وما تمليه غوائل تلك الصفات والملكات التي يتمتعون بها .

☆ ☆ ☆

أمّا الدين ـ وليعلم أننا إنما نعني به الإسلام كما قلنا ـ فهو إنما يبدأ عمله في حياة الإنسان بعرضٍ إخباري .. إذ هو يكشف السجاف عن حقائق هامة كامنة في ذاته ، ولكنها قد تكون في بادىء الأمر خفية عن بصيرته وشعوره . وهو يمعن في تجلية هذه الحقائق الذاتية وإبرازها أمام فكره ومشاعره بالأدلة والبراهين المختلفة ، لا يزيد على ذلك شيئاً . فإذا تنبه الإنسان إلى هذه الحقائق وصدّق بها واستولى تأثيرها على مشاعره ، كان ذلك إيذاناً بأن يعيد الإنسان النظر إلى نفسه بطبيعة الحال ، وأن يبدأ فيتعرف على هويته من جديد ، على ضوء واقعه الذاتي الذي لم يكن قد تنبه إليه من قبل ، ولم يكن قد أعطاه من نفسه أي حساب . وسيدعوه ذلك ، ولا ريب ، إلى أن يقيد حريته بمقتضى ذلك الواقع الذي يفرض نفسه ، والذي لا اختيار له في رفضه أو قبوله .

ثم إن الإسلام يقدم لهذا الإنسان ، بعد ذلك ، صفحة الإرشادات والتعليمات المنبثقة عن واقعه الذي سبق له أن اكتشفه وصدّقه واصطبغ به كل من وجدانه

ومشاعره . فما أيسر عليه أن ينصاع عندئذ لتلك التعاليم والإرشادات ، وما أبعد أن تقف حريته لها بالمرصاد .. كيف وقد تقيدت هي ذاتها بسلطان ذلك الواقع وخضعت لضروراته . إذ إن إيمانه به يجعله بطبيعة الحال يلامس شعوره ويسري بالتأثير إلى أخص شؤونه ! .. فهو كمن كان يمارس حريته في كل ما يأكل ويشرب ويتصرف ، ثم اكتشف أنه يعاني من مرض يقتضيه الاحتماء عن بعض تلك الأطعمة والابتعاد عن بعض تلك التصرفات ، لا ريب أنه يجد نفسه أمام واقع حتمي لا يستطيع تجاهله أو عدم الاكتراث به ، لأنه أمر متعلق بذاته وداخل في كينونته . وهو الأمر الذي يستوجب تقييد حريته بما يتفق مع هذا الواقع وحكمه .

فمن هنا كان سلطان الإسلام نافذاً ، في حين بقيت محاولات أولئك الآخرين أفكاراً داخلية نظرية ، ليس لها أي سبيل من التأثير على سلطانه .

ولعلك أدركت الآن السرّ في أن القرآن يحدث الإنسان كثيراً عن ذاته وهويته ومصدره ومآله ، قبل أن يوجهه إلى أي شيء من الواجبات أو يحمله شيئاً من التبعات .

السرّ هو أن خضوعه لتلك الواجبات لا يمكن أن يتم إلا إذا اكتشف ذاته وأدرك أنها قائمة على صفات وقوانين منسجمة مع النهوض بتلك الواجبات . لا جرم إذن أن معرفة الإنسان لذاته بدقّة هي السبيل الذي لا بديل عنه إلى خضوعه للضوابط والأحكام السلوكية .

وتأمل كيف يعرّف القرآن الإنسان ، قبل كل شيء ، على ذاته ويعرفه بهويته ، ويكرر ذلك ويؤكد ، ويجمل ويفصل :

إنه يحدثه بأن الإنسان (وهو واحد من هذه المكونات) عبد للإله الذي خلقه ومملوك حقيقي له ، فهو لا يستقل دون رعاية خالقه وحمايته له ، بحياة ولا

قـدرة ، ولا يملـك أن يغني نفســه بعلم ولا بعقـل ولا مـال ، وأن الله لم يخلقـه بين مكوناته عبثاً ، وإنما حمّلـه مسؤوليـة الخلافـة عن الله في الأرض ، يعمرهـا ويقيم سلطان العدالة الإلهية في جنباتها ، وأنه جل وعلا يرقبه في كل حركاته وسكنـاتـه وخطراته ، وسيبعثه من بعد الموت ، ويوقفه بين يديه ليجزيـه الجزاء الأوفى على كل ما قدّمته يداه من خير أو شر . ثم يوضح الله تعالى أنه خاضع خضوعاً مطلقـاً لنواميس كونية تتعلق بحياته ومعاشه ومراحل نموّه وقوته وضعفه ، فلا يملـك ولن يملك أي سبيل للتحرر منها .

وإليك طائفة من هـذه الآيـات التي لا شـأن لهـا إلا أن تعرف الإنسـان على ذاته :

ـ ﴿ ولقَدْ خلقْنَا الإنْسَـانَ ونَعْلَمُ مـا تُوَسْوِسُ بِـهِ نفْسُـه ونحنُ أقْربُ إليـه مِنْ حبْلِ الوَرِيـدْ ، إذ يتلقَّى المُتَلقّيـانِ عَنِ اليَمين وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيـدْ ، مـا يَلْفِـظُ مِنْ قولٍ إلاّ لَـدَيْـهِ رقِيبٌ عتيـد ، وجَـاءتْ سكْرَةُ المَوْتِ بـالحَقّ ذلـك مَـا كُنْتَ منـه تَحِيدْ ﴾ [ق ١٦ ـ ١٩]

ـ ﴿ إنْ كلُّ منْ في السَّمـواتِ والأرْضِ إلاّ آتي الرَّحْمنِ عبْـداً ، لقـدْ أحْصـاهُمْ وعدَّهُم عَدّاً ، وكلُّهُمْ آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم ٩٣ ـ ٩٥]

ـ ﴿ أفَحسِبْتُم أنَّما خلقْناكُم عبثاً وأنَّكُم إلينا لا تُرْجَعُون ، فتَعَـالَى اللهُ المَلِـكُ الحقُ لا إلَه إلاّ هُوَ ربُّ العَرْشِ الكريم ﴾ [المؤمنون ١١٥ ـ ١١٦]

ـ ﴿ اللهُ الـذِي خلَقكُمْ من ضَعْف ثُمَّ جَعَل مِنْ بَعْـد ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشيْبَة يَخْلُقُ ما يَشاءُ ﴾ [الروم ٥٤]

إن من البيّن أن الإنسان إذا استيقن هذه الحقائق الثابتة في كيانه ، واصطبغ بها يقينه الفكري ، فإن أول ما يتجلى من آثار هذا اليقين في كيانه ، أنه يكتشف لحريته التي يتمتع بها حدوداً أضيق مما كان يتوهم ، إذ يـدرك أن ليس بوسعـه ـ كما

كان يخيل إليه - أن يمارس حريته إلى أقصى مداها دون أن يعوقه عن ذلك عائق ، ودون أن يحمله أحد مسؤولية شيء من تصرفاته وقرارات حريته . وهو يشبه - في ظهور هذه الحقائق أمام يقينه العقلي - ذاك الذي كان يخيل إليه أنه طليق يتحرك ويتجه أنى شاء ، وفجأة أحسّ أنه لا يملك الخروج من البلدة التي هو فيها . فكما أن هذا الإنسان لا بدّ أن يحجّم حوافز حريته وطموحات نفسه المتجهة إلى التنقل والأسفار - بحيث تتسق مع الواقع الحتمي الذي اطلع عليه - كذلك يحجم صاحب اليقين من أقطار حريته ، ويضيق عليها من مطامحها وآمالها ، بالقدر الذي يتفق مع واقعه الذي لا مردّ له .

ومعنى هذا أن صاحب هذا اليقين لا يقع في شيء من غوائل القدرة التي يتمتع بها فلا يستعملها في ظلم أو طغيان أو إساءة بدون حق إلى الآخرين . ولا ينحرف في نشوة المعارف والعلوم التي اكتسبها ولا يستعملها للإضرار بالآخرين ؛ ولا يترك مشاعر أنانيته تصعد به إلى سدة الكبرياء والتعالي على من دونه .

ذلك لأنه يدرك على ضوء ذلك اليقين الإيماني الذي انتهى إليه ، أنه ليس المالك الحقيقي لشيء من قدراته وعلومه أو خصائصه الذاتية . بل هي ليست أكثر من أمانة أودعت عنده إلى حين ، وستسترد منه في وقت قريب ، وسيحاسبه الله حساباً عسيراً على كل إساءة في استخدامها ! .. فما أشبه هذه القدرات والقوى التي يتمتع بها ، بتلك القدرات والحرية التي تتمتع بها دابة أحكم صاحبها في عنقها الزمام ، ثم أرخاه لها وزاد من طوله ما شاء ، وقد شد بيده على طرفه الآخر . فمهما رتعت هذه الدابة وأبعدت في النجعة يميناً وشمالاً ، لا تستطيع أن تتجاوز طول ذلك الزمام المثبت في عنقها .

وكذلك الإنسان بالنسبة للحرية والقدرات التي يتمتع بها .. فأنى لها أن تسكره وتهيجه بغوائلها ، وقد علم أنها مجرد أمانة وضعت بين يديه ، وأنه يوشك

أن يجرد منها بعد حين ، وإذا هو قد رُدّ إلى أرذل العمر : جاهل بعد علم ، ضعيف بعد قوة ، وناسٍ بعد ذكرى ومفتقر بعد غنىً !

وليس الإسلام في جوهره وفروعه أكثر من أنه يعلّم الإنسان هذه الحقيقة ثم يدعوه إلى الانسجام معها في حياته وتقلباته المعاشية . فهو كما قد عرّفناه في بعض ما كتبناه من قبل : (دعوة إلى أن يكون الإنسان عبداً لله بالسلوك الاختياري ، كما قد فطر على العبودية له بالواقع الاضطراري) .

☆ ☆ ☆

بوسعك الآن أن تتصور أثر هذا اليقين ، في مجتمع يصطبغ أفراده به ، عن وعي وإدراك حقيقيَّينْ ، لا عن خضوع قسريّ وتقليدي .

إن من بعض آثار هذا اليقين في مثل هذا المجتمع ، أن تصبح هذه الصفات التي متع الله بها الإنسان ينابيع للخير المجرد والسعادة الصافية ، وأن يُغلق كل ما كان لها من نوافذ إلى الفتن والشقاء وأسبابها . إذ تقوم بين الناس في ذلك المجتمع وشائج الأخوة والمساواة في ظل ظليل من مشاعر عبوديتهم لله تعالى ، بعد أن كانت تهيج فيا بينهم منافسات حاقدة غير شريفة ، في ميادين من الأثرة تتصادم فيها القوى وتتصارع فيها الأسنة ، ويقع المستضعف ضحية لنزوات الأقوياء وسكرتهم الجنونية .

وتصبح نزعة العلم والإدراك نوراً وهاجاً يكشف المزيد من سبل تسخير هذا الكون لسعادة الإنسان ومصلحته ، وقبساً هادياً إلى وجود الذات الإلهية المهيمنة ، وتذكرة تنبهه إلى عبوديته اللاصقة به .

وتغدو أسباب القوة والبطش أدوات لحراسة الحقوق المشروعة ، وحصناً لحفظ العدالة والدفاع عن المبادىء والمثل اليقينية الفاضلة .

وإن في وقائع التاريخ ونماذج الحياة الاجتماعية التي قامت على هذه الأرض ، لأبين شاهد على ما نقول طرداً وعكساً ، أي في كلا حالتي السلب والإيجاب .

وإن بوسعك أن تستبين هذا الهدف جلياً ، من وراء شرعة الإسلام التي ألزم الله بها عباده ، إذا ما تأملت في الآية التالية من كتاب الله تعالى وهو يقص علينا من خبر موسى وفرعون :

﴿ ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ على الذِينَ اسْتُضعِفُوا في الأرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً ونَجْعَلَهُمْ الوارِثِين ، ونُمكِّنَ لَهُمْ في الأرْضِ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامَانَ وجنُودَهُمَا مِنْهُمْ ما كانُوا يحْذرون ﴾ [القصص ٥ ـ ٦]

☆ ☆ ☆

وبكلمة موجزة نقول : إن شأن العقيدة الإسلامية إذ تقوم على يقين عقلي لا على دوافع تقليدية ، أنها تنزل بالمتألهين والمتكبرين من علياء جبروتهم وتحجزهم عن التطاول على الآخرين ، وأنها في الوقت ذاته ترتفع بالدهماء والمستضعفين عن مناخ الذل والهوان المتلبسين بهم ، فتطلقهم فوق صعيد الكرامة الإنسانية الأصيلة . وبذلك يلتقي هؤلاء وأولئك على حدود عادلة متساوية من التعاون الإنساني الكريم دون أن تدع لهؤلاء أو أولئك أي فرصة استغلال أو وسيلة استعباد .

ويستحيل أن يتم هذا ويتحقق إلا بحراسة تتمثل في يقين الفئتين جميعاً بأنهم عبيد مملوكون لله عز وجل ، وأنهم مستأمنون على ما متعهم الله به من قدرات وملكات ليستعينوا بها في عمارة الأرض وتسخير الكون ، وأنهم مبعوثون من بعد الموت ليوم عظيم ينادي فيه منادي الحق جل جلاله :

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابْ ﴾
[المؤمن ١٧]

☆ ☆ ☆

فمن هنا كانت حاجة المجتمعات الإنسانية كلها (في غابر عهودها وحاضر أيامها ومقبلات عصورها) إلى الدينونة الصحيحة الواعية للخالق الواحد عز وجل ، والاعتقاد الجازم بعبودية الإنسان له عبودية مطلقة ، وإلى ضرورة وضع هذا الاعتقاد من الحياة الإنسانية موضع الرعاية والتنفيذ .

وما كان لإنسان هذه الحضارة المعاصرة اليوم ، أن يشقى منها بالعلم ، ويفتقر بالغنى ، ويهلك بالقوة ، ويختنق بالمتعة ـ لو أنه أقامها في ظل من رقابة الإسلام واليقين بعقائده وأحكامه .

ولعمري إن من اليسير جداً على أي عاقل حر أن يدرك ببساطة صدق ما قلناه وأوضحناه ، ولكن ما أصعب على طبقات المستفيدين من شقاء الإنسانية اليوم ، أن يقتحموا العقبة ويُلبسوا القناعة العقلية العارية كسوة التلبية والتطبيق والتنفيذ .

فما هو أقصر الطرق إلى الإسلام في هذا العصر ؟

في الفصول الثلاثة السابقة تحدثنا عن ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية ، وأوضحنا أن أي نظام آخر لا يغني عنه ولا يسدّ مسدّه .

وهذا الذي ذكرناه ، يتفق في المدلول والنتيجة ، مع الصحوة الإسلامية العارمة ، في شتى بقاع العالم الإسلامي ، كما يتفق في الدلالة ذاتها مع ما تراه من التطلع الشديد إلى معرفة الإسلام والاهتمام الكبير بدراسته ، في شتى بقاع أوربا وأمريكا ، وسائر أطراف العالم .

وأحسب أن في هاتين الظاهرتين ما يكفي لحمل المسلمين ، شعوباً ، وحكومات ، على اتخاذ التدابير اللازمة ، بجد وسرعة ، لعودة راشدة إلى دينهم . فما أشدّ خيبتهم إن هم ظلوا في غفلتهم سادرين ، ثم لم توقظهم إلا دعوة الأمم والشعوب الأخرى لهم إلى الإسلام !..

وأحسب أن اليقين بضرورة هذه العودة ، لا يصطدم بأي خلاف في الرأي . فما أصغي اليوم إلى أي فئة أو طبقة أو ذوي اتجاه خاص ومشرب متميز ، في المسلمين ، إلاّ وأراهم جميعاً ينادون بضرورة العودة إلى الإسلام !.. وما أكثر ما كنت تجد فيهم - من قبل - من يدعو الناس علانية إلى نبذه واطّراحه ، وينعته بنعوت التخلف والجمود وعدم المسايرة لحياة هذا العضر !..

ولكن فما هو أقصر الطرق للرجوع إلى الإسلام ؟

أجل هذا هو السؤال الهام الذي يفرض نفسه ، ومن ثم فهو السؤال الهام الذي يجب أن يلقى منا جواباً شافياً عليه ، في هذه المرحلة بالذات .

وبمقدار ما تبرز أهمية هذا التساؤل في هذه المرحلة ، تبرز تفاهة أو فضول سؤال آخر مؤداه : فما هو الإسلام الذي يجب الرجوع إليه ؟

وبتعبيرآخر : فأين هم الذين ينبغي أن ينخلوه لنا باجتهاداتهم ، من القيود والأعباء التي لا تتفق مع الحياة العصرية ، حتى يغدو إسلاماً عصرياً يمكن الانضباط به والوقوف عند حدوده ؟ وأكثر الذين يطرحون هذا السؤال ، هم - ويا للأسف - من المسلمين الذين تبرموا بالإسلام وقيوده ، ولكنهم يطمعون أن ينالوا مكاسب النسبة إليه !..

إن المبادرة إلى هذا السؤال الثاني ، يشكّل تجاوزاً فوضوياً خطيراً ، لمنهجية البحث والنظر .. إذ ما من ريب أنه يجب أن يأتي في الترتيب المنطقي بعد الفراغ من معرفة الجواب الصحيح على السؤال الأول ، وما من ريب أن السعي إلى معرفة هذا الجواب يعدّ أول خطوة إيجابية سليمة في هذا المقام .

فلنعرض إذن عن الذرائعيين أولي الرغبة في القفز والتجاوز ، ولنعد إلى أول الطريق ، حيث يجابهنا السؤال الذي يفرض نفسه : ما هو أقصر الطرق للعود إلى الإسلام ؟

ولإجابة دقيقة على هذا السؤال نقول :

إن الإسلام (في مجموعه الكلي) يقف بين طريقين ، كل منهما يمكن أن يؤدي إلى طرف منه . أما أحدهما فيؤدي إلى طرفه الفرعي الأخير ، والمتمثل في أنظمته وتشريعاته الاجتماعية ، وأما ثانيهما فيؤدي إلى طرفه الأساسي الأول ، والمتمثل في تلك الجذور الاعتقادية الكبرى التي تبصر الإنسان بذاتيته وتوقظه إلى حقيقة

هويته ، ثم تسلمه بدورها إلى فروع الأنظمة والتشريعات والأحكام .

فأي هذين الطريقين من شأنه أن يُسْلَكَ أولاً ، وأن يسلّم الإنسان ويوصله إلى الحقيقة الكلية الكاملة للإسلام ؟

عند هذا التساؤل ، تبرز أول نقطة خلافية كبرى ، في صفوف الجماهير الكثيفة والكثيرة الكبرى المتفقة (في الظاهر) على ضرورة العودة إلى الإسلام والاعتزاز به والاستفادة منه . وهي النقطة التي يهيج الخلاف ويشتد اليوم حولها في الصحف والندوات والمحاضرات . ولكن الذين يطيب لهم أن يثيروا النقاش حولها لا يبرزونها بحقيقتها العارية هذه ، بل يغلفونها بأغلفة الاجتهاد والتطوير والعود إلى ما يسمونه بالمعين الإسلامي الصافي ، أي الصافي في الحقيقة عما قد يضايقهم أو يضيّق عليهم من التبعات والأحكام !.. غير أنها ـ كما ترى ـ أغلفة شفافة لا تستر شيئاً من الحقيقة التي يدور النقاش حولها ، فلا جرم أن جوهر الخلاف يكمن في : أي الطريقين نسلكه إلى الإسلام ، الطريق الذي يسلمنا إلى فروعه وثماره ، أم الذي يهدينا إلى جذوره وجوهره ، ومن ثم يوصلنا إلى تشريعاته وأحكامه ؟

أما فريق السائرين مع التيار الحضاري ، والراكبين للموجة ، فما يريدون أن يسلكوا إلى الإسلام إلا الطريق الذي يسلمهم إلى فروعه ومغانمه ثم يوقفهم عندها ، دون أي التفات جادّ إلى أنه في أصوله الراسخة ليس إلا اصطباغاً بالعبودية الحقيقية لله تعالى ، ودينونة كاملة لحكمه وسلطانه ، وأنه بناء على ذلك لابدّ أن يقيد حرية الإنسان بمقتضيات هذه العبودية وموجباتها .

وفائدة اتجاههم إلى الطريق الذي يوقفهم عند هذا الطرف من مجموع الحقيقة الإسلامية ، أنَّ بوسعهم أن يفهموا الإسلام عندئذ على أنه مجرد نظام فوقي بين هذه الأنظمة الكثيرة التي يتنقل الناس ما بينها ، فما أيسر أن تسلّط عليه دواعي

التبديل والتطوير ، طبقاً لما تمليه الرغبة وتفرضه الأغراض والأهواء ، إذ لاترتبط أنظمته وأحكامه ـ والحالة هذه ـ بأي جذور ثابتة تمنعها من التسيب والتميع ، فضلاً عن التبديل والتحوير .

وما ينبغي أن تتوقع منهم اعترافاً بأنّ هذا هو الإسلام الذي يحبّون له أن يعود ليحكم ويهيمن ، فإنهم لو اعترفوا بذلك ، لتحولوا في لحظة واحدة من مسالمة التيار الإسلامي إلى مجابهته ، ومن ركوب الموجة إلى مقاومتها . غير أن الذي يغنينا عن اعترافهم بذلك ، أنك تراهم يقومون ويقعدون بالحديث عن التراث الإسلامي ، وعما فيه من طاقات هائلة ، ومرونة مسايرة ، و(صلاحية) لكل عصر ، وانسجام مع كل ظرف وطور ، لو أن (شيوخه) عادوا فاجتهدوا في تشريعاته وأحكامه ، وأعادوا النظر في الكثير من أنظمته وقيوده التي لم تعد تساير الركب ، وتماشي الظرف .. يقولون هذا كله ، بالطريقة التي يتحدث بها أحدنا عن أي تشريع أو نظام من هذه الأنظمة التي صاغتها أدمغة الناس ، ثم راحوا يسعون إلى تقييد حريات الآخرين بقيودها . إن أحسن حالات إيماننا بها وانسجامنا معها ، أن نضع هذه الأنظمة في ميزان رؤيتنا الذاتية ، لمصالحنا ورغباتنا وماتوحي إلينا به أهواؤنا ، ثم نأخذ منها ونذر ، ونطور ونبدل ، طبقاً لمقتضيات هذا الميزان .

فإلى هذا الميزان ذاته ، يحيلون أنظمة الإسلام وأحكامه ، وبمقتضى هذا الميزان ذاته يلحون على علماء المسلمين أن يجتهدوا لهم في مسائل الدين وتشريعاته .

وأكبر برهان على هذا أنك تصغي إلى حديث هذا الفريق من الناس ، فلا ترى نفسك إلاّ أمام أناس أرّقهم الهمّ على الإسلام وأمضّهم الألم من ابتعاد المسلمين عنه وعدم تفهمهم له ، وتنظر فإذا بهذا الألم قد وضعهم في مقدمة من يغارون على مصالحه ويتكلمون باسمه . حتى إذا التفتَّ تنظر إلى سلوك أحدهم ،

رأيته لا يضبط نفسه منه بأي قيد ، ولا يتجه إلى قبلة ، ولا يُخضع جبهته لسجود ، إلا أن يأتي ذلك ترقيعاً ، أو مصانعة لقوم ، أو انسجاماً مع حال عابرة !..

ولست أنسى يوماً اجتمعت فيه ، مع بعض أصدقائنا ، بواحد من رجال هذا الفريق ؛ ودار الحديث بيننا عن الإسلام ومشكلات المسلمين معه ـ وكنا على سفر ـ فكان أشَدَّنا اهتماماً بهذا الحديث وأَسبَقنا إلى التألم من الكيد الذي يكيده أعداء المسلمين لدينهم ، وإلى عرض الاقتراحات الكفيلة برعايته وإعادة بناء المجتمع الإسلامي على أحسن وجه . فلما نزلنا في أحد المساجد لنستريح ونتوضأ ، ونصلي المكتوبة ، نزل فاستراح معنا ، ولكنه انحاز عنا إلى أهدأ بقعة فيه ، ولم يشترك معنا في وضوء ولا صلاة ، ولعله كان مشغولاً عنا وعما نحن فيه بالتأمل في أفضل السبل إلى إعادة بناء المجتمع الإسلامي وإبراز الإسلام نقياً عن الشوائب التي تسيء إليه وتقصي الناس عنه !!..

☆ ☆ ☆

وأما فريق آخر (وهو يمثل اليوم جمهرة الشباب المثقف رجالاً ونساء في معظم البلاد العربية والإسلامية ، كما يمثل أكثر الذين يدخلون الإسلام في ربوع أوربا وأمريكا) فما يشدّهم إلى الإسلام ، إلاّ ارتيابهم في أفكارهم وعقائدهم السابقة التي كانت تحجبهم يوماً ما عن النظر في أصول الإسلام وأسسه التي ينهض وجوده عليها ؛ لذا فأنت تراهم يسلكون إليه الطريق الموصلة إلى تلك الأصول والكفيلة بفهمهم لتلك الأسس . وهم من خلال سعيهم هذا إنما يحاولون التعرف ، من جديد ، على هوياتهم الحقيقية ، وإلى الوقوف على حقيقة هذه الدنيا ، والعلاقة التي يجب أن تقوم بينها وبين الإنسان . ثم إنهم لا يطمحون إلى معرفة هذا كله إلاّ وهم موقنون بضرورة إعادة النظر في تصوراتهم السابقة عن حرية الإنسان ، ومدى امتلاكه لزمام أمره ، والمسؤوليات التي يتحملها نتائج لسعيه وكسبه .

وتنظر في حال هؤلاء ، فتجدهم يتأملون في دلائل ألوهية المشرع ، وعظيم صفاته أكثر مما يتأملون في مشكلة التوفيق بين تشريعاته ومقتضيات العصر الذي يعيشون فيه . وتجدهم يتفكرون في معاني عبوديتهم لله عزوجل ومالكيته لرقابهم ، أكثر مما يتفكرون في المغانم التي قد يجنونها لأنفسهم من خلال انضمامهم لركب المنادين بعودة الإسلام .

وتراهم ، وقد تجلى الإسلام ـ أول ما تجلى ـ في كياناتهم ، تبتلاً واصطباغاً بحقائق العبودية لله عزوجل ؛ وليست العبودية إلا تعبيراً عن بذل أقصى الطاعة للمعبود . وهي الكلية العظمى التي يكرر المسلم مبايعته لله عزوجل على التزامها والتقيد بها ، كلما وقف بين يديه في صلاة ، ألا تراه يناجيه قائلاً : ﴿ إيّاكَ نَعْبُدُ وَإيّاكَ نَسْتَعينُ ﴾ [الفاتحة ٥] .

وما أذكر أنني تعرفت إلى واحد من هؤلاء الأوربيين أو الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام ، إلا ورأيت أن الخطوة الأولى في حياته الإسلامية السلوكية ، تمثلت في إخضاع كل من المظهر والسلوك الشخصي لمقتضيات العبودية لله عز وجل ، ولكم ذكّرتْني مظاهر هؤلاء الناس بقوله عزَّ وجل : ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيايَ ومَمَاتِي لله رَبِّ العالَمِين ﴾ [الأنعام ١٦٢] .

ويتمثل فرق ما بين هذين الفريقين في النتيجة فيما يلي :

أولاً ـ ينظر أولهما إلى الفقه الإسلامي على أنه ذخر حضاري مرن ، ما أيسر أن يجاري الحضارة الغربية اليوم ، لو أقبل علماء الشريعة الإسلامية إليه تطويراً وتبديلاً ، عن طريق (الاجتهاد) ، وبذلك يتخلص المسلم من مأساة الغربة التي يعاني منها تجاه التيارات الحضارية المعاصرة !.. أما ثانيهما فيمارس أحكام الشريعة الإسلامية وينظر إليها من خلال يقينه بعبوديته الحقيقية لمنزل هذه الأحكام ومشرّعها ، فتراه يحتاط في التمسك بها والائتمان عليها والحذر من أن يقع في طائلة

أي تغيير أو تضييع لشيء منها ، مغتبطاً بغربته التي امتدحه رسول الله على اصطباغه بها وتحمله لها[1] .

ثانياً ـ يقف أولهما من مجموع الحقيقة الإسلامية ، عند طرف الأنظمة والتشريعات الاجتماعية والمظاهر التراثية العامة ، ثم لا يتجاوزها إلى شيء من الجذور والأسس التي لا يمكن أن ينهض وجود تلك التشريعات إلاّ عليها ، إذ كان مطمحه من الإسلام تلك الإطارات والمظاهر الاجتماعية التي يؤمل أن تكتسب من المرونة بفضل (الاجتهاد) و(المجتهدين) ما يجعلها أبدع وأجمل أوعية إسلامية لاحتواء أحدث صور الحياة العصرية . فلا جرم أن اهتمام هذا الفريق بما وراء هذه المظاهر من حقائق العبودية والتزاماتها السلوكية ، مفقود ، بل ربما نظر إليه هذا الفريق نظرة انتقاص وازدراء ، كما رأينا ذلك وقرأناه كثيراً !.. أما الفريق الثاني ، فنظراً إلى أنه سلك إلى الإسلام الطريق الموصل إلى جذوره والمعرّف على حقيقته وجوهره ، فقد كان لابدّ لتلك الجذور والأصول أن تسلمه بدورها إلى التطبيقات السلوكية والتشريعات الشخصية والاجتماعية . وكان لابدّ له أن ينضوي تحت سلطان تلك التشريعات بدافع من مشاعر عبوديته للمشرع أولاً ، لا بدافع من الآمال في أن تتحول تلك التشريعات إلى مفاتيح تخدم عشاق المدنية والحياة العصرية لفتح ما استغلق من السبل والأبواب إليها .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فواضح للعيان أن الإسلام الذي ألزم الله به عباده ، إنما هو ذلك الإسلام الذي يبدأ بترسيخ جذور العقيدة وتعريف الإنسان بهويته الحقيقية من خلال تبصيره بربّ هذه المكونات وخالقها ، ثم يسلمه بعد ذلك إلى الضوابط

---

(١) . وذلك في قوله ﷺ : « سيعود هذا الدين غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » . رواه مسلم والترمذي وابن ماجة وأبو داود .

السلوكية وقيود الشريعة والأخلاق . وليس ذلك الإسلام الآخر الذي ابتدعه عشاق الحضارة الغربية ، إذ جعلوه عنواناً على تراث حضاري يفخرون بذكريات أمجاده ، ويتغزلون بفائق مرونته وصلاحية انسياقه وراء كل متطور وجديد .

أما هذه الدعوة الهائجة إلى (الاجتهاد) ـ وهي لاتهيج ، كما رأيت ، إلا في صدور هؤلاء الذين ابتدعوا للناس الإسلام التراثي الذي لا مهمة له إلا التوفيق بين المسلمين ومناهج الحضارة الغربية ـ فلسنا ممن ينكر الاجتهاد ولاممن يجهلون أهميته وضرورته ، ولكن على أن يكون أداة ترسيخ للإسلام ، لامزلقاً لتمييعه .. فتضييعه .

ولا يكون الاجتهاد أداة ترسيخ له ، إلا بعد أن يستوثق المسلمون الذين يجري الاجتهاد لصالحهم ، من تمكنهم ضمن الدائرة الإسلامية العامة ، التي من شأنها أن تبرز أصالتهم ، وأن تحقق ذاتيتهم ، وتحميهم من الذوبان والضياع في مجرى التيارات الحضارية الجانحة . فعندئذ يمكن للحقيقة الاجتهادية التي هي جزء من بنيان الشريعة الإسلامية ، أن تتجلّى للعيان ، وأن يمارسها المسلمون ، وهم مستقرون متمكنون ضمن سلطان دائرتهم الإسلامية العامة التي يتحصنون فيها .

ولكن ، هل يتمتع المسلمون اليوم بهذه الحصانة ؟ .. وهل يعيشون آمنين في ظل ذاتيتهم المستقلة النابعة من التمسك بجذور الحقيقة الإسلامية ، دون أن تجرفهم التيارات أو تستهويهم المغريات ؟

ما أظن أن فينا من يجهل الإجابة على هذا السؤال .. فذاتية المسلمين اليوم ضائعة ، ومعالم كينونتهم الحضارية مبددة ! .. وهم اليوم ـ أو جلّهم ـ يعيشون أسرى في سلوكهم ، أو على الأقل في نفوسهم لسلطان المدنية الغربية ، بكل ما فيها من سوء وانحراف . بل كثيراً ما تجد أن خضوع كثير من المسلمين لسلطان هذه المدنية وتيارها ، أشدّ من خضوع الغربيين أنفسهم ، أصحاب تلك المدنية وورثتها .

ومعنى هذا أن المجتمع الإسلامي يقف وسط منحدر زلق ، وأن تيار الاندفاع به إلى الأسفل قد أفقده السيطرة على ذاته ، فهل يبقى للاجتهاد المطلوب من معنى في هذه الحالة ، سوى أن يكون تياراً إضافياً لمزيد من الدفع إلى الأسفل ، في ظروف شاذة لا سلطان فيها لتأني الفكر ولا لحكمة العقل .

إنّ على هؤلاء الناس أن يهتموا قبل كل شيء بتحقيق ذاتيتهم الإسلامية ، بدءاً بالعقيدة الصافية الراسخة في كل من الفكر والوجدان ، ثم وصولاً إلى المبادىء والأحكام السلوكية المختلفة ، ثم أن يسعوا إلى إيجاد تيار اجتماعي يتكون من الأفراد الصالحين والصادقين في إسلامهم وإيمانهم بالله عز وجل .. حتى إذا قام هذا التيار قوياً بذاته راسخاً بمصدره وتكوّن من حوله حصن يقي المجتمع من الوقوع في عشوائية السعي وراء أبواق الحضارة الغربية الخادعة ـ : آن عندئذ أن يتلاقى هؤلاء المسلمون ليتذاكروا حول ما يمكن أن يستفيدوه من منجزات الحضارة والعلوم الحديثة على ضوء ما تقضي به المبادىء والأصول الإسلامية الراسخة . ولا مانع عندئذ ، بل يجب الاستعانة بالسبل الاجتهادية لتمحيص النظر والابتعاد عن الشوائب والتقاط كل ما هو صالح ومبرور لحياة المسلمين ونهضتهم المنتظرة .

وليس هذا تثبيطاً للمسلمين عن قيامهم بواجب الاجتهاد والثورة على مظاهر التخلف وأسبابه ، بل هو على العكس من ذلك : استعجال لهم أن يبادروا إلى تحصين وجودهم الإسلامي بالسبل التي ذكرناها ، كي يباشروا ، بدون تريث بمساعيهم الاجتهادية هذه . إذ رُبَّ عجلة رعناء دون تبصر بضرورة اتخاذ السبل والتمهيدات اللازمة ، توقع أصحابها في نقيض ما تأملوه ، وتعيدهم إلى مؤخرة الصفوف المتخلفة .

☆ ☆ ☆

ولكنّ هذا الكلام كلَّه إنما يصلح أن يخاطب به من يبحث عن أصلح الطرق وأقصرها للاصطباغ بالإسلام الذي ألزم الله به عباده ، اتباعاً لمرضاته وابتعاداً عن سخطه .

فأما من يبحث عن أغلفة إسلامية للمدنية الغربية التي يستسلم لها عن طواعية ورضى ، كثير ممن يركبون الموجة ، ويتصدرون في مجالس المهتمين بالإسلام والعاملين على عودته ، ولا يعجبهم من أبواب (أصول الفقه) إلا باب الاجتهاد ، على أن يكون اجتهاداً يوسّع ويبيح ويقرب ، لا اجتهاداً يضيّق ويحرم ويشدد ! .. ـ أقول : فأما هذا الفريق من الناس ، فإن مثل هذا الكلام معهم عبث وأيّ عبث .. إذ هو يشدّهم إلى قيود الإسلام وجدّه ، وهم يفرّون منها إلى ما يحررهم من « نصوصه الضيقة » وينقلهم إلى « روحه الطليقة » وإلى من « يربط لهم الإسلام بحياة العصر الحديث ارتباطاً يجعلهم لا يشعرون بأي غربة عن حضارة القرن العشرين »[1]

فإذا ناقشتهم في هذا الكلام ، وقلت لهم : إنكم إذن تحبون أن تتخذوا من الدين عوناً جديداً لدنياكم ، وخادماً لأهوائكم ، أجابك قائل منهم : وأيّ ضير في ذلك ؟ ألم يُشرع الدين كله من أجل رعاية دنيا الناس ومصالحهم ؟ وهل يوجد أدلّ على هذا من القاعدة المشهورة القائلة : « حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله » ؟

إذن ، فلننتقل إلى تمحيص هذه المسألة : أيها أقامه الله لرعاية الثاني ؟ الدين للدنيا أم الدنيا للدين ؟ . وهذا ما سنشرحه في البحث التالي .

---

(١) هذه الفقرات التي أثبتّها ما بين قوسين ، منقولة من مقالات منشورة في مجلات سيارة معروفة لكتاب معذّبين ومؤرقين على مصير الإسلام الذي يعرض أصحابه عن واجب رعايته وتجديده ! ..

أيهما أقامه الله لرعاية الثاني :

الدين للدنيا، أم الدنيا للدين ؟

لقد تطارح أحد الكاتبين هذا السؤال مع نفسه ، ثم استعجل فتولّى الإجابة على أطروحته بنفسه ، وارتضى في الإجابة على نفسه أن يقول : بل الدين هو الذي أقيم من أجل الدنيا وليس العكس .

والجواب على هذا السؤال واضح ، بل إن مضمون الجواب داخل في قوام الدين ذاته (وإنما نعني بالدين في هذا الصدد الإسلام) فمن لم يتبصر الإجابة على هذا السؤال لم يكن مصطبغاً في الواقع بحقيقة التدين أو الدينونة لله عز وجل .. ولكن الجواب بمقدار ما هو واضح ، دقيق أيضاً . فهو واضح ولكنه ليس بسطحي ؛ بمعنى أن تداخلاً ما قد يتراءى في الأمر ، لمن يريد أن يفهمه فهماً صحافياً سريعاً دون تريث وتدبر ؛ وعندئذ يمكن أن يفسر ظاهرة هذا التداخل على النحو الذي يروق له ، فيخلط أو يخطىء في الجواب .

ودعني أضرب لك مثلاً يصور أمامك المظهر الكلي لهذه القضية ، فقد كنت أوقن ولا أزال ؛ أن فهم المعضلات أو المشكلات الجزئية في أمرٍ مّا ، رهن بتوفر فهم كلي صحيح لذلك الأمر في مجموعه قبل كل شيء . فإن لم يتوفر ذلك الفهم الكلي بقيت المشكلات الجزئية على حالها ، وظلت الرؤية نحوها متعكرة مستعصية على الصفاء :

ولنطرح أولاً هذا المثال :

مسؤول كبير أوفد موظفاً لديه إلى بلد بعيدة لأداء مهمة . إن مما لا ريب فيه أن نهوضه بتلك المهمة متوقف على توفر أسباب الراحة والهدوء له في تلك البلدة التي سيحل بها . لذا كان من المنطقي والطبيعي أن يضمن له المسؤول الكبير توفر ذلك كله على نحو يعينه في أداء مهمته ولا يعوقه عنها . وإذا كان هذا الموظف جاهلاً بمناخ تلك البلدة وجوها الاقتصادي والاجتماعي مثلاً ، فمن الطبيعي أن تستتبع رعاية المهمة التي أوفد من أجلها ، أن يُزوَّد بكراس تعليمات محددة تعرّفه على أفضل السبل الكفيلة بتعايش إيجابي سليم مع ذلك الجو والمناخ اللذين سيتقلب إلى حين من الزمن فيهما .

إن من الواضح جداً أن محور القضية في هذا المثال إنما هو المهمة الخاصة التي كلف الموظف بأدائها ، أما بقية المسائل والمظاهر التي فيها فظواهر تطوف بها على وجه الرعاية والخدمة ، وربما اتخذ بعض تلك الظواهر شكل المهمة التي يكلف بها ، كصفحة التعليمات التي يزود بها ويكلف برعايتها ، حماية لمصالحه الشخصية ومقتضيات أمنه وسلامته وراحته ، إلا أنها تأتي مهماتٍ ثانوية وتبعية ، تدور هي الأخرى في فلك المحور الأساسي الثابت ، ألا وهو المهمة الكبرى التي ما شرع الإيفاد كله إلا من أجلها .

وعلى هذا فمن الخطأ بل من الغباء أن يرى هذا الموظف أسباب الرفاهية ألتي أحيط بها ، فيعكف على صفحة التعليمات التي تبيّن له كيفية ممارسة تلك الأسباب على خير وجه ، ثم يستيقن أنّ مهمته إنما هي مراجعة هذه التعليمات ثم الاستمرار في تطبيقها على تلك الأسباب ، بحيث ينسى أن ذلك كله ليس إلا ذيولاً تابعة للمهمة الأساسية التي أبعد عن وطنه في سبيلها ، وغباء أكثر أن يتصور (إذا ذُكّر بتلك المهمة وضرورة صرف جهوده الأساسية إليها) أنها إنما أنيطت به وكلف بها من أجل أن تكون أداة لهذه الامتيازات التي يتمتع بها ! ..

☆ ☆ ☆

تلك هي الصورة الكلية في نموذج مصغر جداً ، لقصة النشأة الإنسانية على هذا الكوكب الأرضي . وباستيعابها تتبين الإجابة الصحيحة على السؤال المطروح .

لقد خلق الله الإنسان وقرن به مهمة كبرى لم يشرف الله بها أحداً من دونه ، ألا وهي أن يمارس العبودية لله عز وجل بسلوكه الاختياري ، كما قد طبع بحقيقة العبودية له ، في واقعه الاضطراري . وبذلك يغدو الإنسان ـ من حيث وجوده الفردي والاجتماعي ـ أبرز الآيات الكونية الناطقة بوجود الله عز وجل وألوهيته . وهكذا فإن ظهور عبودية الإنسان لله هو الوجه الثاني لتجلي ربوبية الله عز وجل .

غير أن ممارسة الإنسان لهذه العبودية من خلال سلوكه الاختياري ، تتوقف على قدرات وصفات معينة لا بد أن يتجهز بها كما أوضحنا فيما سبق . ثم إنها لا تتحقق بمعناها الدقيق (وهو الخضوع المطلق للمعبود) إلا من خلال قيامه بواجبات تنطوي على قدر من الكلفة والمشقة ، وهي المعنيُّ بكلمة (التكاليف) ولن يمكنه النهوض بها إلا من خلال نسيج تعاون تسري خيوطه بينه وبين بني جنسه . وإنما سبيل ذلك أن يقبل الإنسان متعاوناً مع إخوانه إلى عمارة هذه الأرض بمعناها الحضاري الشامل ، وأن تصادفه عليها من جراء ذلك المغريات وتطوف من حوله الشهوات ، ويتعرض للمصائب والآلام فلا تحرفه الملهيات والمغريات بجواذبها ، ولا تصدّه المصائب والآلام بشدائدها . بل يظل ثابتاً خلال ذلك كله على تنفيذ ما قد ألزمه الله به من الانضباط بالصراط السلوكي الذي اختطه له وكلفه بالسير عليه . فإن أورده هذا الصراط على النعم تمتع بها شاكراً ، وإن زجّه في مآس ومصائب تقبلها صابراً . وتلك هي حقيقة الاصطباغ بالعبودية لله عز وجل من خلال السلوك الاختياري للإنسان في فجاج الحياة ، وذلك هو قصارى ما خلق الإنسان من أجله في هذه الحياة الدنيا .

وإليك بعضاً من المنبهات القرآنية إلى هذه الحقيقة :

- ﴿ ومَـا خَلَقْتُ الجنَ وَالإنْسَ إلا ليعبـدون ، مـا أُريـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ومَـا أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُون ﴾ . [الذاريات ٥٦ ـ ٥٧]

- ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكِي وَمَحيـايَ وَمَماتي لله رَبِّ العـالَمينَ ، لا شَريـكَ لَـهُ وَبِذَلكَ أُمِرْتُ وَأَنا أَوّلُ المُسْلمين ﴾ . [الأنعام ١٦٢ ـ ١٦٣]

- ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأَمـانَـةَ عَلى السَّماواتِ والأَرْضِ وَالجِبَـالِ فـأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهـا وَأَشْفَقْنَ مِنْها وحَمَلَها الإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب ٧٢]

فهذا هو المحور التكليفي لسائر الامتيـازات والصفـات التي يتمتع الإنسـان في دنياه بها ، بل ولسائر المصالح والنعم التي ضمنها الله له .

وعلى هـذا الأسـاس ، وانطـلاقـاً من هـذا المحـور أمره كا قلنـا بعمارة الأرض فقال :

- ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها ﴾ .[هود ٦١]

ولما كان الدخول في هذا العمل الحضاري الكبير يتطلب تعاوناً دقيقاً وجهداً أخلاقياً كبيراً والتزاماً بنظام دقيق في إقامة أسباب العيش وحمايـة السلم والحيـاة ، شرع الله للإنسان الأحكام والنظم الكفيلة برعاية كل ذلك وحمـايتـه لـه ، وتلـك هي أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالمعاملات وشؤون المجتمع على اختلافها .

وهي التي أشار إليها البيان الإلهي بقوله عز وجل :

- ﴿ يا أَيُّهـا الـذين آمَنُوا استَجيبُوا لله وللرسُولِ إذا دَعَـاكم لمـا يُحْيِيكم .. ﴾ [الأنفال ٢٤]

وبقوله :

- ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلَنُحْيِيَنَّه حَيـاةً طَيبـةً . ﴾ [النحل ٩٧]

وقد يتوهم إنسان أن الدين إنما يتمثل في جملة هـذه التشريعـات ، ولمـا كانت هذه التشريعات قائمة بشأن المصالح الإنسانية الدنيوية مرسومة لرعـايتهـا ، فقـد صح إذن أن يقال : إن الدين إنما أقيم لرعاية الدنيا وليس العكس .

ولكن هذا تخبط خطير يجب على المسلم أن يتوقى الانزلاق فيـه . فـإنّ جملة التشريعات المتعلقة بمعاملات الناس وإقامة مصالحهم الدنيوية ، ليست من المثـال الذي ذكرناه في أول مقـالنـا هـذا ، إلا مثل كراس التعليمـات التي زُوِّد بهـا ذلـك الموظف ، ليرعى من خلال تطبيقها مصالحه الشخصية فيكون ذلك عونـاً لـه على إنجاز المهمة التي أنيطت به .

أي إن هـذه التشريعـات جزء يسير من بنيـة الـدين في مجمـوعـه ، وهي إنمـا شرعهـا الله تعـالى لتنتظم بهـا حيـاة النـاس وتستقيم على وجههـا السليم ، فيفرغوا للنهوض بأعباء العبوديـة التي كلفوا بهـا ، والتي هي محور الـدين وجوهره ، والتي تتجلى أول ما تتجلى في القصد والاتجاه القلبي .

ألا ترى إلى فقهاء الشريعة الإسلامية ، وفي مقـدمتهم الإمـام الغزالي ، كيف يصنفون أحكام المعاملات في جملة العلوم الدنيوية . ولا تنافي بين أن تكون علوماً دنيوية كما يقولون ، وأن تكون في الوقت ذاته جزءاً من الدين .

لأن الـدين في مجموعـه يحوي الهـدف الأسـاسي ، والوسـائل ، والسبل المعينـة للوصول إليه . ولذا عرفوا الدين السماوي الحق بأنه :

« تشريـع إلهي لأولي العقـول السليمـة لهدايتهم إلى مـا فيـه الخير في دنيـاهم وآخرتهم » .

ولكي يظل المسلم على ذُكر لهذه الحقيقة ، بعيداً عن الوقوع في هذا المنزلق ، يظل البيان الإلهي يحذره من الانخداع بالدنيا والركون إليها ، ومن نسيان الآخرة التي هو مقبل عليها ، ويظل ينعتها له بما يبعثه على التيقظ لحقيقتها وعلى اتخاذها مجرد وسيلة إلى غاية ، فهو ينعتها مرة بالعاجلة ومرة أخرى بأنها متاع الغرور ، وحسبك أنه سماها الحياة الدنيا ، ولعلنا نسينا معنى هذه الكلمة (الدنيا) من كثرة ما صقلتها آذاننا ، ومن شدة ما اقترن بها في أذهاننا من مغرياتها وأهوائها . وبالمقابل يظل البيان الإلهي يشدّ عقولنا واهتماماتنا إلى الحياة الآخرة التي تختبىء خلف غلاف الموت ، وينعتها لنا بما يزيدنا تعلقاً بها وتهيؤاً لها ، فهو يسميها مرة دار السلام ، ومرة أخرى دار المقامة ، وفي مكان آخر دار القرار ، وحسبك أنه يقول عنها : ﴿ ادْخُلوها بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلودِ ، لَهُمْ ما يَشَاؤون فيها وَلَدَيْنا مَزيدٌ ﴾ [ق ٣٤ ـ ٣٥]

ثم إن البيان الإلهي لا يكتفي بهذه التعريفات الموقظة والمنبهة ، بل يحمّل الإنسان في أعقاب ذلك مسؤولية عدم تيقظه إلى الحقيقة ، ومغبة انخداعه بهذه الدار التي يمرّ بها ، واتخاذه لها هدفاً بعد أن جعلها الله له مجرد وسيلة وأداة لاستعمالها في تحقيق المهمة التي حمله الله إياها . فهو يقول في بيان عام :

﴿ مَنْ كانَ يُريدُ الْحيَاةَ الدُّنْيا وَزينَتَها نُوَفِ إلَيْهِمْ أعْمالَهُمْ فيها وَهُمْ فيها لا يُبْخَسونَ ، أولَئِكَ الَّذينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخرة إلا النّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعوا فيها وَباطِلٌ ما كَانوا يَعْمَلونَ ﴾ [هود ١٥ ـ ١٦]

ويقول في بيان مثله :

﴿ .. وَمَنْ كان يُريدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنها ومَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ ﴾ [الشورى ٢٠]

☆ ☆ ☆

وهكذا يتبين لكل مؤمن متدبر أن سائر التشريعات التي أنزلها الله تعالى رعاية لما يحتاج إليه الناس في دنياهم هذه وحماية لمصالحهم فيها ، ليست إلا بعضاً من العون الإلهي للإنسان كي يلقى في الدنيا طمأنينته وأمنه ، فيتفرغ لما هو بصدده ، ويتخذ من النعم التي يتقلب فيها أداة لتحقيق المهمة التي كلفه الله بها . وذلك هو معنى الشكر الحقيقي فيما أجمع عليه علماء العقيدة الإسلامية : « صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما قد خلقه لأجله » .

ألا ترى أن هذه التشريعات لو غرست على أرض غير إسلامية ، وأعجب بها فطبقها على أنفسهم أناس غير مسلمين ، لا يكون لها من قيمة فوق القيمة التي تكون لسائر القوانين الأخرى ، ولا يقربهم تطبيقها إلى الله شروى نقير ! ..

إن الشريان الذي يبعث في هذه التشريعات حياتها الدينية ، والروح التي تبث فيها قوة التقريب إلى مرضاة الله عز وجل ، إنما يتمثلان في تحقق المقبل إليها بمعاني العبودية الصافية الصادقة لله عز وجل ، وهي لا تتحقق إلا من حيث يعلم العبد أنه يسير من دنياه على جسر يوصله إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن المطلوب منه أن يسخر كل ما فيها لإبراز معاني عبوديته ومملوكيته لله عز وجل .

ولست الآن بصدد شرح هذا التسخير وكيفيته في المرافق الدنيوية المختلفة ، فهو بحث متشعب طويل الذيل ، وما أظن أن مسلماً صادقاً مع الله في إسلامه يجهل ما ينبغي أن يعلمه في ذلك .

نقول بعد هذا : إن من أعاجيب حكمة الله تعالى أن نظام العاجلة الدنيوية نفسها ، لا يمكن أن يستقيم بين الناس على نحو مسعد وعادل ، إلا إذا اتخذوا من الآخرة المحور الثابت لهم ، وجعلوا من الدنيا ظواهر تدور في فلكها وتسعى لخدمتها .

فما لم أكن على يقين بوقفتي التي سأقفها غداً بين يدي الله ، وأنّ محاكمة دقيقة

تنتظرني آنذاك ، وسأحاسب من خلالها على ما اكتسبته بمحض اختياري في هـذه الدنيا ، وأن من وراء ذلك مستقراً لا انقضـاء لـه وجزاء لا مرّد لـه ـ أقول : سـا لم أكن موقناً اليوم بذلك كله ، لن يأمن النـاس جـانبي قـط ، ولن أخلص التعـاون معهم بحال ، وإنما ستكون شريعتي التي تعيش في أعمـاق نفسي آنـذاك مـدى القوة التي أملكها لبلوغ ما أشاء والاستيلاء على كل ما أريد .

والـدين .. هـذا الـدين الـذي سيتحول في نظري ـ والعيـاذ بـالله ـ إلى أداة لرعاية الدنيا ، سيكون أمضى سلاح في يدي آناً ، وأصلب مجنٍّ أمـام وجهي آنـاً ، لفتح كافة السدود التي قد أجدها أمامي ، وللتغلب على سائر العقبات التي تنهض في طريقي . فمن لم أستطـع التغلب عليـه بسلطـاني وقهري ، خـدعتـه بـإيمـاني وديني ! .. وما الذي يمنع ؟ .. أليس الدين إنما أقيم للدنيا ؟ ..

وهل تضرمت اليـوم نيران الظلم على كثير من الشعـوب ، إلاّ لأحـد سببين ، كل منهما أشد خطراً من الثاني : كفر بالله أدى إلى احتقـار عبـاد الله والاستهـانـة بحقـوقهم . أو تـذرع بـالـدين إلى الـدنيـا أدّى إلى مخـادعتهم واستـلاب حقـوقهم وأوطانهم .

وهل ستطول تسمية دين بهذا الشكل (ديناً) ؟

لا بدّ أن تتجلّى صبغـة الـدنيويـة البحتـة عمـا قريب أمـام الأنظـار كلهـا ، فيتحول في حقيقته وجوهره إلى بعض من مظاهر الـدنيـا وأسبـابهـا . فلا جرم أن (ديناً) يدور في فلك الدنيا ومصالحهـا ليس اسمـه دينـاً إلا في الظـاهر ، أمـا في الحقيقة فهو من صميم الجوهر الدنيوي ذاته .

على أن هـذه الـدنيـا عنـدمـا تصبح هي المحور الأسـاسي الثـابت ، ويتحول الدين معها إلى أسباب لرعايتها وحمايتها ، لا يمكن أن تسعـد أهلهـا ولا أن تريح لهم بالاً أو تطمئن لهم نفساً .

تتحول الحضارات عندئذ إلى أسباب بغي ودمار ، وتضيق الأرض الواسعة بمن عليها ، ويشتد التنافس على خيراتها مهما كثرت ، ويلتهب الصراع بينهم على أتفه الأسباب . ويصدق فيهم قول المتنبي :

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أهون من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

ولا يغيبن عنك أننا إنما نتحدث عما تؤول إليه آنذاك حياة المجتمعات الإنسانية ، ولسنا ننظر إلى واقع الأفراد .

وهكذا يتوقف إسعاد الدنيا للمجتمعات الإنسانية بنعمها وخيراتها ، على شرط أساسي هو أن ينظر الناس إليها على أنها عرض زائل وأنها ليست أكثر من ممر إلى مقر ، مع النهوض بدافع وظيفي إلى عمارتها على النحو الذي أمرهم الله تعالى به . فأما إذا نظروا إليها على أنها المستقر وأنها الهدف الذي ينبغي أن يحج الإنسان إليه ، فإنها لا تورث هؤلاء الناظرين إليها على هذا الأساس إلاّ غصص الشقاء وأسباب الحروب والبغضاء . والحديث كما قلنا عن المجتمعات لا عن الأفراد .

إذن فلا سبيل للاستفادة الصحيحة من الدنيا ، إلا أذا وُضِعتْ من اعتبار الناس في المكان الذي وضعها الله فيه ، ولا سبيل لوضع الإنسان دنياه في ذلك المكان إلاّ إذا أسلم مقادته إلى الله وعكف على تحقيق عبوديته له وأيقن أن ذلك هو الهدف الأسمى الذي خلق لتحقيقه .

ولولا هذه النظرة التي نُشِّىء الرعيل الأول من رجال تاريخنا الإسلامي عليها ، لما دانت لهم الدنيا ولما انقادت وراءهم وملكتهم مقاليد الحضارة والرسوخ في الأرض . بل لتأبت عليهم ولدفعهم الافتنان بها إلى الصراع عليها ، فالهلاك والتمزق في سبيلها .

☆ ☆ ☆

أرأيت إلى الجسر الذي يصلك إلى قريتك التي تريد أن تعود إليها ؟

إنك تستطيع أن تدرك مدى أهميته القصوى وكيفية الاستفادة منه ، عندما تدرك بيقينك أنه مجرد جسر للاجتياز عليه ، ولا ينافي ذلك أنه مجهز بأسباب المتعة والراحة لكل من يمرّ عليه . ولكنه ينقلب إلى شيء لا قيمة له ، بل يتحول إلى عقبة ثقيلة وخطيرة ، عندما تنسى أنه مجرد جسر ، خلال انبهارك بخضرة جنباته وروعة المناظر التي تحف به من أطرافه . إذ ما أسرع أن يجمد عندئذ نشاط سيرك ، وتتخذ من بعض الظلال الرخية هناك ، موطن إقامة لك . حتى إذا جنّ عليك الليل وأدركتك وحشة المكان ، علمت أنك قد خُدعت وانقطعت عن دارك التي نسيت أنك كنت تغذ السير إليها منذ صباحك الباكر[1] .

ومع ذلك ، فلنكن أكثر دقة وإنصافاً في تحليل هذا الوهم وأسبابه .. فإنا إن فعلنا ذلك رأينا كثيراً من أصحاب هذا التصوُّر الخاطىء : تصوُّر أن الدين أقيم من أجل الدنيا ، معذورون في توهمهم ! .. فقد اقتضاهم سوء حظهم أن يجدوا من حولهم ، حيثما التفتوا ، رجالاً يظهرون التدين ، ويؤكدون أنهم من علماء الدين وحملة هديه ، ولكن دأبهم أن يعمدوا إلى أهوائهم ومصالحهم ، فيغلفوها بأغلفة الإسلام وحكمه ، وإذا هي جزء لا يتجزأ من الدين ! .. والعالم الفذ هنا ، من استطاع أن يرى للمسألة مخرجاً من الحرام ومولجاً إلى الحلال ، وأن يقصّ الفتاوى مفصلةً على قدر المشكلات .

لا جرم أن كثيراً من أصحاب هذا التصور الذي كنا نتحدث عنه ، يذهبون ضحية التأثر برجال من هذا القبيل ، وما أكثرهم في هذا العصر . حقاً إن الدين ، كما يتراءى في مسلك هؤلاء الناس ، قائم في خدمة الدنيا ، بل هو مجرد (ديكورات) وأطر تزيينيه للمصالح والأهواء .

---

(١) انظر تفصيل هذا المثال والبحث المتعلق به في كتاب (منهج الحضارة الإنسانية في القرآن) ص ٧٤ لمؤلف هذا الكتاب .

وليت أن تأثير هؤلاء الرجال وقف عند هذا الحد ! .. ولكن تأثير سلوكهم هذا تجاوز هذا الحد ، إلى حيث أصبح سلوك هؤلاء الناس حجة عند طائفة من الناس ذهبوا إلى أن الدين في جملته ليس أكثر من مؤيدات ذات قداسة مصطنعة ، اصطنعها أولئك الذين يسعون إلى بسط سلطانهم على الناس ، ليجعلوا منها سبيلاً إلى فرض آرائهم باسم الدين وحكمه .

إذن ، فلنتحدث عن هذه المشكلة .. مشكلة الدين الحق عندما تتلاعب به أهواء الناس .

الدين الحق وأهواء الناس

قالت العرب قديماً ، تنويهاً بشرف العلم وبياناً لسوء الجهل : « كفى العلم شرفاً أن يدّعيه من ليس فيه ، وكفى الجهلَ سوءاً أن يتبّرأ منه من كان متلبساً به » .

وأقول : إن من الممكن أن ننظر إلى قيمة كل من الدين والكفر به ، من خلال هذا المقياس ذاته ، إذا تجاهلنا قلّة من الناس لا يزالون يتباهون بكفرهم وجحودهم ، إذ بوسعنا أن نقول على هذا الوزان ذاته :

كفى الدين شرفاً أن يدّعيه من ليس فيه ، وكفى الكفر سوءاً أن يتبرّأ منه من كان متلبساً به !...

غير أن هذا المقياس ـ بالنسبة إلى مكانة الدين ـ كما يكشف عن سموّه وعلوّ سلطانه في النفوس ، يكشف في الوقت ذاته عن مدى إساءة كثير من الناس إليه ... إذ لا يسعهم أن يحققوا دعواهم في التدين والخضوع لأحكامه (مع حرصهم في الوقت ذاته على التمسك بأهواء نفوسهم) إلاّ عن طريق تغطية الثاني بالأول ، أي بتمرير ما تلحّ عليهم به شهواتهم وأهواؤهم ، خلف ستار كثيف من دعاوى الدين وأحكامه ، فتراهم يسيرون وراء وحي أهوائهم وما تقضي به رعوناتهم أو مصالحهم الشخصية الخاصة ، ولكنهم يلبّسون على الناس (وربما على نفوسهم أيضاً) فيخفون عنهم حظوظ نفوسهم الكامنة في تلك التصرفات والاندفاعات ، ويسبغون عليها كسوة الشرعية والالتزام بما تقتضيه مرضاة الله عزوجل ، حتى ليخيل إلى كثير من الناس أنها جوهر الحق الذي أمر الله به ، وأنهم ليسوا إلا عباده الخاضعين لسلطانه والأمناء على أحكامه !..

وإنا لنعلم أن طبائع الناس كانت ، ولاتزال ، متخالفة ؛ وأن أهواءهم ظلت وستبقى متنوعة ، بل متشاكسة ، وأن مصالحهم الموهومة غدت من جراء ذلك متفرقة شتّى !...

وإنا لنعلم أن الله تعالى ماأنزل الدين الحق على عباده ، إلا ترويضاً لجماح الطبائع بكوابح الأخلاق ، وإخضاعاً للأهواء المتصارعة لسلطان العقل المتحرر الصافي ... وماكان القرآن في جملته وتفصيله إلاّ رسماً لضوابط العقل وقوانين الحق أمام متاهات الطبائع والأهواء ، لكي يهتدي إلى هذه الضوابط من قد ضاعت عليهم معالم الفرق بين أحكام العقل السليم ونزوات الأهواء الجانحة .

وعن هذه الحقيقة يعبر البيان الإلهي قائلاً :

﴿ ياداودُ إنَّا جعلْنَاك خليفة في الأرْضِ فاحْكُمْ بيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ ولاتتبع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله ﴾ [ص ٢٦] .

﴿ وَأَنِ احْكُمْ بينَهُمْ بماأَنْزَلَ اللهُ ولاتتَّبع أهْواءَهُم ﴾ [المائدة ٤٩] .

﴿ وَلَوْ اتَّبعَ الحَقُّ أهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماوات والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون ٧١] .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ على بَيّنةٍ منْ رَبِّه كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ واتَّبَعُوا أهواءهمْ ﴾ [محمد ١٤] .

غير أن من أهم الحيل التي يجنح إليها كثير من الناس ، قديماً وحديثاً ، سعيهم (على الرغم من هذه النصوص القرآنية المحذرة) بالسبل المختلفة ، إلى إخضاع الدين ذاته لمقتضيات الرغبات والأهواء ، بدلاً من العكس الذي جاء الدين لأجله ، وهو إخضاع الرغبات والأهواء لسلطان الدين وحكمه !...

وإليك بعض الأمثلة المتنوعة على هذا .

إنك لترى في الناس من قد جبل طبعه على شيء من الشح والبخل ، فهو يظل يذكر الناس بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية المحذرة من الإسراف والتبذير ، والآمرة بالاقتصاد والتدبير ... ويذهب في شرحها وتحليلها مذهباً يخيل إليك أن الرجل قد هُدِيَ في عمله وما قد جُبل عليه طبعه إلى جوهر الإسلام ولُبّه ، وأنه إنما يعلم الناس بسلوكه هذا شرع الله تعالى وحكمه .

وإنك لترى بالمقابل من قد تعوّد على كثرة الإنفاق ، والبذخ والسرف في كل شيء ، فإذا هو الآخر لا يعجز أن يقع على النصوص التي تأمر بالكرم ، وتحفز على السخاء ، وإذا هو يشرحها ويحللها على النحو الذي يُسبغ على طبعه وعمله الشرعية الكاملة ، حتى ليخيل إليك أنه النموذج في هذا الباب لتطبيق حكم الله عزوجل .

وفي الناس من استحوذت على نفوسهم طبيعة الحقد والرغبة في التشفي والانتقام ... فلما أمكنتهم الفرصة ، لم يغنهم عن الاستجابة لظمأ نفوسهم أن الأمر قد أصبح في أيديهم ، وأن موازين العدالة وسبل تنفيذها قد غدت تحت سلطانهم ، بل انطلقوا وراء دوافع التشفي والانتقام أكثر من أن ينصرفوا إلى رعاية تلك الموازين ، ثم قرنوا ذلك كله باسم الإسلام وشرعه ، دون أن يتنبهوا إلى ما أقامه الإسلام من فرق كبير بين ضرورات الحرب والجهاد ولواعج الثأر والانتقام !...

كما أن في الناس ، بالمقابل ، من هان عليهم الضيم ، وثقلت على نفوسهم تبعات الحق والجهاد في سبيل الله عزوجل ، فآثروا سلامة الحياة وراحة النفس والصفح عن الغاصب الجاني للديار والمقدسات .. ثم إنهم لم يجدوا كلفة أو مشقة في أن يجعلوا ، هم أيضاً ، ذلك كله ديناً يأمر به الله ، وفضيلة يوصي بها الإسلام ، وأن يؤيدوا ما قد جنحوا إليه بنصوص القرآن وأحاديث النبي ﷺ .

وهكذا فإن بوسعك أن ترى جمهرة كبرى من الناس اليوم ، دأبهم أن ينزلوا مبادىء الإسلام وأحكامه على طبائعهم ونزوات نفوسهم ، وأن يجعلوا من تلك المبادىء والأحكام مجرد كسوة لها ، يفصلونها على قدر تلك الطبائع والأهواء ... وماأكثر الطبائع المتخالفة ، وماأيسر أن تجد الإسلام قد تحول في أيدي أصحابها إلى أردية متنوعة ومتنافرة ، تبعاً لتنوع تلك الطبائع .

ثم إن صناعة التأويل في الكلام والتلاعب بمفاهيم النصوص ليست عسيرة .

ألم يتقنها بنو إسرائيل من قبلُ ، للمحافظة على مآربهم وماتعلقت به نفوسهم ؟... أولا يتقنها اليوم كثير من المحامين الذين يتلاعبون بالنصوص القانونية ومفاهيمها ، تحقيقاً للأماني التي استأجرهم عليها موكلوهم ؟... فكذلك يتقنها كثير من المشتغلين ببضاعة العلم الشرعي ، ليتقربوا بذلك إلى من يملكون - في الظاهر - رعايتهم ودفعهم في سلّم المناصب الدنيوية الفانية .

ذلك لأن النصوص مهما كانت ، في إحكام صياغتها ودقة دلالتها على المعنى المقصود ، تغدو ألفاظاً ميتة ، إذا ماقطعت عنها شرايين الصلة بقائلها ، وتُنوسي قصده المستكنُّ في أعماقها . فما أيسر أن تُحمَّل عندئذ من المعاني مالا تحتمل ، وأن يلحق بها من القيود والذيول ماهي بريئة منه بل مناقضة له !... ولا تبلغ عندئذ سائر القواعد العلمية الخاصة بتفسير النصوص ، أن تملك أي قدرة على تحصينها أو أن تغدو ، بحق ، قيوداً كابحة ضد التلاعب بها .

وإليك مايقوله في هذا الصدد واحد من أبرز أئمة أصول الشريعة الإسلامية : (قواعد تفسير النصوص) وهو الإمام الشاطبي ، رحمه الله ، في كتابه (الموافقات) :

« ... لذلك لا تجد فرقة من الفرق الضالة ، ولا أحداً من المختلفين في الأحكام ، يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة ، وقد مرّ من ذلك

أمثلة ، بل قد شاهدنا ورأينا من الفساق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة ينسبها إلى الشريعة المنزهة . وفي كتب التواريخ والأخبار من ذلك طُرَف ، وماأشنعها في الافتئات على الشريعة ... وانظر في (مسألة التداوي من الخمار) ، في (درّة الغوّاص) للحريري ، وأشباهها . بل قد استدل بعض النصارى على صحة ماهم عليه الآن بالقرآن ، ثم تخيلَ فاستدل على أنهم مع ذلك كالمسلمين في التوحيد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة مافهم منه الأولون ، وما كانوا عليه في العمل به ، فهو أحرى بالصواب وأقوم في العلم والعمل »[1] .

☆ ☆ ☆

إنّ إلحاح بعض الناس على تتويج أهوائهم ورغباتهم الشخصية ، بمؤيدات من الإسلام وأحكامه ، على هذا النحو الذي أسلفنا ، ينطوي بدون ريب على أخطار كثيرة متنوعة ومتفاوتة .

غير أني أجزم بأنّ أشد هذه الأخطار ضرراً ، يتمثل في أنه يأتي عمدة وحجة ممتازة لتلك الصورة الزائفة التي قد يفهمها عن حقيقة الدين ، أولئك الذين يصرون على أن لا يتعرفوا على حقيقة الإسلام إلا من خلال ماتوصلوا إليه من دراسات في الفلسفة أو علم الاجتماع ، أو نحوهما .

وخلاصة هذه الصورة (الزائفة طبعاً) أن الدين في جملته ليس أكثر من مؤيدات ذات قدسية مصطنعة ابتدعها على مرّ التاريخ الإنساني أولئك الذين

---

(١) الموافقات ٧٦/٣ ، ٧٧ . أما ماأشار إليه من قصة الخمّار التي عزاها إلى الحريري في كتابه (درة الغواص) فتتلخص في أن قاضياً سئل عن الخمر بحضرة بعض الولاة الذين عرفوا بتعلقهم بالخمرة ، فأفتى بجواز شربها ، واصطنع لذلك أدلة باطلة من النصوص ، ولم يخف على الوالي ذلك ، فأنزل به عقوبة رادعة .

يبالغون في الاعتداد باتجاهـاتهم وآرائهم ، ويسعون إلى فرض آرائهم هـذه على أكبر قدر من الناس خلال أطول حقبة ممكنة من التاريخ !..

إن أصحاب هذه النظريـة السطحيـة عن الـدين ، والتي تعوزهـا المؤيـدات العلمية والمنطقيـة ، لن يعثروا على مـا يـدعم تصورهم هـذا ، إلا في هـذه الظـاهرة المؤسفـة التي يتلبس بهـا ، عن عمـد ، كثير من المسلمين ، فـإن لأصحــاب هــذه النظرية أن يروا في هذا التلاعب أبين دليل وأروع شاهد على صحة تصورهم هـذا لحقيقة الدين .

ألم يعد الإسلام بين هؤلاء الناس ، أشبه ما يكون بحلّة يلبسها كل من شـاء ، ليمثل بها الدور الـذي يريـد ؟... أولم يعـد ، لـدى الكثير منهم ، مجرد بوق عظيم يقف وراءه كل من أراد أن يجعل لكلامه وحديثه أوسع صدى بين أسماع النـاس ، وأقوى تأثير في نفوسهم وألبابهم ؟.

غير أنا نقول مع ذلك : إن هذه الظاهرة إنما تصلح أن تكون معتمداً لأولئـك الذين يأبون أن يتعرفوا على الإسلام إلا من خارج بنيـانـه !... ويصرون على أن ينطلقوا إلى فهمـه والتبصر بحقيقتـه من داخـل أفكار أو فنـون أخرى ، كالفلسفـة والاجتماع والتـاريـخ ... دون أن يـدنـوا ، في قليـل أو كثير ، بشيء من النظر والتأمل ، إلى جوهره ودخائله التي يتكوّن منها وينهض وجوده عليها !...

وحسبك من الخطأ في التقـدير ، أن يحـاول البـاحث معرفـة أمر أو ظـاهرة مـا ، خـارج دائرتهـا ، بـل بعيـداً حتى عن ظـلالهـا ، فلئن لم يجـد هـذا البـاحث (الظريف) في الواقع الذي يعاني منه كثير من المسلمين ، ما يزيده جهالة بحقيقة الدين من حيث هو ، فما أكثر الأسبـاب والوقـائع والصور الأخرى ، التي يمكن أن تزيده بعداً عن حقيقته وجهالة على جهل .

أما الذي علم تلك القاعدة المنطقية المعروفة لدى الباحثين جميعاً ، والقاضيـة

بأن إدراك أيّ شيء على حقيقته لا يتم إلاّ من خلال دراسة جوهره ودخائله الذاتية ، ثم التزم هذه القاعدة في محاولة تعرّفه على الإسلام ، فسعى إلى معرفته من داخل بنيانه ، وعن طريق المعرفة الدقيقة لسائر مقوّماته وأركانه ، فهيهات أن يحجبه واقع المسلمين (مهما انطوى على الشذوذ واتسم بالسوء) عن حقيقة شامخة قائمة بذاتها راسخة على أركانها .

ولكن كم من الفرق بين من أراد معرفة حقيقة هذا الدين ، فكان له من استقامة أتباعه على نهجه وتمسكهم بأهدابه وخضوعهم الصادق لسلطانه ، ما يسّر له سبيل هذه المعرفة وقصرّ أمامه طريق الوصول إليها ، وبين من أراد التحقق بهذه المعرفة ذاتها ، فثار أمامه من تلاعب أهله به وتلبيسهم عليه وخلطهم باطل أهوائهم بالكثير من حقه ، ما عكّر عليه الرؤية الصافية لطريق هذه المعرفة وضاعف أمامه من طولها وصعوبة اجتيازها ... نعم ، كم من الفرق بين سوء حظ هذا وحسن طالع ذاك !..

وكم من باحثين ومتعرّفين ، كتب عليهم ألاّ يسيروا إلا في هذه الطريق الطويلة المتعكرة ، فلما طال عليهم المسير وتكاثرت أمامهم العقبات ، أدركهم السأم وأطبق عليهم الملل ، فانقطعوا في منتصف الطريق ثم عادوا من حيث أتوا ، وقد زادهم الأمر جهلاً على جهل ، ونالت نفوسَهم المعقّدة الكراهيةَ له والتبرُّم به .

☆ ☆ ☆

إن الإسلام كان ، ولا يزال ، دقيقاً في موازينه ، جلياً في قواعده ، ناصعاً في نصوصه وأحكامه ، فمن عُمِّيَ عليه شيء منه ، فلأنه جعل من أهوائه ورغباته النفسية حجاباً أسدله على تلك الموازين والنصوص والأحكام ، فراح يخلط بين ما هو باطل يصدر من جموحات نفسه ، وما هو حق يهبط من علياء رَبِّه .

وقديماً ، نظر من الناس قوم إلى رسول الله ، ﷺ ، بأعين إنسانيتهم المجردة ، فلم يلبثوا أن رأوا فيه دلائل الصدق وسيما النبوة وإشراق الوحي الإلهي ، فآمنوا به وأيدوه ... ونظر إليه آخرون من خلال ما بصرتهم به شهواتهم وأهواؤهم وكبرياؤهم ، فلم يروا فيه أكثر من يتيم أبي طالب ، ورضيع أبي كبشة ، ومثال الفقر والمسكنة ، فأعرضوا عنه وكفروا به .

فلئن لم يتّق الله في أنفسهم أولئك الذين يجمّلون رغباتهم وأهواءهم بحلية الدين ، فليتقوا الله في أناس وأمم شتى ، كلما اشرأبّت منهم الأعناق تطلعاً إلى معرفة الإسلام في جوهره وحقيقته ، وجدوه قد تبخر دعاوى متناقضة على ألسنة كثير من أهله والمتحدثين باسمه !..

ياأيها المسلمون : إن عجزتم أن تكونوا دعاة صالحين إلى الله ودينه ، فاحرصوا على ألا تحجبوا الإسلام عن المتطلعين إلى معرفته ، بواقع أنفسكم وسوء تصرفاتكم ، على أقل تقدير .

وإذن فلنعلم
أن لا إسلام بدون عبودية لله

المسلمون اليوم - إذا عددتهم - كثير . كلهم ينطق باسم الإسلام ، وكلهم يعلم علماً ماقد يتعلق به ، ومامنهم إلا من يرتئي له الآراء ، ويتناول الكثير من جوانبه بالنظر والبحث . وقد أوضحنا طرفاً من أسباب ذلك في الفصول السابقة .

ولكن شيئاً من ذلك كله لم يأت بحصيلة ، ولم يتقدم بهم إلى غاية ، ولم يرفعهم إلى أي شأو مما من شأن الإسلام أن يرفع إليه . حتى سرى من ذلك وسواس إلى ضعاف الإيمان ، وراحوا يتهامسون ، أو يتساءلون : أين هو وعد الله لعباده بالتوفيق والنصر ؟!.

فماهو السبب ؟..

السبب أنهم أو أكثرهم يصرون كما أوضحنا فيما سبق على أن يفهموا الإسلام كما يحبون ، لا كما هو ثابت ، في حقيقته وذاته . فهم يعجبون بالإسلام من حيث هو عنوان وشعار ، ويشعرون بفخر انتسابهم إليه وارتباطهم به . ولكنهم ماأن يواجهوا مضموناته وأحكامه حتى يتبرموا بها أو بأكثرها ، وعندئذ يجهدون جهدهم أن يتهربوا من مسؤولياتهم وأعبائها بما يصطنعونه من الحواجز الوهمية بينها وبين الإسلام وبما قد يخيلونه إلى الآخرين من أن الإسلام لا يستلزم شيئاً من ذلك كله .

إنهم يعجبون بشعارات الإسلام ويفخرون بانتسابهم إليه ، لما قد تختزنه هذه الشعارات في باطنها من البطولات والأمجاد والمظاهر الحضارية التي اصطبغ بها أكثر أحقاب التاريخ الإسلامي .

ولكنهم يتبرمون بالكثير من قيوده وأحكامه ، لما قد تفوته عليهم هذه القيود من متعة الحضارة الحديثة ولذة السعي وراء كل طور جديد . فهم ، من أجل ذلك ، يشتهون أن يكون الإسلام كما يحبون : نسباً فخرياً يربطهم بأمجاد الماضي وسبيلاً مفتوحة تيسر لهم اللحاق بمتعة الحاضر وأماني المستقبل !..

وهم إنما ينساقون إلى هذه الحالة بسبب قياسهم الإسلام على أيّ دين من الأديان الأخرى ، بل ربما على أي نظام من النظم السائدة !..

فهم ينظرون فيما حولهم ، فلا يجدون نظاماً من هذه النظم المختلفة التي تحكم العالم ، إلاّ وتطور بيد الحضارة الحديثة أيما تطور ، بل إنهم لا يجدون ديناً من هذه الأديان الأخرى إلا وقد انساق بيد الرغائب والتطلعات الإنسانية ، إلى مداها الأخير

وماهو الإسلام ؟.. إن هو ـ في تصور أكثرهم ـ إلاّ مذهب من هذه المذاهب السائدة مهما اختلفت عن بعضها .. وإذا كانت الأديان والمذاهب والأنظمة المختلفة إنما تمتد آجالها وتطول أعمارها بمقدار خضوعها لسلطان التطور المدني والحضاري ، وبمقدار سيرها في ظل الرغائب والمصالح الإنسانية المتطورة ، فإن على الإسلام أيضاً ، إذا شاء أن يُمَدَّ في أجله ، أن يخضع مثل هذا الخضوع ، وأن يسير حتمياً بنفس ذلك الظل .

فمن هنا يرفض من يرفض من المسلمين العود إلى هدي الإسلام في أكثر أحكامه التشريعية ، ومن هنا يثور من يثور منهم على حجاب المرأة واحتشامها ، ومن هنا يصر من يصرّ منهم على أن يظل النظام الاقتصادي في الإسلام خاضعاً

لقانون الفائدة الربوية ، ومن هنا يجادل من يجادل فيهم في سبيل أن يصبغ كثيراً من الحقائق الاعتقادية في الإسلام ، بالنظرة الأوربية الحديثة .

إنهم يريدون (الإسلام) ولا يبتغون عن هذا الاسم بديلاً[1] . ولكنهم إنما يريدونه عنواناً تجارياً قديماً طالما أكسب محلّه أرباحاً ، واستحوذ على ثقة الغادين والرائحين ، كي يرفعوه فوق مخازنهم الجديدة ، فينالوا به الثقة نفسها وتتحقق لهم الأرباح ذاتها . وهم ليسوا على استعداد لأن يدفعوا لقاء ذلك حتى (بدل الخلو) : القيمة الأدبية للعنوان !..

ويقول قائلهم : وهل شأن الناس مع المذاهب كلها إلا كذلك ..؟ يروج أحدها لما لقي صاحبه من شهرة أو لما امتاز به من مزايا جمعت حوله الناس ، فيدخل الناس فيه أفواجاً خاضعين ومنفذين .. ثم يتسللون إليه مبدلين أو مصلحين أو مطورين .. ويتعاقب التغيير والتطوير ، ويسير ذلك كله تحت اسم المذهب نفسه بدافع من بقايا ماله من قداسة في القلوب وهيبة في النفوس .

ولكن أفإن تم ذلك بالمذاهب التي مات أصحابها وخلت الدار من بعدهم لوراثها ، أفيكون دين الله كذلك ؟.. إنه لتصور خاطىء وخطير !..

ولكن أين مكان الخطأ في هذا التصور ؟.. ومن أين يبدأ الطريق للتخلص منه ؟

إن مكان الخطأ عند هؤلاء الناس ، أنهم - كما قلنا - إنما يستجلون هوية الإسلام في النظر إلى مجموعة قيمه وأحكامه مفصولة عن كلا طرفي الأصل الذي الذي انبثقت منه والكائن الذي اتجهت إليه !..

---

(١) نحن لانضع في حسابنا ، في هذا المقام ، أولئك الذين طاب لهم أن يرتدوا عن الإسلام جملة ، وأن يجحدوا به اسماً ومسمى . إذ إن أمر هؤلاء لا يخضع فيما نحسب لأي لون من ألوان المعالجة الفكرية أو النقاش المنطقي .

إنهم يحاولون أن يفهموا الإسلام مجموعة مبـادىء وأحكام في كتـاب !.. ولكن ماهو مصدر هذه المبادىء ومن هو الذي صاغها وأخرجها وألزم الناس بهـا ، ثم من هو هذا الإنسان الذي أخرج هذا الدين من أجله ، وماهي علاقته الحقيقية بمالـك هذا الدين والتنظيم ؟.. هذا ما لا يتعبون أنفسهم بـأي تـأمل صـادق فيـه . فلاهم يطيلـون التـأمـل والفكر في الرب العظيم الـذي هـو مصـدر هـذا الـدين ، ولاهم يدققون النظر في الذات الإنسانية التي جاء من أجلها هذا القانون كله !..

وأي قيمة لمجموعة من المبادىء التي تتعلق بـالأخلاق والتشريع ، بعـد أن تبتر من كلا هذين الطرفين الخطيرين ؟.. وأي ضمانة هذه التي ستحميها من التبـديل والتغيير والاعتسـاف الكيفي في يـد الأهواء والشهـوات المختلفـة ؟.. بـل أي فرق يبقى بينها وبين أي مجموعة أخرى من النظم والأحكام ؟..

ويخطىء من يظن بـأن المسلمين إنمـا ينهض بهم الإسـلام إلى الحيـاة الكريـمـة الفاضلة بسبب ما في النظم والأحكام الإسلامية من ضمانات لمصـالح النـاس بقطع النظر عن أي سبب أخر . أجل ، يخطىء من يظن ذلك ، فإن الإسلام إنما يضمن تحقيق مصالح المسلمين بسبب ما قد يتصفون به من الدينونة لله تعـالى والعبوديـة الصادقة له ، وليس للأحكام والنظم ذاتهـا أي مـدخل إلى ذلـك ، إذا فصلتهـا عن دافع الـدينونـة لحكم الله والخضوع لسلطـانـه . بل ليس ثمـة أي ضمانـة لمن يطبـق الإسـلام من حيث إنـه نظـام وقـانـون فقـط أن يجني من ورائـه أي سعـادة أو خير ! .. فإن كلاً من أسباب الخير والشر ليست أسباباً حتمية في حقيقتها ، وإنمـا هي أسبـاب جعليـة ثبتت لهـا هـذه المزيـة بجعـل الله تعـالى وحكمـه . والأحكام الشرعيـة بحـد ذاتهـا أقل من أن تخلـق للنـاس سعـادة أو رشـاداً ، ولكنهـا ، وقـد أمر الله بها ، أصبحت مقياساً لصدق العبودية لله والدينونة لحكمـه ، وإنمـا يسعـد الناس بانضوائهم في دين الله والدخول طوعـاً تحت ذل العبوديـة لله ، والانسيـاق وراء مشاعر الرهبة من عقابه والرغبـة في ثوابـه . ومن دون ذلـك الانضواء وهـذا

الشعور لا تعتبر الشرائع الفرعية للإسلام إلا قيوداً تنظيمية شأنها شأن غيرها من الضوابط والقيود .

وانظر .. كم تتجلى هذه الحقيقة بارزة وقاطعة في القانون الإلهي الذي ختمت به الآية التالية من كلام الله عزّ وجل :

﴿ وقَالَ الذِينَ كفرُوا لِرُسُلِهِمْ لنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أرْضِنَا أوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا فَأوْحَى إليهِمْ رَبُّهمْ لَنُهْلِكنَّ الظالمِينَ ، ولَنُسْكِنَنكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِم ذلكَ لمن خَافَ مَقامِي وخافَ وَعِيدِ ﴾ . [إبراهيم ١٣ ـ ١٤]

إن الخطاب الإلهي ـ كما ترى ـ يخبر عن كيفية انتصار الطائفة المؤمنة على خصومهم الذين طالما هددوهم بالطرد والإهلاك وساموهم أشد ألوان العذاب ، كيف ثبَّت دعائم هذه الطائفة في الأرض من حيث أهلك الآخرين ، ثم يلفت النظر إلى أنه قانون إلهي مستمر ، وليس حادثة جزئية عابرة ، ويعبر عن القانون بهذه الخاتمة ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامي وَخَافَ وَعيدِ ﴾ [إبراهيم ١٤] ! .. وتلك هي حقيقة الإسلام وجوهره ، إنه الخشية التي تأخذ بمجامع القلب نابعة من مصدرين اثنين : الخوف من عظمة الربوبية في ذات الله تعالى وامتلاء المشاعر بصفاته عز وجل ، والخوف من وعيده الذي أبلغه أمم الأرض كلها عن طريق ما بث فيهم من الرسل والأنبياء ، وإنما تأتي النتائج الأخرى لاحقة بهذا الخوف ، منوطة بهذا التعظيم ، منساقة وراء هذا الشعور .

وأنى لشهوات الأرض كلها أن تقف عندئذ في الطريق ، أو أن تتغلب على القلب الذي امتلكته مخافة الله ، فراح يفيض على المشاعر كلها صبغة العبودية الكاملة الصادقة لقيوم السموات والأرض ، أو أن تبقي في النفس شيئاً من آثار عصبية أو تبعية أو رابطة تقليد ، أو أن تحمل شيئاً من نوازع الفكر والعقل ، على أن تستخف بالغائب المحجوب الذي أخبر الله عنه في سبيل اقتناص الحاضر المرغوب الذي جعله الله فتنة وامتحاناً .

تلك هي حقيقة الإسلام . وتالله إنها الحقيقة التي يفقدها أكثر المسلمين اليوم .

يؤمنون بالله ، ولكنه إيمان محبوس في سجن رهيب من رواسب الشهوات والأهواء ، والركون إلى زهرة هذه الأرض ! .. إيمان بهذا الشكل لا ريب أن مآله إلى الموت والاختناق ، إن لم يكن ذلك أثناء مرحلة من مراحل العمر ، فإنه كائن لا محالة عند الوقوع في سباق الموت .

مسلمون لله ، ولكن على طريقتهم الخاصة ، إسلام لا يتجاوز الحلقوم ولا ينهض على أيّ ساق من استشعار معنى العبودية لله عز وجل ! .. مسلمون ويجلسون مع الله على مائدة مستديرة يناقشون في نظامه وأحكامه وحلاله وحرامه ! .. مسلمون ويقول قائلهم : إن كثيراً من أحكام الشريعة الإسلامية لم تعد صالحة للتطبيق ! .. مسلمون ولم تدع الدنيا التي التفت على أفئدتهم واستعمرت مشاعرهم أي مكان صالح فيها للخوف من مقام الله أو الرهبة من وعيده ! .. مسلمون ولم تدخل أفئدتهم في محراب الخشوع لله يوماً من الأيام ، ولا ذاقت أعينهم طعم الدموع من خشية الله أمام تذكرة مذكر أو آية تهديد أو وعيد ! ..

إسلام بهذا الشكل لا ريب أنه لا يصدّ صاحبه عن أن يقيم من نفسه مقوماً لشرع الله يفصل الصالح منه عن الفاسد ! .. ويميز الخبيث منه ـ بزعمه ـ عن الطيب ! .. وإسلام بهذا الشكل لا يعدّ في حكم الله إسلاماً ، لأنه افتقد أهم حقائقه وأركانه ، وهو استشعار معنى العبودية لله . فهل رأيت إسلاماً بغير استسلام ، وإيماناً بالله دون انصباغ بالعبودية له ؟ ! ..

إن أي تبعية صادقة لأي مذهب من مذاهب الأرض اليوم ، يحمل في طياته من الخضوع والاستسلام أضعاف ما يحمله إسلام هؤلاء المسلمين من مظهر التبعية له والانقياد لحكمه .

سألني أحد هؤلاء المسلمين ذات يوم ، (وقد كنت أحدثه عن ضرورة صدق المسلمين مع أنفسهم إن كانوا حقاً مسلمين) : افرض أننا طبقنا الإسلام منذ هذا اليوم ، فمتى يمكن أن نستعيد بناء على ذلك أرضنا السليبة ونبني لأنفسنا حياة رخية تعتقنا من هذا التخلف وتلحقنا بالأمم الراقية في الأرض ؟ .

قلت له : إن أصغر إنسان يعتز بالتبعية الماركسية ـ مثلاً ـ قد يلقى ألواناً من الضيم في سبيل تبعيته ، ويرى مسافة البعد تزداد كل يوم بينه وبين أحلام الشيوعية المطلقة ، ومع ذلك فهو لا يسمح لفكره أن يعيش مع هذا السؤال لحظة واحدة ! .. وهو إنما يتبع إنساناً مثله يخطىء ويتعرض لأشكال من الجهالة والطيش والغرور ! .. أفيكون مثل هذا الإنسان الصغير منطقياً مع نفسه ومع الآخرين تجاه هذه التبعية المستسلمة المؤمنة الراضية ، ثم لا يكون المسلم المتبع لمنهج خالق السموات والأرض منطقياً مع نفسه إن هو صدق مثل ذلك التصديق واستسلم مثل ذلك الاستسلام ؟ !! ..

وقلت له : أفبينك وبين الله عقد على أن تنفذ له شرعه فيبادر إلى تنفيذ هواك ويسرع في تحقيق رضاك ، فأنت تستوثق من موقفه معك ، حتى إذا لم تطمئن إليه أعرضت عنه قبل أن يعرض عنك !! ..

إن كنت على يقين أن شأنك مع الله إنما هو شأن أصحاب المصالح المتبادلة وأنك تملك من وجودك تجاهه ما يوقفك منه موقف الند للند : تعرض إذا شئت ، وتقبل إذا انشرحت ، وتقاضيه في حقك إذا لم يكافيك ـ فأرني الثبات على موقفك هذا عندما تتضاءل ذاوياً عند سياق الموت ، وأشعرني إذ ذاك بحريتك التي تملكها ، ودلني على عالمك العظيم الذي ستنطلق إليه معرضاً عن الله الذي لم يحقق لك شرطك فلم توف له شرطه !! ..

أما أنا فقد عشت اليوم ، وأنا أقلب العين في الدنيا التي من حولي ، بكل ما

تموج به من الصور والأشكال والعلوم والأفكار ، فما أبصرت في ذلك كله إلا شيئاً واحداً يظل ماثلاً أمام عيني ، يلاحقني بشكله الرهيب في البكور والآصال والليل والنهار : غلاً ثقيلاً يطوقني بآصار العبودية لله عز وجل ، لم يدع لي من سبيل إلى أي مفر أو ملاذ .. إن جحده لساني لم ينج منه كياني ، وإن تناسيته في ذاتي ذكرني به الملكوت الذي من حولي والمصير الذي يرقب دقائق أنفاسي ! ...

☆ ☆ ☆

ادفن نفسك في رمال الغرور ، أو العصبية ، أو النسيان ، أو التجاهل ما طاب لك الدفن ، فإنما أنت واقف على أرض العبودية لله ، لن تحيد عنها ولن تطير فوقها . ﴿ إنْ كُلُّ مَنْ في السّمواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرَّحمنِ عبْداً ، لقدْ أحْصَاهُم وعدَّهم عداً ﴾ [مريم ٩٣ ـ ٩٤]

فأسلم وجهك لله ، وأخضع القلب راضياً لسلطانه وحكمه ، وكن عبداً له بالسلوك والاختيار ، كما قد خلقك عبداً له بالقسر والإجبار . واقطع العمر سعياً وراء تثبيت حكمه في الأرض فذلك هو حق الله عليك ما دمت سائراً في رحلة هذه الحياة .

مشكلات الأفكار المعاصرة في ميزان الإسلام

طبيعي إذا اقتنع القارىء بأن الإسلام ضرورة لابدّ منها لسائر المجتمعات الإنسانية - لاسيما إن كان حديث عهد بالتعرف على الإسلام - أن يستشعر مشكلة التوفيق بين الإسلام وكثير من المذاهب الفكرية المعاصرة .

وفي الفصول التالية محاولة - نرجو أن تكون موفقة - لحلّ هذه المشكلة .

فلنعرف الميزان الإسلامي أولاً ...

قد يخيل إلى القارىء أن ميزان الإسلام للأفكار الحديثة ، إنما يتمثل في : قال الله ، وقال رسول الله !..

والحقيقة أن الإسلام يأبى على العقلاء إلا أن يَزِنُوا حتى (قال الله وقال رسول الله) ذاتها ، في ميزان آخر أسبق منه ، لا شأن له بأي نحلة أو مذهب .

إذن ، فالإسلام إنما يعتمد لقبول أي فكرة أو رفضها ، ميزاناً حيادياً ، يرتكز على نقطة حيادية ، تسبق في البعد الزمني والاعتباري أي مذهب أو عقيدة أو سلوك . فما هو هذا الميزان ؟

إنه العلم بمعناه المطلق الذي يعرفونه بقولهم : هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل . وهذا العلم لا يكون علماً بهذا المعنى الذي يعرفونه به ، إلا إذا جاء خالياً من الشوائب ، صافياً من أخلاط أسبقية أي رغبة أو عصبية أو هوى ، لا يعتمد إلا على نبراس العقل والمنطق الخالصين من شوائب الأغيار أياً كانت .

وهل أوتي الإنسان في دنياه هذه ميزاناً للتبصر بالأشياء والوصول إلى حقائقها غير ميزان العلم ، الذي ينهض على أشرف دعامة يتمتع بها الإنسان وهي العقل .. العقل الحاكم لا المحكوم ، المسيِّر لا المسيَّر ؟!..

ولكن ما الدليل على أن هذا الميزان هو مُعتَمد الإسلام ، وأنه يأبى على الناس أن ينساقوا حتى لاتباع عقائد الإسلام ذاتها ، إلا بعد أن توضع في هذا الميزان وتنال حكمه لها بالقبول والتأييد ؟

الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولاتقْفُ ماليْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنّ السَّمْعَ والبصَرَ والفُؤادَ كلُّ أولئِكَ كان عنه مسْؤُولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

فأنت ترى أن هذا النص القرآني - وهو ينبوع الإسلام ومصدره - يحذّر الإنسان من أن يتّبع في اعتقاده أو سلوكه مالاعلم له بحقيقته ، ولابينة له على صدقه . و(ما) هذه ، أداة من أدوات العموم ، كماهو معروف . فقد شملت إذن ، كل ماقد يُدعى إليه الإنسان ، من الأفكار والمعتقدات ، أو يجده أمامه من مناهج الحياة والسلوك ، بمافي ذلك الإسلام نفسه ، إذ هو واحد من المعتقدات والتصورات التي يُدعى إليها الإنسان !..

فالقرآن يقرر بوضوح أن على الإنسان أن لا يُخضع ذاته لأي تبعية فكرية أو اعتقادية أياً كانت ، إلا بعد أن يتأكد من توقيع الحقيقة العلمية عليها ، وبعد أن يتأمل فيتأكد أنه ليس توقيعاً مزيفاً ملصقاً بها . وانطلاقاً من هذا الحكم فهو يرفض من الإنسان حتى اعتناق الإسلام نفسه ، إلاإذا أقيم على أساس متين من هذه البنية العلمية الحرة .

ومن هنا ، كان من أولى المبادىء الأساسية في الإسلام ، مااتفق عليه سائر علماء التوحيد من أن العقيدة الإسلامية القائمة على التبعية والتقليد ، لاتغني عن صاحبها شيئاً ، ولاتنفعه يوم القيامة قط وقديماً قالوا :

فكل من قلّد في التوحيد إيمانه لم يخْل من ترديد

☆ ☆ ☆

وإذا أَردنا أن نزيد الأمر عمقاً ووضوحاً بآن واحد ، فلابد أن نذكر القارىء الكريم بأن الإسلام في جوهره الكلي ليس أكثر من تخطيط للسبيل الأمثل إلى معرفة الحقيقة والتفاعل معها على الوجه السليم .

ولعلك تقول : أي حقيقة ؟.. فحقائق الكون كثيرة ومتنوعة ؟

والجواب أن هذا الكون إنما ينطوي على حقيقة واحدة . وإنما المتعدد والمتنوع هو أجنحة هذه الحقيقة وزواياها .

فالذي ينصرف إلى دراسة الأنواء والفلك ، والذي يعكف على دراسة طبقات الأرض وخصائصها ، والذي يتتبع علوم الحياة الحيوانية ، والذي يختار دراسة التاريخ الطبيعي ، والذي يفضل عليه دراسة تاريخ الإنسان ، والذي يتفرغ لدراسة علم النفس والفلسفة والأخلاق ـ : كل هؤلاء إنما يتفرقون في جوانب شتى من جسم الحقيقة الكونية الواحدة !... ولكن عظم هذه الحقيقة بمالها من جوانب وجهات مترامية الأطراف ، يخيل لكثير من الناس (بمافيهم كثير من العلماء والمثقفين) أنها حقائق كلية متعددة ومستقلة عن بعضها . لذا يجيز كلٌّ منهم لنفسه أن لا يُعنى بما انصرف إليه الآخرون ، وأن يحصر فكره وهمّه في دنيا الحقيقة المستقلة التي تخيّلها .

ومن هنا تأتي معلومات هؤلاء الناس مبتسرة ، لا بل مضللة أيضاً . ثم إنها لا تروي لهم ظمأ ، ولا تُشبع لهم تطلعاً ، بل تزيدهم في شأنها حيرة واضطراباً .

لأنهم كلما ازدادوا فيها عمقاً ، فاجأتهم منها عروق وخيوط تتجاوز بهم دائرة ونطاق دراستهم ، وكلما تتبعوا منها شيئاً ، أسلمتهم إلى نطاق أوسع وخيوط أكثر تشابكاً وتعقيداً .

ولعلك تعلم مما اطلعت عليه من تراجم أكثر من سمعت بهم من الفلاسفة والعلماء الذين سلكوا في دراساتهم الكونية مسلك التجزيء لها ، أنهم لم يهنؤوا بالمعارف التي تمتعوا بها بل قضى كل منهم نحبه ، ولا تزال آمال المعرفة غصة في نفسه وأمنية في حياته !..

ولكن ، أين هي تلك الرابية العجيبة التي يمكن أن يعلوها الإنسان ، فيطلع منها على المنظور الكلي للحقيقة الكونية بجوانبها المتباعدة ؟.. أم أين هي

الأداة التي تجمع نثار هذه المكونات وتطوي جوانبها المترامية ، ثم تضع منها نموذجاً كلياً أمام بصيرة الإنسان وفكره ؟

أما إنه ليس مبالغة ولا مفاجأة أن أقول لك :

ليس أمام الإنسان من أداة يسخرها لذلك ، إلا الإسلام !..

ذلك لأن الإسلام ليس إلا تعريفاً للإنسان بقصة هذا الكون كله من حيث هو ، وتبصيراً له بمنظوره الكلي الشامل ، وتنبيهاً إلى أخلافه وأسراره الكامنة من ورائه .

وخير تعريف مقرب له أن نقول : إنه الخارطة الشاملة التي إذا بسطها الإنسان تحت عينيه ، رأى المكونات التي تموج من حوله مجسّدة في حقيقتها الكلية الواحدة ، ورأى الشرايين الموصلة بين جوانبها ، والعروق الجامعة لوحدتها ، والسر الجاثم من ورائها .

فجدير بمن امتلك هذه الخارطة ، وتأملها ببصيرة حرة ، أن يجد السبيل إلى دراسة ما شاء بعد ذلك من بقاع تلك الخارطة ، والتعمق في أنحائها ، دون أن يقع منها في أي حيرة أو اضطراب . وكيف يتيه في خطوط الخارطة وتعاريجها من قد درس قبل كل شيء جهاتها ، ووقف على خطوط الطول والعرض فيها ، وتصور منظورها الكلي في ذهنه ؟

إذن فقد عرفت بأن الإسلام هو مدخل من المعرفة الكلية الأولى لقصة هذا الكون وحقيقته . وهيهات أن يسعد الإنسان بمعارفه الجزئية المختلفة أو يفيد منها الفائدة الحقيقة على مستوى المجتمع الإنساني ، إلا إذا سلك إليها سبيل ذلك المدخل ، واتخذ منه المنطلق والأساس .

فإذا كانت هذه هي حقيقة الإسلام ، فمن البدهي أنه لا يمكن أن ينهض إلا على دعائم المنطق والعلم . ومن البدهي أيضاً أنه لا يقر بتبعية الإنسان له وتمسكه

به ، إلا إذا ساقته إلى ذلك القناعة العلمية المتبصرة . إذ كيف يكون مدخلاً من المعرفة الكلية للمجموعة الكونية الشاملة المتجسدة في حقيقة واحدة ، إلى دنيا المعارف الجزئية التي تتفرق في جنباتها مطامح الناس ورغائبهم ، إذا كان هو نفسه غير قائم على دعائم المنطق الصافي والعلم السليم ؟

من أجل هذا كانت الخطوة الأولى التي يفتتح الإسلام حواره مع الإنسان على أساسها ، هي تحكيمُ ميزان العلم . العلم الذي يسمو فوق دنيا الذرائع والأهواء والعصبيات والأغراض .. العلم الذي يتمثل في إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل .

وهو الميزان الذي عبر عنه البيان الإلهي بقوله عزوجل ﴿ وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئك كان عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

فإذا تساءلنا بعد هذا عن موقف الإسلام من مذاهب وأفكار حديثة ، كالمادية الجدلية والتاريخية ، والفلسفة الوجودية ، والنظريات المختلفة عن الكون والحياة ، كنظريات التطور ونحوها ـ : كان جوابه : ﴿ وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أولئكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

ومعنى ذلك : سر مع الحقيقة العلمية أنَّ سارت ، ولا تُسْلِمْ يقينك إلا لما دل الميزان العلمي الحر على أنه حقيقة ثابتة ، لا وهم وخيال .

أي فليس للإسلام حكم على شيء من تلك المذاهب والأفكار ، إلا حكم العلم ذاته . فإن رفضها فلأن موازين العلم المجرد أظهر بطلانها ، ويستحيل أن يرفضها لغير ذلك . وإن قبلها فلأن موازين العلم أثبتت صحتها ، ويستحيل أن يقبلها لسبب غير ذلك .

وكيف يقبلها أو يرفضها لأي سبب آخر ، وهو لا يرضى أن يقيم وجوده

ذاته ، (فضلاً عن المذاهب الأخرى) في فكر الإنسان ويقينـه إلا على دعـائم العلم وبراهينه ؟.

إذن فهل تتصور أن تعالج شيئاً من هذه الأفكار الحديثة ، في دراستنـا لهـا ، ومعرفـة موقف الإسـلام منهـا ، بمنهـج مرسـوم من : (قـال الله .. وقـال رسـول الله) ..؟ بل هل تتصور أن يقبل منا الإسلام هذا ، إن نحن فعلنا ذلك ؟..

نعم ، قد يتحاور طرفان ، ويتـذاكران في مثل هـذه القضـايـا ، اعتماداً على أدلة من كتاب الله وسنـة رسولـه ، دون أي زيـادة عليهما ، فيكون ذلـك وحـده مقنعـاً لهما . ولكن ذلـك لا يتحقق إلا حيث يكـون كل منهما قـد فرغ من دراسـة الإسلام بميزان الدراية العلميـة والمنطق الصـافي ، فـانتهى إلى الإذعـان لـه واليقين به ، بناء على تلك الهوية العلمية . فهو يختصر الطريق بعد ذلك ، كلما اعترضتـه مشكلة ، أو طرح أمامه مذهب أو رأي . ويعود لمعرفة صحته وبطلانـه إلى النظر في مدى تطابق ذلك المـذهب مع الحقـائق الإسلاميـة التي استيقنهـا ، أو في مـدى بعده عنها .

غير أننـا عنـدمـا نطرح هـذه الأفكار في سـاحـة أوسـع ممـا يخص هـذين المتحاورين ، بل هي تتسع لمن لم يذعن بعد بأحقيـة الإسلام ، ولمن خضع لـه عن تبعية وتقليد ، ولكنه لم يقتنع به بعد عن دراية وبرهان ، فإن الاستشهـاد بكلام الله وسنـة رسولـه لا معنى لـه عنـدئـذ ، بـل هـو لا يعني أكثر من مصـادرة على المطلوب .

وإنما المنهج العلمي الذي يفرض نفسـه آنـذاك ، هو الرجوع إلى ذلـك الميزان الحيادي الذي يرتكز على نقطة أسبق في البعد الزمني والاعتباري من سلطـان أي مذهب أو عقيدة أو سلوك . ألا وهو ميزان العلم بمعناه المنطقي الدقيق .



والآن ، بوسعنا أن نطرح أهم الأفكار والمذاهب الحديثة ، واحداً إثر آخر في هذا الميزان ، الذي لا يمكن أن يتجاهل قيمته وسلطانه أحد ، إلا أن يكون قد فقد نعمة البصيرة والعقل .

وبوسعنا أن نعلن سلفاً عن استعدادنا للانخلاع عن أي مذهب أو رأي ، والدينونة لأي مذهب أو رأي ، طبق ما يقضي به هذا الميزان .

الذين يؤلهون العلم
يقعون في شر أنواع الجهل

قال بعض الحكماء : إن الإنسان إذا اكتسب شيئاً من المعارف عن أسرار الوجود ، ذهبت به النشوة مذهباً جعلته يتخيل ذاته إلّهاً من دون الله . فإذا تنامت معرفته وازدادت عمقاً ، تراجعت به النشوة لتهمس إليه بأنه مجرد نبيّ ! .. فإذا واصل السعي وحصل على مزيد من الدراية والعلم ، اقتنع عند نفسه بأنه ليس أكثر من عالم ممتاز .. ثم إذا ازداد رغبة في ملاحقة الحقائق العلمية وسبر أغوارها ، انتهى إلى يقين جازم بأنه جاهل لا يعلم شيئاً ! ..

☆ ☆ ☆

مَرْمَى هذه الحكمة ، أن العلم بالشيء مهما امتد اتساعه وازداد عمقه ، إنما يقف عند نهايات الظواهر التي تكتنفه وتغشّيه ، حتى إذا اتصلت منه بذلك اللب الذي يسمونه الجوهر أو الماهية ، ارتّد العلم على أعقابه ، وعاد من مسعاه ولسان حاله يقول لصاحبه : (رحم الله امرءاً عرف حدّه فوقف عنده) .

والشأن في الإنسان المتعلم إذا اكتشف شيئاً من ظواهر الموجودات أو المعلومات ، أن يتوهم أنه قد عثر فيا وصل إليه على كنهه وجوهره . إذ هو لم يتهيأ بعد ، بسبب معلوماته السطحية ، لأن يعلم أن لكل شيء غلافاً من الظواهر والصفات ، ولباً من الجوهر والماهية ، وأن هذا غير ذاك . فإذا وجد أن الظواهر قد وقعت تحت إدراكه ، وخضعت للكثير من تحليلاته ، توهم عند نفسه أنه قد استقصى من الشيء كل شيء ، وأنه قد علم السِرَّ وأخفى . فأي فرق بقي إذن بينه

وبين من يُسمّى الربَ أو الخالقَ ؟ ! .. بل أي حاجة بقيت لديه للإيمان بـالغيب والخضـوع للمجهـول ، مـا دام أن علمـه قـد قضى على كل غيب ، وبـدّد سحـائب الجهالة كلها ؟!

ولكن إذا أتيـح لـه أن يصحـو عن نشـوتـه الخـادعـة هـذه ، ويتـابـع النظر والبحث ، علم أن ظواهر المـادّة ليست كل شيء فيهـا ، بـدليل أنهـا ـ على تنوعهـا واختلافها ـ خاضعة لنوع من الحركة والتغير الدائبين ، بدءاً من أشكالها السطحية إلى جُزَيْئاتها الخفيـة التي لا ترى إلاّ بـالمجهر . وهـذا هو معنى قولهم : إن كل مـا في المادة يتحرك .

ولو فرضنا أن المادة ليست شيئاً زائداً على ظاهراتها المتحركة المتغيرة هـذه ، لاقتضى الأمر ـ بكل وضـوح ـ أن تتمازج أجنـاس المـواد والأجسـام المختلفـة ، وأن يتـداخــل بعضهــا في بعض ، فــلا يستبين جنس من آخر ، ولا يبقى شيء من الفوارق الثابتة التي تميز بعضها عن بعض . بل الشأن فيها أن تتحد كما تتحـد المواد المختلفة لحساءٍ طال تحركه فتغيّره ، تحت تأثير نيران لاهبـة ، فما يستبين عنـدئـذ حجر من شجرٍ وإنسانٍ وحديدٍ وترابٍ . إلخ ...

غير أن أجناس الموادّ ، كانت ولا تزال ، محتفظـة بفوارق مـا بينهـا . فما هو هذا الذي يمسكهـا عن التمازج والاختلاط على طول الأزمنـة والقرون ، مـا دامت خاضعة بكل أنواعها وأجزائها لحركة دائبة مستمرة ، وما دامت الحركة باعثـة ـ كما هو معلوم ـ على التبدل والتغير ؟

يجيب العلم على ذلك بـأنـه ذاك الـذي يسمونـه (الجوهر) أو (المـاهيـة) أو (الوسيط السـاكن) أو (الأثير) . إنه على كل حال ، شيء يحقق ذاتيـة كل جنس من أجناس المادة على حدة . ومن ثم فهو يكمن وراء ظاهراته الملموسـة والخـاضعـة للفحص والتحليل .

ولكن ما هو المدلول العلمي الدقيق لما نسمّيه : الجوهر ؟ وأين مكانه من بنية المادة وأعماقها ؟ .. إن العلماء لم يضعوا أيديهم من المادة إلا على ظاهراتها ، والظاهرات متحركة متغيرة ، ولكن فما هو هذا الوعاء السحري الذي يمسك خصائص كل جنس من أجناس المادة ، كي لا تختلط وتتمازج بغيرها ؟ سم هذا الوعاء بأي اسم شئت . المهم أنّ أحداً من العلماء لم يقع على أي مدلول تفصيلي له ، وما أمكن أحداً أن يرصده بأي حاسة أو يضبطه بأي جهاز ! ..

وهكذا ، فإنّ علماً يسيراً يتعلق بطبيعة هذه الظاهرات ، لم يدلّ على أكثر من الجهل الكثير بما وراءها من جوهر الأجسام وماهياتها .

ولكن ما أبعد أولئك الجهال الذين يستغرقون في نشوة عارمة من معارفهم السطحية الجزئية ، عن أن يدركوا هذه الحقيقة العلمية الثابتة ويتنبهوا إليها . ومن ثم ، فما أبعدهم عن أن يكتشفوا حقائق ضعفهم ومظاهر محدوديتهم فيعترفوا بها .

☆ ☆ ☆

هذا شيء

والشيء الثاني أن ثمة قاعدة علمية هي من الوضوح بمكان ، وهي قولهم : (العلم يتبع المعلوم) ، وإنما المعلوم أساس ومحور له .

ومع ذلك ، فقلّ من يفهم هذه القاعدة ، ويخضع معارفه لها ، لاسيا أولئك الذين ما تكاد أنوفهم تشم رائحة العلم ، حتى يستنشقوا منها غاشية كبر وغرور تدور في أدمغتهم . إذ يخيل إلى أحدهم أن الأرض بكل ما عليها قد استسلمت لسلطانه ، وأن السماوات بمجراتها غدت ملك يمينه ، وأنه استطاع أن يجعل من مسائله المعدودة التي حفظها زماماً يقيد به عنق الطبيعة ، وأن يسوقها منه إلى حيث يشاء ، وأن يسخرها لكل ما يريد .

ألا تسمعهم يقولـون : إن العلم قضى من الطبيعـة على كل لغـز ، ويسّر منهـا كل عسير ، وألغى منهـا معنى المستحيـل ، وأخضعهـا لكل مـا يريـده الإنسـان ويطمح إليه ؟ !

إن هـذا الكلام لا يعني إلا أنهم اكتشفوا أنّ العلم هو (من دون الله) إلـه كل شيء وخالقه ، فحريّ بالعالم إذن أن يتقمص هذه الألوهية ، وأن يمـارس سلطـان الربوبية في الكون .

أمـا الـذين اتسعت دائرة علومهم ، حتى تحررت من غـاشيـة الغرور وسكرة الجهـل المركب ، فيقررون بكل سكينـة وهـدوء ، أن العلم بـالشيء ليس إلاّ المرآة المصورة لواقع ذلـك الشيء كما هو . ومعنى هـذا أن الشيء المعلوم أسبق في الوجـود من العلم بـه ، وأن الشيء المعلـوم أصـل ثـابت والعلم بـه فرع لاحـق ، وأن الشيء المعلوم متبوع والعلم به تابع .

فلئن كان العلم ، مع ذلك ، إلّهاً من دون الله ، فـإن الشيء المعلوم الـذي هو أصل له ، أسبق منه في الألوهية وأحرى منه بـالربوبيـة ، ضرورة أن أصل الشيء أسبق من فرعه وجوداً وأرسخ منه أصالة وثباتاً .

ثم إن هـؤلاء الـذين تحررت علـومهم من غـاشيــة الجهـل المركب وغروره ، يقررون نتيجة لـذلـك أن العلم لا يوجـد معـدومـاً ، ولكنـه ينبـه إلى الموجودات ويعرّف بمزاياها وخواصها وطرق الاستفادة منها .

وبوسعك أن تسمي هذا العالم بما شئت .. سمّه مخترعاً أو مبدعاً أو مكتشفاً .. المهم أنّ إمكاناته العلمية مهما اتسعت ، لا تتجاوز اكتشـاف الموجودات والتنبـه إلى خواصها الثابتة فيها ، وإلى سبيل الاستفادة منها وكيفية استغلالها فيما هي مهيـأة له .

نعم ، إن بـوسعـك أن تضفي على العـالم مـا تشـاء من الصفـات ، ولكنــك

لا تستطيع أن تكون صادقاً إن أنت نعتَّه بصفة الخلق .. إذ العالم مهما كان شأنه لا يخلق مفقوداً ، ولكنه يجمع الموجودات إلى بعضها على نحو تتحقق به علل غائية معينة .

وثمرة هذا الكلام ، أن الحقائق العلمية ليست إلا ظلالاً متحركة لقوانين كونية جاثمة في أماكنها . وذلك يعني أنها ترجمان أمين يعبر عن تلك القوانين وحالها كما هي ، ويروي للناس عنها الخصائص والإمكانات المزودة بها . هذا ما يعرفه بكل سكينة وأناة أي عالم تزود من العلم ما حرره من ربقة الغرور وسكره .

ولكن أين هذا من قعقعة خطابية فارغة تطفو على أفواه كثير من الناس ، عندما يقول أحدهم : إن العلم قضى على أسطورة الغيب ، وذلل الطبيعة لكل ما يطمح إليه الإنسان ؟

إن معنى هذا الكلام السكران أن الطبيعة الكونية هي التابعة للعلم بها ، على نقيض ما هو المقرر والثابت عند جميع العلماء . وهذا يقتضي أن للعلماء أن يقرروا ويبرموا أحكامهم العلمية كما يحبون ويحلمون ، وعلى سائر المكونات التي يسمونها (الطبيعة) أن تكون تابعة لها وأن تسعى في انكسار وراءها .

إذن فماذا ينتظر هؤلاء العلماء ؟ لماذا لا يقررون خلود الحياة الإنسانية وانعدام الموت من هذه الدنيا ، لتقول لهم الطبيعة الخاضعة : لبيك ؟ ! ولماذا لا يقررون ثبات الشباب اليافع في عمر الإنسان وانتساخ المشيب الممقوت من حياته ، لتحقق لهم الطبيعة ذلك دون انتظار ؟ .. نعم ، لماذا لا يصنع لنا هؤلاء العلماء الكثير من هذه الحقائق العلمية الثورية المفيدة ، كي تتحول الدنيا إلى فردوس أبدي مقيم ؟

إن من الواضح أن الاشتغال بصنع قرارات (علمية) من هذا القبيل ليس إلا

هذياناً مجرداً ، لأن النواميس الكونية لن تكون تابعة في يوم من الأيام لأولي الأخيلة والأحلام .

وكم في نواميس الكون هذه ، من غيوب لا قبل للعلم ولا لشيء من أجهزته باقتحامها ، وكم في هذه المكونات قوانين راسخة لا قبل للقوى الإنسانية مجتمعة بتغيير شيء منها ! .. وإنما شأن العقل حيالها أن يستطلع أسرار تلك النواميس من خلال تعرفه إلى واضعها ومنظمها . فإن هو فعل ذلك ، فإنه لا يكاد يمضي في تأمله غير بعيد حتى ترتفع أمامه الحجب المسدلة ، فإذا هو أمام قيوم السماوات والأرض ، ذلك الذي أعطى كل شيء خلقه الذي ظهر فيه ، ثم هداه إلى وظيفته التي أقامه عليها .

وعندئذ يعود صاحب هذا التأمل ، وقد انكشف أمامه اللغز واتضح له المبهم ، وهدأت منه النفس ، فلم يبق أمامه غيب يسمو على مدارك العقل ، ولا تحديات للطبيعة تتحدى وسائل العلم . ذلك لأن اكتشافه لوجود من خلق الكون وأقامه على النظام الذي اختاره له ، أنهى كل حيرة وقضى على كل لغز وكشف عن كل خافية .

أما الذي بقي يتخبط في أساطير الغيب المجهول ، ويصارع ما يسميه (تحديات الطبيعة) وتتقاذفه من ذلك أمواج القلق ، فهو ذاك الذي جعل من علمه السطحي الساذج إلّهاً من دون الله ، ثم صاغ من علمه هذا زماماً أثبته ـ فيما زعم ـ في عنق الكون ، أو الطبيعة كما يقولون ، ثم راح ينترها به نتراً ، ليقتلع أنظمتها الثابتة وقوانينها الراسخة ! .. ولما أعجزه ذلك ، هاله الأمر وحار في تأويله ، ثم تصوره لغزاً يستعصي على الحلّ ، وغيباً يتجاوز حدّ الفهم ، ثم نفض منه يديه ومضى بعد أن سماه (تحديات الطبيعة) ! ..

نعم ، هذا هو الذي زعم أنه يفر بعلمه من الإيمان بالغيب ، فكان أول من

غرق في أوهامه ، وزعم أن العلم قضى على كل عجز وحقق كل مستحيل ، فكان أول من استخذى أمام ما سماه (تحديات الطبيعة) . ثم كان لا بد أن يترامى من جراء ذلك في بحر من القلق لا شاطىء له ، وإن أوهم نفسه أو الآخرين أنه قد علم كل شيء .

☆ ☆ ☆

بقي شيء ثالث :

يجب أن يتساءل العالم المعتز بعلمه : من أين انسكب إليه هذا العلم ، وكيف أشرق في دماغه نوره ، وهل هو فاعل مختار في جلبه وصنعه ، أم هو مجرد جهاز استقبال له ومظهر انفعال به ؟

لو تأمل هذا الإنسان في ذاته ، وهو يتلقى الصور والحقائق العلمية ويستوعبها في دماغه أو فؤاده ، لأدرك أنه يتلقاها ويدركها من حيث لا يدري ، كأي ملكة أخرى مما يعتزّ به الإنسان ، متوهماً عند نفسه أنه مبدعها وصانعها .. إنه بدون شك يمارسها ويصطبغ بها تأثراً وانفعالاً ولا يكتسبها خلقاً وإبداعاً .

نعم ، إنك قوي في جسدك ، ولكنك منفعل بالقوة غير فاعل أو موجد لها ، وأنت متكلم مبين ، ولكنك منفعل بالقدرة الكلامية من حيث لا تشعر ولا تدري ، ولست فاعلاً أو مبدعاً لها . وأنت مفكر وعالم أيضاً ولكنك منفعل بالفكر والعلم من دون قصد منك ولا اختيار . ومعاذ الله أن تكون أنت الموجد لمعنى الفكر أو ثمرة التعلم في ذاتك .

إنك لتتأمل في لسانك ، أثناء نطقك ، وهو يجول في أنحاء فمك ، ليخرج الأحرف والكلمات سليمة مرتبة مفهومة ، فهل تتصور أنك المشرف والمراقب على

كيفية تحركه ذات اليمين آناً واليسار آناً آخر ، وأنك أنت الذي توحي إلى حبالك الصوتية أن تنفث التقاطيع المسموعة المتآلفة مع حركة اللسان وعمله ؟

إنك لا تعلم أكثر من أنك عزمت على الكلام ، فإذا أنت تتكلم ، وقد سخرت لك أسباب ذلك من حيث لا تعلم ولا تدري كيف تم هذا التسخير .

إذن فأنت منفعل بملكة التكلم ولست فاعلاً أو مبدعاً لها .

كذلك كل ما يتمتع به الإنسان من ملكات ، ومنها العلم .. إنك لا تدري سوى أنك قد اتجهت بالعزم والقصد إلى أن تتعلم ، وإذا به انسكب في عقلك إشراقاً وفهماً دون أن يكون لك أي دخل في إيجاد ذلك .

وخطأ كبير أن تتوهم المعاناة التي تبذلها في طريق التعلم ، إيجاداً منك لحقيقة العلم وجوهره . إن هذه المعاناة ليست أكثر مما يفعله الفلاح إذ يفلح الأرض ثم يلقي فيها البذر ، ثم يجلس ينتظر جود الله وكرمه . فلئن كان هذا الذي يفعله الفلاح هو عين الزرع والنبت الذي يخضر ويتطاول ، فإن معاناة المتعلم يمكن أن تكون هي عين العلم والإدراك .

إنك لا تدري كيف يعي عقلك الحقيقة ولا كيف يحفظها . فكيف تكون صانعاً لما لا تدري كيف تم صنعه ، وكيف تكون موجداً لما لا تدري كيف تم وجوده .

☆ ☆ ☆

ترى بماذا يتطاول الإنسان وإنما هو مجرد لوحة أثبتت عليها مجموعة نعوت وصفات ، هو بفضلها يقوم ويقعد ويتصرف ويكافح . وهو لا يملك لها جلباً ولا دفعاً ، ولا يملك أن يتجاوز بشيء منها حدود صلاحياتها ، ولا أن يستبقيها إذا ذبلت وحان ذبولها ! ..

أجل ، بماذا يتطاول الإنسان ، وهو ليس أكثر من جهاز استقبال ؟ وماذا عسى أن يفيد مثل هذا الجهاز إن قطع عنه الإرسال ؟

هل في هذا الكلام أي تجاوز فوق سلطان العلم . أو أي تهوين لشأنه ؟

إن كان ثمة من يرى أن فيه شيئاً من ذلك فليقل .. وسأسمع .

والآن أليس حقاً ما يقوله خالق الإنسان ومبدع ملكاته وطاقاته :

﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَه ، من أي شيءٍ خلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فقدَّرَهُ ، ثم السَّبيلَ يسَّرهُ ، ثم أماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثم إذا شاء أنْشَرَهُ ، كلا لَمَّا يقْضِ ما أمَرَهُ ﴾ [عبس ١٧ - ٢٣]

الجدليّة
أحقاً أنها محرك الطبيعة والتاريخ ؟

على الرغم من أن أهم الأفكار الحديثة التي يشكل كل منها تياراً مذهبياً مستقلاً بذاته ، يتمثل في كل من المادية الجدلية ، والتاريخية ، والاتجاه الوجودي ، والنظرية الداروينية عن أصل الإنسان ، لا يتبنى السواد الأكبر من المفتونين بهذه الأفكار الحديثة ، منها مذهباً مستقلاً دون غيره . وإنما يلتقطون من كل مذهب أبرز ما يتميز به . فهم يأخذون من المادية الماركسية جدليتها ، ومن المادية التاريخية اشتراكيتها ، ومن الوجودية حريتها ، ومن النظريات الداروينية عموم ما يمكن أن يسمى بفكرة التطور في نشأة الإنسان .

ومن هذا المزيج تتكون اليوم الطريقة الحديثة المفضلة للتفكير والمناقشة في قضايا الكون والحياة عند جل من تفتنهم هذه الأفكار والتصورات الحديثة .

ولا يوهمنك ما أقول أن سواد الناس اليوم غدوا موقنين بهذه الأفكار والاتجاهات الجانحة عن سبيل المنطق والعلم . وأنها غدت أساساً ومنطلقاً لهم في المحاورة والتفكير .

إن هذا التصور قد يكون صحيحاً في المجتمعات الغربية . على اختلافها . أما في مجتمعاتنا العربية والإسلامية فالعكس هو الصحيح . بل لا أعرف عهداً انحسرت فيه هذه الأفكار عن عقول الناشئة المثقفة في بلادنا . وفقدت فيه جاذبيتها وسلطانها كهذا العهد الذي نمر به .

غير أن لها في كل زمن وعلى كل حال سماسرة يدعون إليها ، ويكسونها جهد استطاعتهم من أردية المنطق والعلم ... ويروجون لها بين أصحاب المطامع والأغراض ، فلاتعدم أن تجد مفتوناً بها لاهثاً وراء كل طريف وجديد ، ولا تعدم أن تجد مصانعاً لها متظاهراً بأنه مقتنع بها طمعاً في مأرب أو أملاً في منصب !..

ولقد أصغيت مرة إلى أحد هؤلاء السماسرة ، يناقش ويحاور في شأن التاريخ الإسلامي ، ونشأة الإسلام والأطوار الاجتماعية والسياسية التي مرت عليه . فرأيته يتخذ من الجدلية المادية المنهج العلمي الذي لامفر منه لفهم كل أحدوثة وواقعة . ورأيته بناء على ذلك لايحاول أن يفهم أي ظاهرة تتعلق بتاريخ الأمة العربية قديماً أو حديثاً إلا على ضوء ماتقتضيه هذه الجدلية !... فكأنها ـ من وجهة نظره ـ العقل المهين لفهم كل مشكلة وخافية . فإذا أهملت لم يأمن الباحث أن يقع في متاهات الخلط والهذيان !... وإنما السبيل الوحيد للابتعاد عن تلك المتاهات هو الاحتماء بنبراس الجدلية !..

☆ ☆ ☆

فما المقصود بكلمة (الجدلية) وماموقف العقل والمنطق منها ؟ وقد علمت أن القرآن يقول ﴿ وَلاتَقْفُ مالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أولَئِكَ كَان عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

إن كلمة الجدلية تعبير عن تصور يتلخص في أن كل شيء يعيش في صراع وتفاعل مع ذاته فتتآكل وتفنى من ذلك ظواهره القديمة . وتنشأ على أعقابها ظواهر أخرى أكثر غناءً وتعقيداً . ولاتلبث هذه الظواهر الجديدة أن تبلى هي الأخرى في رحى هذا الصراع المستمر ، لتقوم على حطامها ظواهر أكثر جدة وقوة وغناء وهكذا .

وأقول : إن من السهل علينا أن نتخيل أن شيئاً ما ، أو أن الأشياء كلها ،

تتطور تحت سلطان هذا التفاعل والهياج الداخلي ، متجهة دائماً إلى الأفضل والأرقى . ولكن مامدى تطابق هذا الخيال مع الواقع ؟ وأين هو مصداق ذلك في برهان التجربة والمشاهدة ؟

إن التقاط أمثلة من الطبيعة صادف أن قام بعض الشبه بينها وبين التخيل الجدلي كمثال حبة الحنطة وسنبلها ، لا يعطينا أي مسوغ لإضفاء هذا الخيال على واقع الكون بأسره . وإنما يتحقق المسوغ لذلك عندما يثبت لدينا بدليل الاستقراء الكلي التام ، أن ظاهرة هذا الصراع الذي ينتهي إلى السير نحو الأفضل ، هي طابع الموجودات كلها . ولا مانع بعد ذلك من استثناء حالات نادرة بسبب عوارض وأسباب خارجية .

فهل ثبت هذا الدليل الاستقرائي التام ؟ إن الذي ثبت لدينا من استعراض طبيعة الأشياء المادية ، ومن التأمل في الخط التطوري الذي تسير فيه ، نقيض ما يتخيله أصحاب الفكر الجدلي تماماً . فهي تتطور ولكن نحو الذبول والانمحاق لا نحو الصعود والبقاء .

فمن الثابت عند علماء الفلك والطبيعة أن مادة الكون الصلدة في مجموعها آخذة في الانحلال والاضمحلال في أثناء تحولها إلى شعاع .

ومن الثابت أن الطاقة إذ تتحول من شكل إلى آخر ، إنما تتحول ـ غالباً ـ من الشكل الأعلى إلى الشكل الأدنى ، أي من الأقوى إلى الأضعف ، إلا عندما تتحقق عوامل خارجية من شأنها أن تفعل العكس . فطاقة النور مثلاً أغنى من طاقة الحرارة كما هو معروف . ومن السهل أن تتحول ألف وحدة من طاقة النور إلى ألف وحدة حرارية ، وذلك بتوجيه مقدار من النور إلى سطح بارد أسود مثلاً ، ولكن إعادة تحويل هذه الوحدات الحرارية إلى طاقة من النور مستحيل . لأن تفكك الشيء واضمحلاله أيسر من إعادة تركيبه .

فالأول قد يخضع لعوامل طبيعية مجردة . ولكن الثاني يتوقف دائماً على عوامل وأسباب أكثر أهمية وتأثيراً . فأين هو مصداق الخيال الجدلي على هذا المثال ؟ وهو كلي من كليات النظام الكوني لا جزئي صغير في بيداء الطبيعة ومنثوراتها . لأن كلا النور والحرارة ينبوع الطاقة للأشياء الأخرى ، فلابد أن ينعكس هذا النظام الذي رأيناه فيهما على سائر الأشياء الأخرى التي تعيش على غذاء من الحرارة والنور .

ومن المعلوم أيضاً ؛ أن ذرات الراديوم وغيره من المواد المشعة تتفكك بمرور الزمن عليها ، وتستحيل إلى ذرات من الرصاص والهليوم . وقد حاول العلماء أن يعرفوا ولو على وجه التقريب المدة الزمنية التي تتحول فيها كمية معينة من الراديوم إلى رصاص ليتخذوا من كمية الرصاص الموجود اليوم في مكامن المعادن المختلفة مقياساً يوضح عمر هذا الكوكب الأرضي اليوم . وقد انتهى بعض العلماء من هذه الدراسة إلى نتيجة مفادها أن عمر الأرض يبلغ ٣ مليارات ونصف مليار من الأعوام وإن كان السعي إلى معرفة هذا الأمر لا يزال رهن الافتراضات والأوهام .

ويصدق هذا القانون نفسه على حياة الإنسان وجسمه ، وعلى نسيج الخلايا في كل شيء ، فهو لا يفتأ يقوم بوظيفته ضمن الشروط والظروف المعروفة . وتستمر عملية التجديد والتوارث فيه إلى ميقات محدود . فأجهزة الجسم كله لا تلبث أن تتقاصر عن أداء وظيفتها ، فتتناقص الحرارة فيه . وتعجز الأجهزة عن استخراج الحرارة اللازمة للجسد والخلايا ، وينتهي ذلك بوقوف كل شيء عن أداء وظيفته التي كان دائباً عليها ، حيث لابد أن يتحقق الموت الذي لا مفر منه .

إذن فالخلايا تتجدد ـ أي خلايا ـ باستمرار . ولكن ضمن خط عام يتجه بمجموعه نحو الركود والاضمحلال . ينطبق ذلك على الإنسان والحيوان والنبات ، والشجرة الباسقة ، فأين هذا الواقع العلمي المشاهد . من تخيل ما يسمى بسلطان

الجـدليـة ، إذ يتمطى بـالأشيـاء في صعود لولبي مستمر نحو الأعلى والأفضل دائمـاً ؟ لا شك أنه خيال حلو وطريف ، ولكنه بكل بسـاطـة وتـأكيـد يتنـافى مع الواقع الكوني ـ الذي يفرض نفسه ـ كل المنافاة .

وإذا كان هذا خيالاً مجنحاً ، ينـأى عنـه الواقع ولا يتعرف عليـه ـ كما رأينـا ـ فكيف يصـح ـ في مقيـاس أي منطـق حر ـ أن يشـاد على هـذا الخيـال بنيـان عريض من دعوى الجدلية في حركة التاريخ والمجتمعات والاقتصاد ؟... وهل هـذا إلا كمن يتوهم ، ثم يبني على أوهامه قصوراً وأحلاماً ؟ أو كمن يقيم دعـائم من المـاء في عباب يم متلاطم . ثم يبني على تلك الدعائم صرحاً راسخ الأركان ؟

أجـل ، فـإن فرغ هـؤلاء من تخيـل الجـدليـة في دنيـا المـادة . حتى أخـذوا يفرعون عنها ويبنون عليها دعوى الجدلية ، على أنهـا عـامل محرك ومهيج لنشـأة الدين وتطور المجتمعات ووسائل الإنتاج وعلاقاته !..

ودعـاهم خيـال هـذه الجـدليـة إلى القـول : بـأن الإنسـان كان في أول عهـده بالحياة ، كسائر الحيوان والبهـائم الأخرى . لا يتمتع بوعي ولا لغـة ، ولا تشـده إلى أخيه أي علاقة اجتماعية ثم إن سلطان الجدلية ، فار فورته في كيـانـه ، اعتماداً على ذلك المحور الثابت في حياته ، ألا وهو البحث عن الطعام والشراب والمـأوى ... أو الشعور بالحاجة إليها ، فزجه في مجتمع ثم قدح المجتمع في رأسـه زنـاد العقل ، وفتق في لسانه اللغة ، وأقامـه على علاقـات إنتـاجيـة متطورة وسـاريـة ، صعـدا ، من خلال سبـاق لاهث بين وسـائل الإنتـاج وعلاقـاتـه ، فهو اليوم يصعـد ولا يـزال يصعد ، بدفع من سياط تلك الجـدليـة ، التي انعكس سلطـانهـا المهين على المـادة والطبيعة إلى التـاريخ والحضـارة !... فمنـذا الـذي يملـك أن ينيم عقلـه في رأسـه ليصغي في خـدر واستسـلام إلى هـذه التخيـلات التي لا يمسكهـا ضـابـط منطـق ولا يؤيدها ميزان علم ؟

ترى ماالذي منع سلطان الجدلية أن يفور فورته هذه في حياة البهائم والوحوش أيضاً ، فيزجها هي الأخرى في مجتمع ، ليتكون لها بوساطته ماقد تكون للإنسان من اللغة والعقل ، مع العلم بأن محور وسائل الإنتاج والشعور بالحاجة إلى الطعام والشرب كان موجوداً في حياتها بأقوى وأجلى مما هو في حياته ؟!... أجل ماالذي جعل هذه الجدلية تتميز في قانونها لمصلحة الإنسان وحده . وتهمل في جنبه مصلحة زميله الحيوان الأعجم ؟!...

وكيف أتيح للإنسان القديم ، إذ كان أعجم مجرداً من نعمة الفكر والوعي ، أن يبني لنفسه مجتمعاً ، ليمده المجتمع بدوره بالفكر والنطق ، وقد علم الناس جميعاً أن السعي إلى إيجاد تركيبة اجتماعية ما ، يتوقف على أعقد عمليات الفكر والوعي ؟ وهلاّ أقدمت البهائم هي الأخرى على إقامة مجتمعات لها منذ أقدم العصور ، وأكسبتها مجتمعاتها الوعي واللغة والحضارة كما تفضلت المجتمعات الإنسانية ، بذلك كله على الإنسان ! أجل ... كيف ؟

وعندما لا يقوى المنطق العلمي على النهوض للدفاع عن الجدلية وسلطانها ، بالإجابة على هذه الأسئلة التي لابد أن تفرض نفسها . يبرز أمامنا القانون القرآني قائلاً :

﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أولئكَ كان عَنْهُ مَسْؤولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

وعندئذ يضطرنا المنهج العلمي المجرد ، إلى أن نصرف النظر عن هذه الأخيلة الغيبية التي لا ترفدها أي بصيرة علمية ، بل لا تقف البصيرة إلا وقفة المفند لها والمحذر منها .

وههنا لا نرى مفراً من اليقين بأن الإنسان خلق منذ نشأته الأولى مجهزاً بالفكر والوعي ، متمتعاً باللغة والنطق ، نزاعاً إلى التآلف الاجتماعي . فهو

منفصل انفصالاً ذاتياً وجوهرياً عن سائر الحيوان الآخر .

وسواء علينا ، أدلتنا هذه الحقيقة التي لا محيد عنها عن الإنسان ، على اليقين القطعي بوجود الله عزوجل ، أم هدانا هذا اليقين ذاته إلى الحقيقة الثابتة عن الإنسان ، فإن بينهما على كل حال تلازماً راسخاً ، وتفاعلاً من حيث تبادل الدلالة العلمية التي لاتقبل الريب .

والحرية
أحقاً أنها جوهر الوجود الإنساني ؟

هذه إحدى مقولات الفلسفة الوجودية ، إن صح أن تسمى فلسفة .. وأغلب الظن أنها تسمية باطلة ، تطلق توسعاً على سبيل المجاز . فما سمعنا قبل اليوم عن فلسفة لا تفرق بين الجوهر القائم بذاته والعرض المتقوم بغيره ، فتطلق على الثاني اسم الأول ، لا في غضون حديث عابر ، بل ضمن مقولة كلية تتخذ عنواناً على العمود الفقري لأفكار الوجوديين وتخيلاتهم .

ليس هذا مهماً على كل حال .. إنما المهم أن نتساءل :

أصحيح أن الحرية تمثل جوهر الوجود الإنساني ؛ بحيث إذا فقدت ، فقد معها الإنسان ، ضرورة أن الشيء لا يوجد بدون جوهره ، أو أنها تمثل حتى عرضاً من أعراضه التي لا تقبل الانفكاك عنه ، كالطول والعرض والثقل ونحو ذلك ؟

لكي نكون دقيقين في الإجابة على هذا السؤال ، لابدَّ أن نتساءل عن المعنى الذي نقصده بكلمة (الحرية) . وهو تساؤل لم يطرحه إلى اليوم دعاة الحرية وفلاسفتها ، وربما لم يخطر منهم على بال .

إن كلمة الحرية تطلق ويراد بها أحد معنيين :

إما التخلص من القسر الخارجي ، أو التخلص من القسر الخارجي والداخلي معاً .

وبتعبير آخر ، قد يراد بالحرية أن يملك الإنسان إصدار قراراته السلوكية في

حق نفسه بموجب إرادته الشخصية ، دون أن يشوبها أي قسر خارجي ، بقطع النظر عن وجود عوامل داخلية ، قد تجبره على تلك الإرادة وهو لها كاره . وقد يراد بها أن يملك الإنسان التوفيق بين إرادته ومحبته ، بحيث لا يضطره عامل ما إلى توجيه إرادته نحو ما لا ترضى عنه نفسه ، أو إلى محبة ما لا قبل له بتحقيقه والوصول إليه .

فإن كان المقصود بالحرية التي يهتف بها اليوم عشاقها وفلاسفتها ، معناها الأول ، فهي أمنية محققة عند أكثر الناس ولدى معظم الأمم ، سواء على المستوى الفردي والاجتماعي لا يستثنى منهم إلا من نزل بهم قسر خارجي أفقدهم سلطان إرادتهم ، بسبب وقوعهم في أسر أو سجن أو بسبب أي تضييق مشابه ، أما سائر الناس ومعظمهم فلا يتصرفون ولا يتحركون إلا بوحي من إرادتهم التي توجههم من داخل نفوسهم دون أن تشوبها شائبة إكراه خارجي ، ألا ترى إلى حركات هؤلاء الناس في أسواقهم ، وإلى تقلباتهم في مختلف شؤونهم وتنقلهم ما بين جد ولهو في حياتهم الفردية والاجتماعية ؟ إن كل ذلك يتم بوحي من إرادة صافية عن شوائب الضغط والإكراه ، فما الحاجة إذن إلى اصطناع الكفاح الوهمي للدفاع عن هذه الحرية التي لا مهدد لها ، وليس في جمهرة الناس محروم منها ؟

أما الإسلام ، فلا نحسب أن على وجه الأرض شرعة أدارت أحكامها على رعاية هذه الحرية وحمايتها والذود عنها كشرعة الإسلام . فمنها تنبع قيمة العقيدة ، وبسرها تتحقق كرامة الإنسان ، وعلى محورها تدور قيمة التصرفات والعقود صحة وبطلاناً .

نعم ، إنه لكفاح مقدس أن تتجه مساعي هؤلاء الناس وغيرهم ، بكل ما يملكون من طاقة وجهد ، إلى من قد حرموا نعمة هذه الحرية ، ممن أوقعتهم يد الظلم في مصيبة أسر أو ظلام سجن أو قبضة استعباد ، فحرموا من نعمة التمتع بالإرادة والاختيار اللذين أنعم الله بهما على سائر بني الإنسان ، وإنا لنعلم أن من

أهم المصالح التي جاء بها هذا الدين الـذي ألزم الله بـه عبـاده ، أن يرى النـاس في ظلـه سبيل التمتع بـاختيـاراتهم وإراداتهم ، فلا يضيّق عليهم منهـا أحـد بشيء من أسباب القهر والاستعباد .

هذا ما نقوله ، إن كانوا يقصدون بالحرية معناها الأول الذي ألمحنا إليه .

أما إن كانوا يقصدون بها معناها الثـاني ، أي أن تكون إرادة الإنسـان في كل حال ، تعبيراً عما تهفو إليه نفسه ويشتهيه هواه ، بحيث تكون الرغبة النفسية هي القائد الأول ، ثم لا تكون الإرادة إلا واحداً من جنودهـا ، فهي فيـه طفوليـة ، لم تنل حظهـا ـ على مر الأحقـاب والـدهور ـ إلا من الأخيلـة والأحلام . وخير مـا ينقض فلسفـة هؤلاء الحـالمين ، الواقـع الـذي مـا زال إلى اليـوم يمـزق أحـلامهم ، ويتحدى أمانيهم وتطلعـاتهم ، فمـا يمنعنـا من الانضمام إلى حزبهم إلا انتظـار هـذا الواقع الكوني أن يصطلح معهم ويخضع لأحلامهم .

وتوضيح هذه الحقيقة ، يتوقف على تحليل نلخصه فيما يلي :

إن تحديد حجم الحرية ، في واقعها الحتمي ، (وإنما نقصـد بهـا الآن معنـاهـا الثاني) يتم من خلال اتساق يجب أن يتم بين طرفيها ! ..

وهل للحرية طرفـان ؟ نعم ، فـالحريـة لا تتمثل إلا في مسـافـة من الممارسـة الاختيارية تقع بين طرفين ، أما أحدهما فيبدأ برغبـة الإنسـان واختيـاره ، وأمـا الثاني فيتعلق بواقع أو حقيقة كونية ما ، اتجهت إليها الرغبة في ممارسة معينة .

وإذا تـأملت ، علمت أن الطرف الأول يمثل منبع الرغبـة والاتجـاه الإنسـاني الذي لا يحب أن يُواجَه بأي عقبـة أو صـد . غير أن الطرف الثـاني لا يراعي هـذا الاتجاه ، بل يرصد الضرورات التي من شـأنهـا أن تحجّم حـدود الرغبـة وتضبطهـا ضمن حدود معينة . ومن اتساق ما بين هذين الطرفين وخضوع أضعفهما للأقوى ، تتكون حقيقة الحرية التي يمكن للإنسان أن يمارسها ويتمتع بها .

فالرغبة التي يشعر بها المريض مثلاً ، تلحّ عليه أن يتنـاول من الأطعمـة كل ما يروق له ، غير أن الواقع الحتمي الذي يمثلـه الطرف الآخر ، يصـده عن تنـاول ألوان كثيرة منها . والنتيجة التي لا بد منها ، أن تتحدد الرغبـة الإنسـانيـة طبقـاً للضرورة التي يمثلها الواقع الذي لا محيد عنه .

والرغبة الأساسية التي يشعر بها أيّ واحـد من النـاس ، هي أن يملأ أوقـاتـه كلها بالمتعة التي تهفو نفسه إليها ، دون أن يتحمل مسؤولية الانضباط بـأي عمل . ولكن الواقع الذي لا بد أن يتفاعل معه الإنسان يـأبى إلا أن ينغص عليـه السبيل إلى تحقيق هذه الرغبة . فالنظام الكوني قائم على ضرورات لا مردّ لها ، من شـأنهـا أن تحمل الإنسان ضريبة الحياة ومسؤولياتها الاجتماعيـة . فـإن هو لم يخضع لتلـك الضرورات شقي من حيث تأمل السعـادة ، وأثقلتـه القيود والآصـار ، من حيث تأمل مزيداً من الحرية والاختيار .

والرغبة الإنسانية الصافية تطمح بصاحبهـا إلى تلمس حيـاة لا انقضـاء لهـا ، وشبـاب لا هرم من بعـده ، وقوة لا ينسخهـا ضعف . ولكن متعلـق هـذه الرغبـة يتمثل في تلك السنن الكونية التي لا مرد لهـا ، فكل حيـاة سـائرة إلى موت ، وكل شباب مآله إلى شيخوخة وهرم ، وكل قوة مردها إلى استخذاء وضعف . على هـذه السنن الراسخـة استقـام أمر هـذا الوجـود كلـه ، وتحت سلطـانهـا القهري انضـوى الوجود الإنساني طوعاً أو كرهاً .

وليس اليقين بالحقيقة التي ننبّه إليها من خلال هذه الأمثلة ، وقفـاً على فئـة من النـاس دون غيرهـا . بل هو محل اتفـاق من العقلاء كلهم ، بمـا فيهم المؤمنـون والجاحدون ودعاة الفكر الوجودي وأمثالهم .

فما معنى هذه الحقيقة ؟ معناها أن الحرية ليست ممـارسـة ذاتيـة تتم في دائرة مقفلة داخل الكينونـة الإنسـانيـة ، وإنمـا هي تفـاعلٌ يتم بين الإنسـان والأنظمـة

الكونية المحيطة به . فحريته ملجمة إذن بقيود تلك الأنظمة وأحكامها . وكل ما يملكه من تحرك في أبعادها فمنحة من سلطان تلك الأنظمة ، كان من الممكن أن لا يعطاها الإنسان ولا يتمتع بها .

لذا ، كان من أول الواجبات المترتبة على عشاق الحرية والمكافحين في سبيلها ، أن يبدؤوا سعيهم إليها بدراسة هذا الكون المحيط بهم دراسة واعية دقيقة تبصرهم بأحكامه وأنظمته ، وتنبههم إلى مدى سيطرة هذه الأنظمة والأحكام على حياتهم ، ومن ثم إلى مدى تقييدها لحرياتهم ورغباتهم . فإن هم أبوا إلا أن يكونوا أشد إخلاصاً لحرياتهم وأكثر كفاحاً في سبيلها ، فليحاولوا إزاحة قيود تلك الأنظمة عن طريقهم ، وليجهدوا جهدهم في تخليص حرياتهم المقدسة من أثقالها وقيودها المستعبدة . ولسوف تهنئهم الدنيا كلها إن هم نجحوا في كفاحهم هذا ضد الأنظمة الكونية المحيطة بهم والمهيمنة عليهم .

فإذا ما تابع عشاق الحرية في دراسة القيود الكونية ومصدرها وفي مدى إمكان التغلب عليها ، فلسوف تهديهم دراستهم تلك ، إلى وجود خالق لهذا الكون ومبدع لقوانينه وأنظمته ، ولسوف يعرفون الكثير من صفاته ، وإن أعجزهم الوصول إلى حقيقته وكنهه . ولسوف يوقنون يقيناً لا يخالطه الريب بأنه مالك هذه المكونات كلها ، وأن الإنسان ليس إلا سلعة ممتازة في هذه البضاعة الكونية التي هو قيومها ومالكها وإليه مآلها ، ولسوف يدركون أن قصة الحرية التي يناضلون في سبيلها ، ليست إلا كقصة الحرية العتيدة التي توهمتها العنز ، عندما أطال صاحبها من الزمام المثبت في عنقها ، فانطلقت تقفز إلى هنا وهناك وتتسلق ما حولها من صخور وشجيرات . لقد أعوزها عقل ينبهها إلى أن هذا الزمام الذي أثبت طرفه في عنقها واستقر طرفه الآخر في يد صاحبها ، مهما امتدّ له طول ما بين هذين الطرفين فإن ذلك لن يورثها أيّ حرية أو انعتاق ! ..

أما الإنسان ، فما أيسر أن يهديه عقله إلى مكان الزمام الذي أثبت بإحكام في

كل جزء من كينونته ، ثم استقر طرفه الآخر في قبضة مولاه وخالقه ، وإنه ليوشك أن يجذبه إليه جذبة فإذا هو أسير في قبضته ضئيل تحت سلطانه ، لا يملك لنفسه طولاً ولا حولاً ، ولا قدرة على أي عمل أو حراك .

فما هو القرار الذي يتخذه العقل تجاه هذا الواقع الذي يفرض نفسه ؟

إن القرار الذي لا محيص له عنه ، هو اليقين بأن الحرية هي التي يجب أن تخضع للضرورة ، وليست الضرورة هي التي يتوقع أو يطلب منها أن تخضع للحرية .

كيف ، ولو أمكن أن تكون القيادة للحرية لما سميت الضرورة ضرورة ، ولكننا عندئذ أمام واقع كوني آخر غير هذا الذي يفرض نفسه أمام سائر العقول والأبصار ! ..

فكيف يجعل الإنسان حريته تابعة للضرورات القسرية التي لا قبل له بتغييرها أو مقاومتها ؟

سبيل ذلك أن يعود بالحرية إلى معناها الأول الذي ذكرناه في صدر هذا المقال ، وذلك بأن يجعلها عنواناً على الإرادة التي يملكها في سائر تصرفاته وشؤونه الاختيارية ، ثم يطوع إرادته لأحكام تلك الضرورات ومقتضياتها ، دون أن يبالي بموافقتها أو مخالفتها لأهواء نفسه ومتطلباتها . وإنا لنعلم أن أكثر إراداتنا التي نخضع قراراتنا السلوكية لها ، من هذا القبيل . فالمفلس يريد بيع داره ويتخذ قراره الطوعي بذلك ، دون أن تكون لديه رغبة نفسية في هذا البيع ، والمريض يمتنع عن تناول كثير من الأطعمة الشهية بملء إرادته وكامل عزمه ، دون أن يكون ذلك تعبيراً عما تتطلبه وتشتهيه نفسه . والرجل يودع ابنه الشاب إذ يرسله مختاراً إلى الجهاد رداً لعدوان أو حماية لثغر ، ونفسه لذلك كارهة وبابنه متعلقة .

كل ذلك وغيره يتم ، ضمن دائرة الحرية وتحت عنوانها ، لأننا نقصد بالحرية في هذه الحال أن يكون كل من الإرادة والاختيار الإنساني هو القائد إلى السلوك والحامل عليه ، دون أن يشوبه قسر خارجي . وإذ قد توافر عنصر الإرادة والاختيار فقد تحققت الحرية وانتفى القسر والإكراه .

☆ ☆ ☆

ترى ما الفرق بين ضرورات الطبيعة مما ضربنا بعض الأمثلة لها ، وضرورات العبودية القسرية التي طبعت بها كينونة الإنسان لله عز وجل ؟

ما قيمة أن أدعي لنفسي الحرية ، فأتمرد ـ انطلاقاً من هذه الدعوى ـ على التعاليم الإلهية وأتجاوز حدود المنهج الديني ، بعد أن تكامل لدي اليقين العقلي بأن الذي ألزمني بهذه التعاليم وحدد لي هذا المنهج ، هو ذاك الذي فطرني من العدم ، فأنا مملوك له على كل حال ، ناصيتي بيده ، ومرجعي بعد الموت إليه ، وسيحاسبني على كل ما جنيته من خير وشر ؟

لا قيمة لهذه الدعوى إطلاقاً ، لأنها ستصطدم بما يكذبها ، فلسوف أفاجأ بالحقيقة الكبرى التي يدين لها حتى الوجوديون أنفسهم إذ يعبرون عنها بقولهم : إن الإنسان لا يستطيع تجاوز ذاتية الإنسانية بحال من الأحوال .

غير أن عشاق الحرية يؤثرون ، مع ذلك ، أن يتجاهلوا هذه الحقيقة وأن ينقادوا وراء عبث الحرية وجدّها في كل ما تصبو إليه عرضاً وطولاً ! .. حتى إذا اصطدموا بجدار هذه الحقيقة وقفوا عندئذ مستسلمين لنشوة ما يسمونه بالقلق .. واليأس .. والسقوط .. ! .. فاعجب لمن ينقاد وراء حرية لا تسلم أصحابها أخيراً إلا لأغلال القلق والسقوط ، ثم لا تزجه إلا حيث تطبق عليه قبضة اليأس الخانق ! ..

أما نحن العقلاء الذين نبحث عن مفتاح باب الحرية فيما يمليه المنطق العقلي

الصافي ، فإنا لنعلم أن حرية تلف صاحبها بأكفان القلق واليأس والسقوط ، هي أحط أنواع الذل والاستعباد . وأن خيراً من هذه الحرية الكاذبة أن أبدأ فأفهم الواقع الكوني على حقيقته ، ثم أروض إرادتي على الانسجام مع هذا الواقع الذي لا مفر منه ، ثم أسعى في فجاج الحياة وأنا أغذي حريتي بسلطان هذه الإرادة ، دون أن أخشى السقوط أو الوقوع في براثن القلق أو اليأس .

وهل الواقع الكوني الذي يفرض نفسه على الإنسان . إلا قمة التعبير العلمي والمنطقي عن وجود الله وامتلاكه لناصية الإنسان ، وعن عبودية هذا الإنسان لله عز وجل ؟

إذن ، فلنروض حريتنا الإنسانية على أن تختار لنا سلوكاً ينسجم مع واقعنا وحدود ذاتيتنا ، ألا وهو : أن نكون عبيداً لله بالسلوك والاختيار ، كما قد خلقنا عبيداً له بالقهر والاضطرار .

بل إن حواء مخلوقة من ضلع آدم

قرأت للدكتور عبد المحسن صالح مقالاً ، في العدد ٢٤٥ من مجلة العربي ، عنوانه : الشريط الوراثي سيد جزيئات هذا الكون .

فأما المضمون العلمي له ، (وهو جوهر المقال ومبناه) فليست لي من وقفة عنده ، اللهم إلا أن تكون وقفة استفادة وإعجاب . ولقد كنت ، ولا أزال ، أتتبّع المزيد من المعلومات المثيرة حقاً عن الصبغيات ، أو هذا الذي يسمونه بالكروموزومات ، تلك المعلومات التي لن تبلغ ، مهما اتسعت وتكاملت ، إلا مايشبه غرفة ماء في أوقيانوس متلاطم !.. ولكنها على قلتها هامة وخطيرة .. وإني لأعدّها من أبرز المعالم الهادية إلى الفساد الكبير المتغلغل في أعماق الفلسفة المادية الجدلية وكثير من مقولاتها . وقد أوضحت ذلك في بعض ما كتبته أخيراً ، ولا أجد ثمة ما يدعو إلى التنويه به في هذا المقام .

غير أن الدكتور عبد المحسن مرّ ـ وهو يتجاوز مقدمة مقاله ـ بعبارات أطلقها ، دون أن يعيرها اهتماماً ، حتى لقد كدت (متأثراً بعفويته هذه) أتجاوزها أنا الآخر دون أي انتباه إلى ما يكمن في تضاعيفها ، لولا أني صحوت منها إلى صدام عنيف ظهر لي بينها وبين اليقين الإسلامي الذي لا اختيار لنا في تجاوزه ، مادمنا مسلمين حقاً .

تلك العبارات ، هي قوله : « .. فمن قائل إن حواء قد جاءت من ضلع آدم ، ومن قائل إن الخالق أمسك بقطعة من أديم الأرض ، وسواها على هيئة

الإنسان ، ثم نفخ فيه من روحه فقام لتوّه إنساناً يسعى بكل أجهزته وخلاياه وشرايينه وأعضائه . إلخ .. » .

ومن حسن حظي في هذا الحوار ، أنني أقف مع الأستاذ الكاتب على قاعدة متينة من الإيمان بالله عزوجل ، وهو ماقد أمتعني بل أطربني من مقاله العلمي الإيماني الهادي . فلولا هذه القاعدة الجامعة ، لما اندفعت إلى كتابة هذا التعقيب أو الحوار ، ولرأيتني أسعى ، في ذلك ، إلى شيء لا طائل منه .

أما وأن كلاً منا يقف مع الآخر عند هذه القاعدة الصلبة الجامعة ، فإنّ بوسعي أن أتخذ منها منطلقاً إلى كلمات أقولها لأخي الدكتور عبد المحسن ، لا أقيمها على شيء من العاطفة أو الإشراق أو أيّ من المشاعر النفسانية ، مهما جاءت مكسوة بكسوة الدين ، معتمدة على قدسيته وهيمنته . ولكني أقيمها على قواعد العلم ومستلزماته . ومَنْ غير الذين يكتبون في القضايا العلمية ، والذين يستمتعون بالإفادة منها والإصغاء إليها ، أجدر بأن يحتكموا إلى قواعد العلم والمنطلق السليم ، كلما غمّ عليهم أمر ، أو كلما اختلفوا في رأي ؟!..

☆ ☆ ☆

إن الذي قرر بأن حواء خلقت من بعض أجزاء آدم ، هو الله عز وجل !.. قال ذلك في أول آية من سورة النساء ، وهي قوله عزوجل :

﴿ يا أيُّها النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمْ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها .. ﴾ [النساء ١] .

صحيح أن الآية لم تنص على أنها قد خلقت من ضلعه ، ولكن الأمر في ذلك سواء . إذ لا أظن أن لنوع الجزء أي مدخل أو أثر في الاستنكار . على أن النبي ﷺ قد عين هذا الجزء بصريح النص ، وبما لا يدع مجالاً لتأويل ، في حديث ،

بل في أحاديث ثابتة كثيرة ، منها قوله ﷺ فيما اتفق عليه الشيخان « .. فإنّ المرأة خلقت من ضلع » .

وإن الذي قرر هذا الذي تستنكره ، من الكيفية التي تم بها خلق آدم عليه السلام ، إنما هو الخالق ذاته أيضاً . نص على ذلك بعبارات صريحة واضحة في آيات متفرقات كثيرة في القرآن . منها قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ صلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنونٍ ﴾[1] [الحجر ٢٦] .

﴿ وَإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنونٍ ، فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِنْ روحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ ﴾ [الحجر ٢٨ ، ٢٩] .

﴿ خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّار ، وَخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ ﴾ [الرحمن ١٤ ، ١٥] .

﴿ إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طينٍ ، فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ ﴾ [ص ٧١ ، ٧٢] .

وإنك لترى أن هذه الألفاظ ليست إشارات .. بل هي نصوص صريحة قاطعة تتضمن الإخبار بوقوع ما استنكرته . ولا تدع مجالاً لإدخال أي تأويل عليها ، إن أردنا ألا نخرج على قواعد اللغة العربية التي تنزل القرآن منضبطاً بها كأي نص عربي آخر . وإلا فما أيسر أن نتصور في كل آية تعبيراً عن كل ما نريد أو ما لا نريد .

ولكن ما هو محط إنكارك لما تضمنته هذه النصوص يا ترى ؟

إن كان محط الإنكار ، ما قد يُتصور من طفرة أو من سرعة الانتقال من

---

(١) الصلصال هو الطين المشوي أو اليابس ، والحمأ الطين الأسود المتغير . والمسنون المصور صورة إنسان أجوف . المارج : اللهب المتناهي في صفائه عن الدخان .

الهيكل الترابي أو الطيني لآدم عليه السلام ، إلى بشر سوي ينطق ويعقل ، فإن الأمر في ذلك محتمل .. والنصوص القرآنية ساكتة عن أمد الفجوات الزمنية بين كل مرحلة وأخرى في خلق آدم عليه السلام ، إذن فالخطب في ذلك يسير .

أما إن كان محل الإنكار جوهر هذا التكوين بالشكل الذي يخبر به القرآن (وهذا هو الغالب ، إذ هو المفهوم من كلامك : فالخلق العظيم لابدّ له من فكرة عظيمة يقوم عليها ويتأسس ، ثم يشق طريقه بعد ذلك في مكروب ودودة وحشرة ونبات وحيوان وإنسان . إلخ ...) أقول : أما إن كان هذا هو محل الإنكار ، فالموقف عويص إذن ، والخطب ياسيدي ليس بالسهل .

وأبدأ قبل كل شيء ، فأذكرك بالقاعدة العربية التي لامناص من اتباعها ، بصدد تفسير النصوص القرآنية والنصوص العربية الأخرى أياً كانت . وخلاصة هذه القاعدة أن الأصل في الكلام إذا أطلق أن يحمل على معناه الحقيقي ، فلا يجوز صرفه إلى المجاز إلا بعد تعذر الحقيقة . ثم إن المجاز أيضاً لا يعتدّ به ولا يسمى مجازاً إلا إذا كانت بينه وبين المعنى الحقيقي جسور واصلة طبق ضوابط وقواعد معروفة . فلاجرم أن لتفسير النصوص قواعد عربية لا يجوز الإخلال بها في حال من الأحوال . وهي تعدّ من الأوليات التي استخرجت مع نحو هذه اللغة وصرفها ، ولا يتدانى إليها أيّ ريب أو خلاف بين العلماء .

فهل ترى ـ والحالة هذه ـ من سبيل إلى تذويب الكلمات والنصوص القرآنية التي لامفرّ منها ، للوصول من وراء ذلك إلى إنكار وجود أب لهذه الخليقة اسمه آدم ، وللوصول إلى إنكار الكيفية التي صور بها القرآن النشأة الأولى للإنسان ، كل ذلك من أجل أن تنفرج أمامنا الساحة لما نحب أن نتخيله ، من أن القصة بدأت بسلّم من التطورات ، مخرت إلى صدر التاريخ الإنساني عباباً من الدهور والأزمنة المتراكمة ؟!..

هل ترى يا أخي من سبيل مقبولة ، في ظل القواعد العربية ، إلى هذا الصنيع ، مع العلم بأنك إن فعلت ذلك ، لن تُبقي على حقيقة في التعبير القرآني عن هذه القصة ، ولا على مجاز ؟!..

وكأنك قد علمت هذا الذي أقوله ، ويعرفه جميع علماء العربية وقواعد تفسير النصوص ، فالتزمت بأن القرآن لم يضبط نفسه بشيء من هذه القواعد ، واعتذرت له عن ذلك بأنه لم يشأ أن يحمّل العقول ما هو فوق طاقتها !.. وأنا أقول لك : أفلو ذكر القرآن للعرب آنذاك ، هذا الذي تقوله أنت اليوم ، من أن هذه الخليقة انطلقت من مكروب ، فدودة ، فحشرة ، فنبات ، فحيوان ، فإنسان .. أفكانت عقول الناس أكثر استغراباً له وإعراضاً عنه مما استغربت قوله لهم : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ الله كَمَثَل آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ ﴾ [آل عمران ٥٩] ؟! ومتى كانت عقول الناس تنفر عن قبول فكرة التدرج البطيء في التطور والخلق ، وتسرع إلى قبول الطفرة المتمثلة في شعار ﴿ كُنْ فَيَكوُن ﴾ ؟!..

وهل واجه الناس إلى الآن شيئاً أغرب في ميزان العقل ، وأبعد عن التصور والخيال ، من القول بالنشأة الثانية للإنسان بعد الموت ؟ .. فما للقرآن ، إذن ، قد ملأ سوره وصفحاته بالإخبار عن هذه النشأة والتأكيد عليها ، ما دام أنه لا يريد أن يواجه العقول بما هو فوق مألوفاتها ؟

لا أعتقد يا سيدي أن القرآن قد ألزم نفسه بهذا الذي تقول .. كل ما أعلمه أن هذا القرآن كتاب تربية لكل من العقل والسلوك ، وما أكثر ما تستدعي أصول التربية تصعيد الإنسان من مستوى المعروف والمألوف إلى سدة المجهول وغير المألوف .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فإني أعد كل هذا الذي قلته إلى الآن ، مقدمة بين يدي الغاية التي أريد أن أنتهي إليها .. ذلك لأنني لم أدعم حديثي الذي قلته إلى الآن إلا بنصوص .. ثم لم أدعم النصوص إلا بقواعد التفسير والاستنباط . وليس هذا وحده محور تعقيبي على العبارات التي وردت في مقال الدكتور عبد المحسن صالح .

إنّ دعامتنا الأولى والأخيرة ، في اليقين بمقتضى أي نص ، وفي التمسك بأي معتقد أو دين ، إنما هي الحقيقة العلمية الراسخة الصافية عن شوائب الفرضيات والنظريات وما دار ويدور في مستواهما .

لذا فإني أبدأ فأسأل الأخ الدكتور عبد المحسن ، وكل عالم مختص في علوم الأحياء وما يتعلق بها من كيميائيات :

هل يوجد أي تلازم علمي بين المعلومات الشائقة التي قرأناها عن الصبغيات وبعض من أسرارها ، في مقال الدكتور عبد المحسن صالح ، وبين نقيض ما أخبرنا به الله تعالى في قرآنه ، من حديث النشأة الأولى للإنسان ، من خلال الآيات التي استعرضنا آنفاً طائفة منها ؟ ..

وهل يتنافى شيء من تلك المعلومات الهامة حقاً مع قرار الله تعالى في القرآن بأن الله تعالى قد خلق حواء من جزء مما قد خلق منه آدم ، أياً كان هذا الجزء ضلعاً أو غيره ؟ ..

وإنني لأقول : إذا ثبت بالبرهان العلمي أن شيئاً من هذه المعلومات تتنافى مع قرار القرآن بأن الناس انحدروا من أب أعلى لهم اسمه آدم ، وبأن الله شكّله بادىء ذي بدء من طين مشوي ، ثم نفخ فيه من روحه (والله أعلم بكيفية كل ذلك ودقائق تفصيله) ـ : فإنني على استعداد للتخلي عن هذه النصوص . ولسوف أنفض منها كلاً من يدي وعقلي ، دون أن أخادع نفسي بمجاملتها عن طريق التغيير والتأويل .

فأنا لم أستيقن شيئاً مما انطوى عليه صريح كتاب الله تعالى وسنة رسوله الصحيحة الثابتة ، إلا بعد أن استوثقت من بصمات الحقائق العلمية الثابتة على كل ذلك[1] وإنني لعلى يقين بأن كل ما قد يتصف به الدين من القدسية والسمو ، إنما ينبثق من البراهين العلمية التي ينهض عليها . فإذا انكشف الواقع اليقيني عن خلاف ذلك ، فإن كل ما يقال عندئذ عن سموه وقدسيته ، لا يعدو أن يكون زيفاً وتمويهاً .

وإلى أن يتفضل أي باحث علمي مختصّ ، بالحجج العلمية الموضوعية على وجود شيء من التلازم الذي طرحت السؤال عنه ، لا أرى مناصاً من عرض يقيني العلمي الثابت في هذا البحث من خلال إيضاح النقاط التالية :

أولاً ـ وبقطع النظر عن وجود الخالق والإيمان به ، نقول : إن الوصول إلى معلوم يقينيّ عن الكيفية التي نشأ أو وجد بها شيء ما ، يأتي قمة المعلومات التامة المتعلقة بجوهره ودخائله ..فمن فاتته المعرفة التامة بجوهر الشيء وكوامنه ، فأحرى أن تفوته المعرفة الصحيحة بكيفية انبثاق ذلك الشيء من العدم إلى الوجود ، ذلك لأن العلم بكيفية نشوء الشيء يتوقف على معرفة (جوهره) ، بينما قد لا تصل المعرفة به ، كما هو في واقعه الحالي ، إلى أكثر من الاطلاع عن ظاهراته ، أو حتى بعض ظاهراته فقط .

وإننا جميعاً لنعلم بأن كل الذي تنبه إليه العلماء من دخائل الخلية الحيوانية ونواتها ، لم يزد على أن دلهم على مبلغ جهلهم بالحقائق والأسرار العظيمة الكامنة في أعماقها . وهذا ما قرره الأستاذ الكاتب نفسه في المقال الذي نتحدث عنه . فكيف يتأتى لنا ـ مع هذا الجهل ـ أن ندلي بأي قرار غيبي عن كيفية نشأة هذه

---

(١) أرجو التنبه هنا إلى مدى الخلط الذي ينجرف فيه كثير من الباحثين ، بصدد الفرق بين ما يسمى حقيقة علمية ، وفرضيات ونظريات تطوف حول التطلعات العلمية المختلفة .

الجزيئات ، لا في ذاتها ، بل ضمن نشأة جنسها الحيواني الشامل البعيد ؟ ! ..

نعم ، أنا لا أنكر أن الإنسان طموح بطبعه إلى معرفة وقائع الماضي ، كما هو طموح إلى التنبؤات بأحداث المستقبل . ولكن كما أن تنبؤاتنا عن الأحداث المقبلة لا تسمى بوجه من الوجوه علماً ، كذلك تخيلاتنا لتطورات الماضي وكيفياتها لا تسمى علماً ، اللهم إلا بعد أن تلقى هذه الأخيلة أو التنبؤات دعماً من البراهين والبينات العلمية الصحيحة ، فلا جرم أنها تصبح بذلك حقائق ثابتة .

ثانياً ـ ما هي العلاقة العلمية الماثلة بين الحصيلة العلمية التي وصل إليها العلماء عن الخلية الحيوانية وما تنطوي عليه ، وما يمكن أن نفترضه علمياً عن كيفية نشأة جنس الحياة على الأرض وتطورها من حال إلى حال ، حتى استقرت عند بدء الوجود التاريخي للفصائل الحيوانية التي نراها من حولنا اليوم ؟ .

أعتقد أن من العسير جداً العثور على هذه العلاقة أو الجسور الواصلة ..

فحتى عندما يتاح للباحث أن يصل إلى معرفة تامة بكنه الشيء وجوهره ، لا يتمكن أن يبني على هذه المعرفة وحدها قراراً علمياً صحيحاً عن الكيفية التي انبثق بها الوجود الأصلي لذلك الشيء . بل لا بد أن يضيف إلى معرفته تلك سلسلة من المعلومات اليقينية الأخرى (يطول الحديث عن طبيعتها ومتعلقاتها) حتى يتمكن من الوصول إلى مثل هذا القرار .

ثالثاً ـ لعلنا كثيراً ما نقع في تلك الخطيئة الكبرى التي يسميها العلماء : قياس الغائب على الشاهد . عندما نحاول أن نغوص بأفكارنا وتخيلاتنا في ظلمات الماضي البعيد ، لنعود منها ببوارق الحقائق العلمية ، الضاربة جذورها في أصل التكوين ، ونشأة الحياة ونحو ذلك .. فنحن في حياتنا الراهنة متأثرون بما نراه حولنا من عادة كونية قلما تشذّ ، ألا وهي عادة التدرج في كل شيء ... التدرج في السير نحو القوة وتكامل الوجود ، والتدرج في السير نحو الضعف والزوال ،

والتدرج في تحول الطاقات وتبدد العناصر ، والتدرج في سير الزمن وتبدل معالمه . إلخ .. ونظراً إلى أن هذه العادة استقرت في أخيلتنا ، لكثرة ما يتكرر واقعها على نفوسنا منعكساً عن كل ما حولنا ، فقد اصطبغت أعيننا وأفكارنا منها بنظّارات ، جعلتنا لا نستطيع التأمل في أي أمر غائب عنا إلا وهو موضوع تحت هذا المنظار .

وتحت هذا المنظار يبدو كل شيء محكوماً بسلطان التدرج البطيء ، مهما كان غائصاً في لجة الماضي أو غائباً وراء حجب المستقبل . مع أنه سلطان وهمي لا يستند إلى أي برهان علمي متحرر من تأثرات النفس ووقوعها تحت سلطان العادة والإلف . والإنسان ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ شديد التأثر بما يفعله الوهم في كيانه ، حتى أن كثيراً من أفكاره وتصرفاته لا تنهض إلا على منطلقات من ردود الفعل الشرطية ، أو ما يسميه الغزالي : سبق التصور إلى العكس ، وهو يحسبها أحكاماً علمية نزيهة .

رابعاً ـ بالإضافة إلى هذه النقاط الثلاث التي عرضناها ، بعيداً عن النظر إلى وجود الخالق والإيمان به ، نقول : فأما إذا انطلقنا بعد ذلك من اليقين بأن الله خالق كل شيء وأنه قادر على كل شيء (وهو يقيننا العلمي الثابت ، وهو القاسم المشترك الذي يجمعنا مع الدكتور عبد المحسن صالح على صعيد واحد) . فأي مسوغ علمي يبقى لاتخاذ قرار يقضي بحتمية أن تكون نشأة الحياة أو الكون على شكل وبأسلوب معين ؟ .. إن تصور أي قيد من شأنه أن يحتم وجود الشيء بطريقة ما ، فرع عن تصور عدم قدرة الخالق على كل شيء ، أو هو فرع عن تصور أن هذه القيود المحتمة أقوى فاعلية من إرادة الله عز وجل . وكل ذلك يتناقض مع اليقين بوجود الله سبحانه وتعالى ، وقدرته المطلقة على كل شيء .

نعم ، لنا أن نجتهد في تصور أسلوب ما من أساليب الخلق الإلهي للكون ، أو لبعض مخلوقاته ، ويبقى الاجتهاد عندئذ ضمن دائرة الاحتمال العقلي

لا يتجاوزها ، ولكن هذا الاجتهاد على كل حال مشروط بعدم وجود إخبار صريح متعلق ببيان الأمر . وهذا معنى قولهم : لا اجتهاد في معرض النص .

☆ ☆ ☆

أما إن كلاً من الخلق العظيم والفكرة العظيمة إنما يتحقق ضمن سلطان الإرادة الإلهية المطلقة ، التي لا يوجد لنا أي دخل في اصطفاء متعلقاتها . وإنما لنا دور ، شاء الله أن يشرفنا به ، هو دور الإفادة واستخراج المعارف منها لحياتنا . فلنتلقّ نصوص القرآن الصريحة كما وردت ، لا نقتحم إليها بأي تأويل ، ولنقف منها وقفة تسليم وخشوع ، كما نقف الوقفة ذاتها أمام غوامض الأسرار العظيمة التي تكتنف الشريط الوراثي الذي حدثتنا عنه . ولنردد معاً بخشوع العبد الضارع لمولاه قوله عز وجل :

﴿ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِينَ عَضُداً[1]﴾ [الكهف ٥١]

---

(١) يتصل بهذا البحث مسألة التطور ، ونظرية النشوء والارتقاء . وهذه المسألة وإن كان مجال البحث فيها ، في هذا الفصل ، إذ هي من مشكلات المذاهب الفكرية الحديثة ، إلاّ أنني عالجتها في الفصل الثاني (مشكلات فهم القرآن وتفسيره) نظراً لعلاقتها بتفسيرات عابثة بكتاب الله عز وجل .

الشهب
والتفسير القرآني لانقضاضها [☆]

وكتب الدكتور عبد المحسن صالح مقالاً آخر عن الشهب والنيازك في العدد ٢٨١ من مجلة العربي ، افتتحه بقصة طريفة تدور حول أن عوام الناس وجهالهم يعتقدون أن الشهب التي تنقضّ نحو الأرض إنما ترصد الشياطين الذين يتجهون إلى السماء لاستراق السمع والاطلاع على الأنباء . ثم علق الكاتب على ذلك بأن هذا التصور إنما هو من بقايا الأوهام والخرافات المتوارثة لدى الجهال .

أقول : أغلب الظن أن الدكتور عبد المحسن لا يعلم أن القرآن قرر في عبارة جازمة لا تقبل الريب أن الله تعالى يرسل الشهب على الشياطين صداً لها عن استراق السمع ومنعاً لها عن تجاوز حدود معينة في اتجاه السماء ، ثم إن القرآن أكد هذا البيان أربع مرات .

قال مرة : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابيحَ وَجَعَلْناها رُجوماً لِلشَّياطينِ ﴾ [الملك ٥] .

وقال مرة أخرى على لسان الجن ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً ﴾ [الجن ٩] .

وقال مرة ثالثة ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزينَةٍ الْكَواكِبَ ، وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ

(☆) أرسل هذا المقال إلى مجلة العربي تعقيباً على ما كتبه الدكتور عبد المحسن صالح عن الشهب . ولكن المجلة رفضت نشره ، وصوبت رأي الدكتور عبد المحسن صالح في الموضوع .

شَيْطانٍ مارِدٍ ، لا يسَّمَّعونَ إلى الْمَلأ الأَعْلى وَيُقْذَفونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ ، إلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ ﴾ [الصافات ٦ ـ ١٠] .

وقال في المرة الرابعة ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنا في السّماء بُروجاً وَزَيَّنّاها لِلنّاظِرينَ ، وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجيمٍ ، إلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبينٌ ﴾ [الحجر ١٦ ـ ١٨] .

فلو أن الأستاذ الكاتب اطلع على هذه البيانات الصريحة في القرآن ، إذن لما وصف القول بمضمونها بأنه وهم وخرافة وجهل .. ذلك لأن المتدبر لكتابات الدكتور عبد المحسن المختلفة ، لا يشك بأنه موقن بوجود الله عزوجل ، مصدق برسله وأنبيائه ، موقن بأن القرآن ليس كلام بشر ، وإنما هو كلام رب العالمين .. ولكن كيف ينعت ماتقرره آيات بينات من هذا القرآن بأنه خرافة من القول وبقايا من الجهالة البائدة ؟.. الجواب الوحيد الذي لابديل عنه ، هو أن الأستاذ الكاتب لاعلم له بهذه الآيات ولم يطلع عليها .. ثم إنه سمع مضمونها يتكرر على ألسنة الناس ، وربما لم يسمعه (لسوء الحظ) إلا من أفواه أولئك السذج الذين لا يتمتعون بعلم ولاثقافة .. فاستعجل وقال : إن هي إلا واحدة من الخرافات والأوهام المتوارثة عن السماوات ومافيها وما ينزل منها !

على أننا لانزعم أن المشكلة تنتهي عند التأكد من أن القرآن قرر ذلك .. بل ربما كان هذا فاتحة مشكلة تحتاج منا إلى التأمل والحل .. فنحن لانشك في أن الحقائق العلمية هي التي يجب أن تحتل يقيننا العقلي وطمأنينتنا النفسية ، أيّاً كانت النتيجة التي ستسوقنا هذه الحقائق إليها .

لذا فإننا نتساءل : هل يلقى هذا القرار القرآني المؤكد عن الشهب ، أي معارضة للحقائق العلمية الثابتة ؟.. إنني أجزم سلفاً بأن هذه المعارضة إذا ثبتت

بيقين ، فلامناص أمامنا من اختيار الحقيقة العلمية ونبذ كل ما يعارضها .. كيف لا وإن إيماننا بالقرآن ذاته لا يجوز أن ينهض إلا على البراهين العلمية القاطعة ، بل كيف لا وإن القرآن ذاته يهيب بنا أن لا نعتقد إلا ما صدقت عليه الحقيقة العلمية الثابتة ، أليس هو القائل : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء ٣٦] .

أعود فأتساءل : هل يتعارض ماقرره القرآن عن الشهب ، مع ماتقرره الحقائق العلمية الثابتة عنها ؟

كل ماأعلمه إلى هذه اللحظة أنه ليس ثمة أي تعارض بينهما . وإني لأرجو أن يصحح لي الدكتور عبد المحسن أخطائي إن كنت متلبساً بشيء منها .

كل ما يقرره العلم عن هذه الشهب أنها أجسام ملتهبة تخر بسرعة نحو الأرض ، حتى إذا لامست طرف الغلاف الجوي لها ، تفتتت وآلت إلى ما يشبه الرماد ، ثم تناثرت هباءً في الجوّ .. هذا ماتلقيناه في المدارس .. ثم قرأناه مفصلاً في الكتب ، ثم ازددنا يقيناً به من خلال ما كتبه لنا الدكتور عبد المحسن صالح .

هذا اليقين العلمي شيء ، والعلة الغائيّة التي تبعث هذه الشهب على الانقضاض شيء آخر .. وعلى حد علمي ، فإن أي يقين علمي لم يستطع أن يكتشف بعد ، العلة الغائية الباعثة على سقوط هذه الشهب من مراكزها الثابتة فيها أو انفصالها عن أجسامها الكبرى المتصلة بها .. قد يكون هناك كثير من الظنون والرجم بالغيب ، ولكن ليس ثمة أي يقين علمي يكشف هذه الخافية إلى يومنا هذا .

إذن ، فما الذي يمنع من أن تكون الحقيقة كما يشرحها لنا القرآن .. أي إن الله يرسلها مجهزة بأسباب الإهلاك أو الإيلام ، إلى مردة الجان وشياطينهم ، وهم يمتطون الطبقات العليا من الجو ، سعياً إلى استراق السمع والاطلاع على الأنباء

الغيبية الخـافيـة ، فتصـدهم عن الوصول إلى مـا يبتغون ، وتمنعهم من اجتيـاز حـدود معينـة ليس لهم أن يتجـاوزوهـا .. حتى إذا أنجزت هـذه الشهب مهمتهـا وكادت أن تصل إلى الأرض حاملة معها الهلاك والدمار ، جعل الله من نظام هذا الغلاف الجوي وخصائصه ما يقي الأرض من سوء عاقبتها ، فانطفأت وتناثرت هباء في الجو ؟.

أقول : أي تعارض تجـد بين الحقيقـة العلميـة التي لا ننكرهـا ، والقرار الـذي لا مجال لتجاهله أو تأويله ؟.. إنني أرى بينهما تعايشاً تاماً وتساوقاً منطقيـاً سليـاً بين النتائج والمقدمات ؟

ولا تسـألني عن الجن .. وكيف يسترقـون السمـع .. ومـا الـذي يسترقـونـه .. وهـل استنفـدت الـوسـائـل الربـانيـة ، فلم يبـق إلا الرجم بـالشهب وسيلـة لصـد الشياطين عن بلوغ منافذ السماء ؟

فإن هذه الأسئلة لا تزيد على أنها تعبير دقيق عن جهلنا واستغرابنـا للأمر .. ولكن لا يمكن أن يكـون شيء منهـا دليـل معـارضـة أو نقض .. إن من اليسير أن أقول لك في الجواب على هـذه الأسئلـة : لا أدري . ولكن جوابي هـذا لا ينهض أن يكون نقضاً علمياً لمثل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابيحَ وَجَعَلْنـاهـا رُجوماً لِلشَّيـاطينِ ﴾ [الملـك ٥] فلو أن الله تعـالى شـاء ، لكشف لنـا الإجـابـة بتفصيل عن هـذه الأسئلـة وأمثـالهـا ، وإذن لانتهى الجهل والاستغراب ، ولعـاد الأمر متفقاً كل الاتفاق مع ماقرره لنا عن الشهب والباعث على انقضاضها .

وبهذا المنطق العلمي ذاته نرد على من ينكر وجود الجن مستدلاً بأنـه لا يراهم ولا يحس بهم !.. ذلك لأن دليله هـذا لا يبلغ أن يزيـد على كونـه جهلاً ، والجهل بالشيء لا يمكن أن يكون دليلاً علمياً عليه أو على شيء من ظواهره ومتعلقاته .

☆ ☆ ☆

شيء أخير أقوله للدكتور عبد المحسن صالح ، هو أن خير تفسير علمي مقبول لطير الأبابيل والحجارة التي كانت تقذف بها ، على حد ما وصف القرآن وبين ، هو أن لانتأول ولا نخرج بالتعبير القرآني عن نطاق دلالته العربية الظاهرة السليمة . لأن أي تأول يعتمد على الخيال العلمي قد يكون صحيحاً وقد لا يكون .. إذن فلنحتط ، ولندع الجزم في أمر لا نملك فيه شيئاً من أدلة الجزم ومستنداته . ولنكن على يقين بأن طيور الأبابيل كانت حقيقة ثابتة ، والحجارة التي قذفتها كانت هي الأخرى حقيقة شاهدة لا تخضع لتأويل .

ومن أكبر البراهين على ذلك أن عدداً كبيراً من شيوخ المشركين الذين سمعوا سورة الفيل ، كانوا شهود عيان لحملة أبرهة وغزوه لمكة . فلو صح أن حديث القرآن عن الطيور والحجارة إنما هو إشارة إلى أشياء خفية أخرى مما يطيب لبعض الناس أن يؤولوا السورة بها ، إذن لأقام هؤلاء المشركون الدنيا وأقعدوها على محمد ﷺ ، ولواجهوه بالتكذيب ، ولاتهموه بالدجل والصفاقة ، ولمزقوا سمعته في الجزيرة العربية كلها ، ولانتزعوا بذلك الثقة من قلوب من كانوا يصغون إليه ويعتقدون صدقه .

إننا ياسيدي ، لا نتحفظ على العلم لمصلحة الدين ، فليس هذا شأن من شرفهم الله بالعقل ومقومات الدراية والبحث ، ولكنا نتحفظ على قراراتنا العلمية لمصلحة الدين الحق ، فإن قراراتنا هذه ، قد يدخلها الزغل ، ويشوبها اللبس ، وما أكثر ما وقع ذلك .

مسألة إخصاب الجنين في الأنبوب
مشكلاتها.. وحكمها

كنت قد قلت في مناسبات كثيرة : أن على المسلمين أن يدركوا أهمية علم الكلام في تاريخ المسلمين الغابر ويومهم الحاضر ، وأن عليهم أن يجددوه ويطوروه بدلاً من أن ينتقصوه قدره أو يظلموا أهله ، إذ هو في حقيقته ليس إلا حواراً أو نقاشاً يعتمد على أسلوب المنطق ومنهجية البحث ، في تبديد كل ما قد يثار حول أصول الإسلام من شبهات ومشكلات .

وقلت في مناسبات كثيرة ، وأقولها اليوم أيضاً : إن على علماء المسلمين أن يحملوا علم الكلام مهمتين اثنتين .

الأولى : وضع التيارات والشبهات الفكرية الجديدة في ميزان هذا العلم ، ثم نقضها على ضوئه وبأسلوبه نقضاً موضوعياً وعلمياً هادئاً . وإنما تعود فائدة هذه المهمة الأولى على أولئك الذين يطوف بأفكارهم أو يهيمن على عقولهم بعض هذه التيارات .

الثانية : استخلاص قانون يوضح للمسلمين اليوم الحدود الأخيرة التي يمكن أن تصل إليها نهضة العلوم الكونية ، في ميزان الإسلام وحكمه ، بحيث يقف الفكر الإنساني من بعدها أمام جدار صلب لا يمكن اجتيازه أو اختراقه . وإنما تعود فائدة هذه المهمة الثانية على عامة الطبقة المثقفة من المسلمين اليوم .

غير أن جمهرة من مفكري المسلمين اليوم ، لا يزالون يرفضون هذا الكلام

ويرفضون الاعتراف بأي دور إيجابي قام أو يمكن أن يقوم به علم الكلام في التاريخ الإسلامي .

وهم بصدد المهمة الأولى يرون أن ما يسمونه بالمنهج القرآني يغني عن كل شيء ويبدد كل شبهة ومشكلة !.. أما بصدد المهمة الثانية فيرون أن من السابق لأوانه شغل بال المسلمين بالدرجات المقبلة في سلم النهضة العلمية القائمة ، مقتنعين بأن لكل حادثة حديثاً ، وبأن لكل مفاجأة جزئية حلولاً جزئية تناسبها !

ولست الآن بصدد العود إلى مناقشة هؤلاء المفكرين ، ودحض تصوراتهم ، ولكني أريد أن أجعل من النبأ الذي شاع وذاع أخيراً عن قصة النطفة التي تم إخصابها في أنبوب خارج الرحم مثالاً يؤكد ضرورة ماقلته ، ويوضح مدى أهمية الرجوع إلى علم الكلام وتجديده في حياتنا العلمية والثقافية المعاصرة .

إنني أريد أن أذكر الذين يتساءلون عن موقف الإسلام من تلك القصة ، بالقاعدة العامة التي ينهض عليها الوجود الإسلامي كله ولا يلحقها أي تبديل أو تحوير مهما فوجىء الناس بعلوم واكتشافات . ولا ريب أننا إذا فهمناها فهماً سليماً ودقيقاً ، أغنتنا عن الخوض في الجزئيات ، وامتصت كل المشكلات والتساؤلات ، وسار المسلم بنبراسها في طريق واضح مبين لاتفاجئه منعطفات كشوف علمية ، ولاتزعزع من يقينه بالله عز وجل أعاجيب ماقد يصل إليه الفكر الإنساني في يوم من الأيام .

ويمكننا أن نلخص شرح هذه القاعدة بالبيان التالي :

أولاً : هل يمكن للإنسان أن يكتشف قوانين الأسباب والمسببات التي أقام الله نظام هذا الكون عليها ؟

ثانياً : هل يمكن للإنسان أن يؤتى من الطاقة العلمية مايعينه في الجمع بين هذه الأسباب ومسبباتها في ظروف ومناخات صناعية يجاري بها النظام الطبيعي

في وجوده الكلي العام ، بحيث تثمر الأسباب في ذلك المناخ الصناعي أيضاً نتائجها الطبيعية ذاتها ؟

ثالثاً : هل يمكن أن يضع الإنسان يده ـ نتيجة لذلك ـ على مقاليد الصلة الخفية بين الأسباب والمسببات الكونية ، بحيث يطمئن اطمئناناً علمياً تاماً إلى حتمية انبثاق النتائج من مقدماتها ، وإلى الجزم العلمي باستمرار الصلة القائمة بين الأسباب والمسببات ؟

ونقول في الجواب على السؤال الأول : لاريب أن من الممكن لكل إنسان أوتي نعمة العقل والتفكير أن يتنبه إلى النظام الذي يقوم عليه هذا الكون . ومانظامه إلا صلة مابين مقدماته ونتائجه وأسبابه ومسبباته . وما دعا القرآن الإنسان إلى النهوض بمهمة أقدس ولاأسمى من شرف الوقوف على هذا النظام . ومن نافلة القول وتكراره إعادة سرد الآيات والنصوص القرآنية التي تدفع أولي العقل والتفكير إلى السعي لاكتشاف هذا النظام وعلاقة مابين أجزاء المكونات وظاهراتها المختلفة . وكيف لا يهيب القرآن بالناس أن يرتفعوا إلى هذا السمو في التأمل والتفكير ، وهو السبيل الأول لليقين بوجود الخالق والإيمان بعظيم حكمته ورائع تدبيره ؟

أما الجواب على السؤال الثاني : فهو أن هذا أيضاً داخل في الممكنات التي أقدر الله الإنسان عليها ومكنه منها . ولولا ذلك لما صح أن يكون مستخلفاً على عمارة هذا الكون ، ولما صح أن الله عز وجل قد سخر له كل مافي السموات والأرض .. إذ كيف تكون أشياء الكون مسخرة للإنسان من حوله ، إذا كان لا يستطيع أن يعمد إلى نظام ما بينها من صلة وعلاقات ، ليستفيد منها حيث يريد ، وليسيرها ضمن ضوابط ترعى احتياجات الإنسان ومصالحه ؟

فليس هناك ما يمنع من أن يجمع الإنسان منثور الظواهر والأشياء إلى

بعضها ، ليستخرج منها النتائج المفيدة لعمارة هذه الأرض وإسعاد الإنسان . بل تلك هي وظيفته التي أقامه الله عليها في هذه الحياة الدنيا . على أن يجعل محور سعيه كله فيها الدخول في سلطان العبودية التامة لله عز وجل .

ولا يجوز في مقياس العلم ، فضلاً عن الدين ، أن يسمى نجاح الإنسان في شيء من هذا السعي خلقاً أو إبداعاً لمعدوم ، أو إيجاداً لسنة كانت غير موجودة . فإن الذي يستغل الظواهر الكونية ـ بالطريقة التي يشاء ـ لاستخراج نتائج معينة منها لا يوجد أي معدوم ، ولا يبدع أي قانون ، ولكنه يجمع شتات الظواهر والأسباب الموجودة إلى بعضها ، فتظهر الثمرة التي كانت كامنة فيها . وليس للعلم في ذلك إلا دور التنبيه إلى تلك الظاهرات وما قد أودع فيها من فاعلية وتأثير ، ثم التأليف بينها على نحو يتفق مع ماتقوم عليه من حكمة ونظام . وهكذا فالعلم لا يوجد مفقوداً ولكنه يؤلف بين نثار الموجودات ، على نحو تتحقق منه غايات معينة وهذا معنى قولهم : العلم يتبع المعلوم وليس العكس .

بقي أن نجيب على السؤال الثالث : هل يمكن للإنسان ، نتيجة لذلك ، أن يضع يده على مقاليد الصلة الخفية بين ظواهر الأشياء ، وبتعبير أدق : هل يستطيع أن يصل إلى قرار بحتمية الصلة القائمة بين الأسباب والمسببات ؟

والجواب : إن هذا ما لا يمكن الوصول إليه ! فما من ريب أن علوم الإنسان وطاقاته مهما سمت وتطورت لن تتجاوز ماذكرناه ، ولن تصل إلى هذا الحد .

وكل ما يمكن أن يحققه الإنسان من مبهرات الإنجازات العلمية ، لا يخرج عن كونه استغلالاً لظواهر رآها ، ثم تبين وظائفها وطاقاتها ، فاستثمر منها تلك الوظائف والطاقات . وهيهات أن يكون (العلم) في جوهره إلا المؤتمن العظيم على هذه الحقيقة ذاتها .

لقد بحث العلماء ؛ قديماً ، في العلاقات القائمة بين الأسباب والمسببات : من أين تنبع ؟ وماسرها ؟ فلم يتبينوا بعد البحث الدائب في نطاق المادة شيئاً ، ولم يضعوا أيديهم إلا على اقترانات قائمة بين ظواهر معينة .. أكد فلاسفة المسلمين هذا في تصحيحاتهم الدقيقة لبعض الفلاسفة اليونانيين ، وأكد ذلك من بعدهم الفلاسفة الوضعيون والتجريبيون من أمثال هيوم وبركلي ، ويؤكد ذلك جميع العلماء الذين جاؤوا من بعدهم إلى اليوم ، لا يستثنى منهم إلا دعاة الفلسفة المادية ، فهم وحدهم الذين يُدلون بقرار غيبي يقول بحتمية العلاقة بين الأسباب والمسببات ، دون أن يروا من دستور هذه الحتمية شيئاً سوى استمرار الاقتران ، وما كان استمرار الاقتران بحد ذاته دليلاً على حتمية ذلك في المستقبل بوجه من وجوه النظر والاعتبار . وهكذا فإن أنصار الفلسفة المادية هم وحدهم الذين يخالفون القرار العلمي المتفق عليه ، ألا وهو : العلم يتبع المعلوم ، حيث ينكسونه ليصبح : المعلوم يتبع العلم .

ثم إنك إذا تأملت في القرآن ، وجدت فيه قرار الدين المؤكد لهذه الحقيقة التي نقولها .

ففي الوقت الذي يدفع القرآن الإنسان إلى اختراق حواجز الجهل واكتشاف سنن الكون وتسخيرها لمصلحة الإنسان ، بكل السبل الممكنة ، يقرر بأن الإنسان لن يقوى على زعزعة تلك النواميس عن أمكنتها شروى نقير ، ولن يستطيع الوصول إلى معرفة شيء من الأسرار التي تقوم عليها علاقة مابين الأشياء . ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يجزم جزماً علمياً بأي نتيجة ستقع في المستقبل ، بناء على ظهور مقدماتها وأسبابها الدالة عليها .

وبهذا المعنى الدقيق كان الغيب محجوباً عن الإنسان مهما بلغ علمه ، فلا يعلمه (بالمعنى الدقيق للعلم) إلا الله عز وجل .

وتأمل في التعبير عن هذه الحقيقة ، مدى دقة الآية القرآنية التي يقول فيها الله عز وجل : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ .. ﴾ [الأنعام ٥٩] .

فأنت تلاحظ أن الآية إنما تتكلم عن مفاتح الغيب ، لا عن الغيب ذاته !.. فما الفرق بين الغيب ومفاتحه !

إن الغيب هو المطر المتوقع هطوله لظهور أسبابه ودلائله من حولنا .. أو هو الجنين الذي يتوقع أن يأتي ذكراً لظهور القرائن التي تنبه إليها الأطباء مع كثرة التجارب والملاحظات .. أو هو الكسوف المتوقع في ساعة معينة آتية . إذ تجلت أسبابه في عالم الفلك وبالوسائل العلمية المختلفة .. فهذا هو الغيب .

أما مفاتح الغيب ، فهو الدستور الخفي المنظم لصلة ما بين المطر وأسبابه ، ولصلة ما بين ذكورة الجنين وقرائنه ، ولصلة ما بين الكسوف وأماراته .. أي أنه يتمثل في إدراك السبب الخفي لسببية هذه الأشياء بعضها لبعض .

فلتلاحظ كيف أن القرآن سلب عن الإنسان الوصول إلى مفاتح الغيب . ولكنه لم يسلب عنه معرفة الغيب ذاته ، وذلك عندما أعاد الضمير في قوله ﴿ لا يعلمها ﴾ إلى المفاتح لا إلى الغيب !.. ومعرفة الغيب وحده مبتوراً عن معرفة قانونه أو سره الخفي ، لا يسمى في الحقيقة علماً ، بل هو ظن راجح قوي . إذ يمكن في كل لحظة أن تنقطع صلة ما بين السبب ومسببه*، ما دمنا لا نعلم من براهين حتمية العلاقة بينهما شيئاً .

وأعود الآن فأقول : إن على كل مثقف مسلم أن يعلم هذه الحقيقة فيما يعلمه من أصول الدين وعقائده ، بقطع النظر عن جزئيات الاكتشافات العلمية التي نفاجأ بها يوماً بعد يوم . فإنا إذا عرفنا هذه الحقيقة لن نفاجأ بشيء ، ولن نجد أنفسنا في كل مرة بحاجة إلى أن نسأل أنفسنا من جديد هذا السؤال المكرر المعاد :

هل يعقل أن يتحقق هذا على ضوء الدين واليقين بوجود الله ؟

وأنا ماأردت أن أقول هذا الذي قلته ، في شرح هذه الحقيقة ، جواباً على استفسارات الناس الكثيرة عن موقف الإسلام من قصة إخصاب النطفة الإنسانية في أنبوب جهز بالشروط والأسباب التي جعلها الله تعالى شرطاً لتلاقح البويضة وإخصابها ... ولكنني أردت أن أعود بهذه المناسبة بالأخوة المستفسرين وغيرهم إلى القاعدة العلمية أولاً والإسلامية ثانياً في هذا الصدد ، والتي من شأنها أن تجيب على قصة النطفة وغيرها ، وأن تورث المسلم ملكة ثقافية عامة تريحه من أمثال هذه المشكلات بعد اليوم .

وتطبيق هذه القاعدة على نبأ إخصاب النطفة خارج الرحم ، أنه لامانع في ميزان اليقين بوجود الله عز وجل ، أن يتبين الطبيب الأسباب والظروف التي أقامها الله سبيلاً لتخلق الإنسان وتكونه في رحم الأم .. ثم لامانع من أن يمكن الطبيب من استغلال هذه الأسباب والظروف ، ويجمع أشتاتها في أي مناخ صناعي ، وأن تتحقق النتيجة ذاتها .

ولكن العلماء جميعاً لن يستطيعوا الجزم بحتمية الصلة القائمة بين تلك الأسباب ونتائجها ، إذ إنهم لا يعلمون من أمر فاعليتها شيئاً سوى طول الصلة والاقتران بنتائجها . فماأيسر على من بيده مقاليد هذه الصلة الخفية أن يقطعها حيثما شاء . وكم من توقعات للعلماء (بناء على مالاحظوه من مقدمات وأسباب) خابت ولم تتحقق ، ولم يكن لذلك من سبب سوى مجرد تخلف النتائج عن مقدماتها .

ولعلك قد سمعت بأن بعض الأطباء في الغرب يأمل في اقتراب اليوم الذي يتمكن فيه الطب أن يعلم - منذ الأيام الأولى لظهور الحمل - نوع الجنين : أذكر هو أم أنثى !.. وإننا نقول ، بناء على القاعدة التي أوضحناها : أن هذا ممكن ، وإنما سبيله تتبع القرائن والأسباب التي جعلها الله شرطاً لذكورة الجنين

ولأنوثته ، وهي قرائن وأسباب لم يستأثر الله بعلمها ، بل ندب الناس إلى التنبه إليها .

ولكن هل ترقى معرفة ذلك إلى اليقين الجازم بأن الجنين سيكون ذكراً ؟ أو إلى القدرة على التحكم بنوع الجنين ؟

لا .. لا يمكن أن ترقى هذه المعرفة إلى اليقين الحتمي ، ولا إلى أي تحكم بالنوع . لأن الإله الذي أقام ذكورة الجنين على الأسباب التي شاءها ، قادر على أن يبطل سببيتها في الوقت الذي يشاء . لا جرم أن الأمر يقف إذن عند حدود الظن الراجح وحده .

بقي جانب آخر في الموضوع ، هو جانب الحكم التكليفي الشرعي .

فهذا الجانب ناظر إلى كل جزئية على حدة ، لاختلاف الأحكام باختلاف النتائج والمصالح .

وحكم إخصاب النطفة خارج الرحم ، مداره في الإباحة والحرمة على أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن يتأكد العلماء والأطباء تأكداً تاماً ، من أن هذه الطريقة لن تعقب أي ضرر جسمي أو نفسي أو عقلي في الجنين بعد ولادته . فأما إذا لم يتوافر هذا اليقين ، فإن الإقدام على ذلك محرم بالاتفاق ، عملاً بالقاعدة الشرعية الكلية : « لا ضرر ولا ضرار » .

الأمر الثاني : ألا يستتبع الإقدام على هذا العمل اختلاط في الأنساب . فإذا كانت النطفة التي يراد إخصابها بهذه الطريقة ، هي نطفة كل من الزوج والزوجة ، وتمت إعادتها بعد ذلك إلى رحم الزوجة دون غيرها ، فذلك جائز (بعد ملاحظة توافر الشرط الأول) وأما إذا كان الأمر غير منضبط بذلك ، فهو غير جائز في نطاق الأحكام الشرعية قولاً واحداً .

وإنني أقول ـ على ضوء هذا الكلام ـ من الناحية التطبيقية :

إن عملية إخصاب النطفة خارج الرحم ، لاتزال في طور التجربة . ذلك لأن أحداً من العلماء لم يتبين بعد انعكاسات هذه العملية على الجنين بعد ولادته . ومدى الضرر الذي يمكن أن يلحقه بسببها . وهذا وحده كاف للقول بحرمة هذا العمل من الناحية الشرعية . ثم إن الأمر بعد ذلك لا يخلو أن يكون ذريعة إلى اختلاط الأنساب ، فهو باب إذا انفتح لم تؤمن عواقبه . ونظراً إلى أن الذرائع في الشريعة الإسلامية ، تأخذ في غالب الأحيان أحكام نتائجها ، فإنه لا يجوز أن يفتى بجواز ذلك ـ حتى وإن أمن الضرر للمولود ـ إلا في أضيق الظروف وفي الحالات الضرورية الاستثنائية .

لغو عجيب
يرتدي كسوة الفكر الحديث

بلاء المسلمين في كثير من هذه الكتابات السطحية التي تظهر هنا وهناك ، وهي تتحدث عن الإسلام : عقائده ، وأحكامه ، أنها تعاني إلى جانب السطحية المفرطة ، من (لا منهجية) عجيبة أكاد أقول عنها : مقصودة ، بل مدبرة ! ..

ومن أبرز النقائض المضحكة ، أن أصحاب معظم هذه الكتابات ، يصطنعون العلم فيما يخوضون فيه ، ولا يدعون مصطلحاً من مصطلحات المنطق ، أو عنواناً من عناوين المعارف إلا تمسحوا به أو توكؤوا عليه . ولكنك تنظر فتجدهم غرقى في يم مطبق من النسيان لأيسر ما تقتضيه قواعد المنهج العلمي في البحث ! ..

كتب واحد من هؤلاء الناس في مجلة ذائعة معروفة[1] . كلاماً مؤداه أن كل خارقة تنسب إلى رجل من الناس ، نبياً كان أو غير نبي ، خرافة كاذبة ، لا تعبر إلا عن بقايا الوثنية الممتزجة في نفوسهم ، وأن هذه الوثنية الخفية لا يزال لها من السلطان على (البشر) ما قد جعلهم يندفعون في كثير من (الخبث والذكاء والجبن) إلى صبغ الإسلام بألوانها ، والتلاعب به حسب مقتضياتها ، فاخترعو معجزات للأنبياء . حتى يتوصلوا منها إلى ابتداع كرامات للأولياء ، وما قصدهم من ذلك إلا أن يستجيبوا لدوافع الوثنية في نفوسهم ، فيستعيضوا عن عبادة الأصنام بنظيرها الذي هو تقديس الأولياء .

---

(١) هي مجلة العربي أيضاً .

ولا يشك القارىء أن كلمات هذا الكاتب تكاد تنطق بأفصح بيان ، بأن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، إنما هي الوثنية ، وليست الإسلام كما يقول القرآن . ولذلك ضاق الناس بالإسلام ذرعاً ، ووجدوا فيه ـ على حد تعبير الكاتب ـ عقبتين تصدانهم عن إشباع دوافع الوثنية في نفوسهم ، فاحتالوا ما وسعتهم الحيلة للتغلب عليهما ، وكان أقوى سبيل لهم إلى ذلك ، ما اخترعوه من المعجزات للأنبياء . ومن الكرامات للأولياء .

أما الدليل العلمي الذي استند إليه الكاتب لإثبات هذه الدعوى العجيبة ، فهو ما قد عمد إليه ، من التقاط هذا الذي نعرفه جميعاً ، من شيوع حكايات لا أصل لها ، أو مبالغ فيها ، يتناقلها بعض العوام من الناس في كل عصر ، تتعلق بخوارق أو عجائب يعزونها إلى بعض من اشتهروا بصفة الصلاح أو الولاية ، والتقاط أخبار لم تثبت بسند صحيح ـ حتى ولا ضعيف ـ تتحدث عن خوارق ظهرت على يد سيدنا محمد ﷺ في بعض المناسبات .

فقد جمع الكاتب من هذه الملتقطات ضغثاً ، ثم عمد فشطب به على كل معجزة أيد الله بها نبياً من الأنبياء ، وعلى كل كرامة قد يجريها الله تعالى عبرة للناس على يد أي رجل من الناس .

لقد لغا بعض الناس في أمر الخوارق والمعجزات فبالغوا أو تزيدوا .. إذن فقد أصبح ذلك دليلاً على بطلان الخوارق والمعجزات من أساسها ! .. أي عالم ، بل أي مثقف ، بل أي عاقل من الناس يربط بين هذا وذاك ؟ ..

وهل هذا ، إلا كمن يرى طائفة من المدجلين يصطنعون دراية بالطب ومعالجة الأمراض ، فيستدل من ذلك على أن قوانين الطب وعلومه ليست إلا من أوهام المدجلين وخرافات المشعوذين ! .. أو كمن يسمع حكايات باطلة عن الجان

يرويها بعض النساء أو الجهال ، فيمضي وقد أيقن أن الجـان لغو من القول لا وجود لهم في الكون ! ..

☆ ☆ ☆

وبعـد ، فـإن إنكاري على هـذا الكاتب أن يتنكب عن معرفـة الحقيقـة الواضحة ، أقل بكثير من عجبي الشديـد لحـديثـه العشوائي الـذي لا يحـده سيـاق منطق ولا يضبطـه منهج بحث : يجعل من الإنـاء غطـاء للسماء ! .. ويجعـل من عمومات القضـايـا دليلاً على المـدعى الخـاص ! . ويقلب الفروع الجزئيـة أصلاً ، ليحيل الأصول الراسخة فروعاً ! ..

- مـا هي الخـارقـة ؟ .. هـل هي - في ذاتهـا - مخـالفـة المعقـول أم مخـالفـة المألوف ؟ ..

- وما هي علاقة القدرة الإلهية بهذه الخوارق ؟ ..

- وهل يتصور أن يتحقق إسلام في يقين أي إنسان دون إيمان بالخوارق ؟ ..

- وهل ينفصل معنى النبوة بشكل ما عن الخوارق ؟ ..

- ثم هل يعد ظهور مبالغة أو تدجيل في مسألة ما ، من قبل بعض النـاس ، دليلاً علمياً على بطلان المسألة من أساسها ؟ ..

لقد صال الكاتب وجال في مقاله هذا ، سعياً إلى إنكار الخوارق من أساسها ، دون أن يقف عند واحـد من هـذه الأسئلـة التي مر بهـا ، والتي يثيرهـا المنطق في ذهن القارىء . بل تجاهلها كلها وقفز من فوقها ، ليطوف حول حكايـات بـاطلـة تتحدث عن كرامات وخوارق ، ثم لينسج من طوافه هذا قراراً عجيباً يضمنه إنكار وقوع الخوارق لأحد من الناس .. ثم ليبني على قراره هذا جسراً عريضاً جداً يمـده من قاع الوثنية السحيق إلى ضياء الإسلام المجيد ! .

وإنها لحقائق معروفة لكل من كان له زاد سليم من الثقافة الإسلامية ، لا حاجة إلى إطالة في شرحها أو تقريرها . ولكني أذكر بها القارىء تذكيراً فقط ، لأطلعه من خلالها على العشوائية العجيبة التي تتسم بها كتابات كثير من الناس ، لا سيا عندما يريدون أن يعالجوا شيئاً من قضايا الإسلام :

الحقيقة الأولى : إن الخوارق وهي مقسم للمعجزات والكرامات معاً لا تخالف العقل أو قواعد العلم ، كما يتوهم البعض ، وإنما تخالف ما قد ألفه الإنسان في هذه الحياة . ومخالفة المألوف ليس أصلاً لمخالفة المعقول . أي ليس كل ما لم يألفه الإنسان محكوماً عليه ، بالاستحالة وعدم الإمكان ، بل إن من أبرز مظاهر العجز والقصور الفكري أن يأسر الإنسان فكره ويقينه في دائرة من مألوفاته المتكررة .

وما أنكر العلم يوماً ما أن يشذ عن المألوف عن سننه ، بل ليس من وظيفة البحث العلمي أصلاً أن يستبق الأحداث ، فيزعم أن النار ستظل تحرق حتماً ، وأن السم الناقع سيظل يميت حتماً . وإنما تقف وظيفة العلم عند وصف الوقائع وتحليلها ، ثم تعليلها واستنباط قانون منها ، وقد زاد العلماء هذه الحقيقة تأكيداً بعد أن جاء رائد العلماء التجريبيين (دافيد هيوم) وقرر أن ما نراه أسباباً للمسببات ، ليس بينهما في الحقيقة أكثر من علاقة الاقتران . فهي أقل من أن تعطينا اليقين باستمرار فاعليتها ، إذ لا فاعلية لها في الحقيقة ، ولذلك أجمعت كلمة العلماء التجريبيين على أن العلم لا شأن له بتقدير الأمور قبل وقوعها ، ولا يستطيع أن ينكر احتمال حصول أمر خارق للعادة . كل ما في الأمر أن وظيفة العلماء هي أن يرصدوا وقائع الكون وسننه ، حتى إذا ظهرت خارقة ما ، أسرعوا يحللونها ثم يعللونها بالقدر الذي يصل إليه اطلاعهم .

الحقيقة الثانية : ليس حيال قدرة الله وعظيم سلطانه ما يجدر أن يسمى خارقة ، يذهل لها العقل . ذلك لأن الإله الذي أخضع هذا الكون ـ بعد أن خلقه ـ لنظام معين أقامه على ترابط الأسباب بالمسببات ، يملك أن يغير من هذا

النظام ما يشاء في الوقت الذي يشاء . ولا ينكر هذا الكلام أو يستعظمه إلا من لم يكن قد آمن بوجود الله تعالى وربوبيته .

ونظرا لوضوح هذه الحقيقة يقرر كثير من العلماء الغربيين . أنه لا وجود في الحقيقة لشيء معين يجدر به أن يسمى معجزة ، إذ ليس له في ذاته أي صفة تجعله دون غيره حرياً بهذا الاسم ، ذلك لأن المألوف من الأشياء وغير المألوف منها معجزات في أصلها . فالكواكب معجزة ، وحركة الأفلاك معجزة ، وقانون الجاذبية معجزة ، والمجموعة العصبية في الإنسان معجزة ، والدورة الدموية فيه معجزة ، والروح التي فيه معجزة ، والإنسان في نفسه معجزة . ولذلك يطلق العالم الفرنسي (شاتوبريان) على الإنسان اسم : الحيوان الميتافيزيقي . غير أن الإنسان ينسى لطول الإلف والعادة وجه المعجزة في ذلك كله ، فيحسب جهلاً منه وغروراً أن المعجزة هي تلك التي تفاجئه بخرق ما قد ألفه واعتاده فقط ! ..

ويؤكد العالم الإنكليزي (وليم جونز) هذه الحقيقة بأدق تعبير فيقول : « إن القدرة التي خلقت العالم ، لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه . ومن السهل أن يقال عنه : إنه غير متصور الوقوع عند العقل . ولكن الذي يقال عنه أنه غير متصور ، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم » .

الحقيقة الثالثة : لا يمكن أن يتحقق الإسلام في يقين أي إنسان دون إيمان بالخوارق . ذلك لأن أول ركن من أركان الإسلام هو اليقين بأن لا إله إلا الله . وقد علمت أن الله هو خالق أنظمة الكون ومبدع نواميسه ، وأن بيده تصريفها وتحويرها كما يشاء . فقد استلزم إيمانك بالله إيمانك بأن ظهور أي خارقة كونية على يد نبي ، أو أي امرىء من الناس ليس فيه ما يخالف عقلاً أو يعارض علماً . ثم إن المسلم لا ينهض إسلامه إلا على الإيمان بكتاب الله عز وجل والإيمان بكل ما فيه ، وهو مشحون كما تعلم بالحديث عن الخوارق ، سواء ما كان منها حديثاً عن الماضي ، أو إخباراً عن المستقبل .

إقرأ قصص إهلاك الله الأمم والجماعات الطاغية ، تجد نفسك أمام سلسلة من الخوارق العجيبة . ثم اقرأ إخبارات الله تعالى عن قيام الساعة ، وحشر الناس من قبورهم ، وعن مشاهد يوم القيامة ، تجد شيئاً تذهل له العقول من الخوارق التي لا يكاد يتصورها خيال ، ولا يهضمها فكر ، وهل كان أكثر عناد الكافرين والمشركين إلا مظهراً لإنكارهم تلك الخوارق ، واستبعادهم إياها ؟ ..

الحقيقة الرابعة : أن محور النبوة التي هي جزء لا يتجزأ من جوهر الإسلام ، يتمثل في خارقة من أعظم الخوارق البعيدة عن مألوفات البشر ، ألا وهي خارقة الوحي ، فمهما بالغت في إبعاد حياة الأنبياء عن الخوارق والمعجزات ومهما خيلت إلى الناس أن محمداً ﷺ ، لم يتعامل مع الناس بأي معجزة أو خارقة ، لأنه لم يدع لنفسه القدرة على خرق قوانين الطبيعة ، فإن حياة هؤلاء الأنبياء جميعاً ، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ ، ستظل في يقين كلْ مسلم مغموسة في الخوارق غمساً ، لأن سمة الوحي الإلهي بواسطة جبريل عليه السلام ، ملازمة لهم ملازمة النبوة لحياتهم .

ثم إنه قد ثبت بصريح الآيات القرآنية القاطعة . ومتواتر السنة النبوية القاطعة أيضاً ، أن الله تبارك وتعالى قد جهز رسله إلى الناس بشيء من الآيات الخارقة ، التي إذا رآها العقلاء من الناس ، تنبهوا إلى أن هذه السنن الكونية الرتيبة ليست من عشوائية الطبيعة ، التي طبع بها الكون ، فلا مجال فيها لتغيير أو تحويل ، وإنما هي من قوانين الله التي أقامها بمحض مشيئته ، فهو يغيرها في أي وقت ولأي سبب يشاء . فيكون ذلك من عوامل إيمانهم بالله ووحدانيته ومن أسباب يقينهم بإخبارات الله تعالى لهم عن قيام الساعة ، وحشر الناس من قبورهم ، ومجازاتهم على أعمالهم في دار الدنيا .

ماذا تصنع بحديث القرآن عن ناقة صالح عليه الصلاة والسلام ، والنار التي عادت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ، وعن عصا موسى التي انقلبت حية

تسعى ، وعن عيسى عليه الصلاة والسلام وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله ؟ ..

ثم ماذا تصنع بحديث القرآن عن الإسراء الذي تم بسيدنا محمد ﷺ إلى بيت المقدس جسداً وروحاً ، وعن إمداد الله المسلمين في غزوة بدر ، بعد أن طالت استغاثة الرسول ﷺ بربه ، بألف من الملائكة مردفين ؟ والآية نص قاطع في الدلالة على أن كلمة ﴿ الملائكة ﴾ أريدت بها حقيقة مدلولها لا أي معنى مجازي لها ، فلا يمكن لأي متناول أو متلاعب بالقول أن يزعم بأنها إنما تعني مثلاً القوة المعنوية أو المدد الروحي ، ذلك لأن كلمة ﴿ بألف ﴾ من الآية ، تقف كالطود في الطريق إلى هذا التلاعب الممجوج .. إذ إن معنى العدد قائم على الوحدات المنفصلة عن بعضها ، وهو ما يعبر عنه العلماء بالكم المنفصل ، ولا يكون ذلك إلا في المحسوسات المرئية يقيناً أو حكماً .

ثم ماذا تصنع بما دلت عليه الأحاديث المتواترة الواردة بطرق شتى - وكلها صحيح - عن انشقاق القمر تصديقاً لرسول الله ﷺ وإثباتاً للحجة على المشركين . وقد أحصى ابن كثير - رحمه الله - طرق هذا الحديث عند تفسيره لقوله عز وجل : ﴿ اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر ١] ثم جزم بأنها في مجموعها متواترة تفيد اليقين ؟ وماذا تصنع بما رواه البخاري وغيره بطرق صحيحة لا يلحقها ضعف ولا وهن ، عن (العناق) - وهي أنثى المعز - ، التي دعا جابر إليها رسول الله ﷺ مع عدد يسير من أصحابه ، في غزوة الخندق ، التي اشتد فيها الجوع على جميع أصحابه ﷺ فنادى ﷺ في أصحابه جميعاً - وهم بضع مئات - قائلاً : ألا إن جابراً قد صنع لكم سؤراً - أي طعاماً - فحي هلا بكم . فاجتمعوا كلهم على تلك العناق وإن الجوع ليعتصر بطونهم الخاوية منذ ثلاثة أيام . يقول جابر رضي الله عنه : « فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو » ! ..

ومـاذا تصنـع بمـا رواه الشيخـان من خبر سراقـة بن جعشم عنـدمـا لحق برسـول الله ﷺ يريـد قتلـه ، وهـو في طريقـه مهـاجراً إلى المـدينـة المنـورة ، فمنعه الله من ذلـك بـأن سـاخت قوائم فرسـه في الأرض مراراً ، حتى إذا أيقن أنـه ممنوع منه ، عاد من جهده إلى مكة بغير طائل . (وانظر تفصيل ذلـك في صحيح البخاري ٤ / ٢٥٥ و ٢٥٦) وماذا تصنع بغير ذلك من أخبـار الخوارق الكثيرة التي جرت على يد رسول الله ﷺ بمناسبات مختلفة ، مما قد وصل إلينا بطرق وأسانيد متصلة صحيحة لا يلحقها الوهن . كنبع المـاء من بين أصـابعـه الشريفـة ، وتكليم الشاة المصلية له بأنها مسمومة .. ؟

أفكان ذلك كله اختراعاً من أئمة الحديث ورجالـه ، ليجعلوا من ذلـك جسراً إلى تقديس الأولياء وابتداع كرامات لهم ، إحياءً لروح الوثنيـة في نفوسهم ؟! .. إذن فـلا بـد أن يكـون القرآن شريكاً لهم ـ والعيـاذ بـالله ـ في السعي إلى هـذه المؤامرة ، لأنه أول من أسند إلى الأنبياء الخوارق والمعجزات ! ..

وهل تصبح هذه النصوص والأخبار الصحيحة كلها بـاطلـة ، لمجرد أن يروغ كاتب المقال عن النظر فيها ، ويتشاغل عنها بالتقاط أخبـار لم تصح ، ولم يثبتهـا علماء الرواية والحديث ، كقصة رجوع الشمس عن مغربها من أجل علي رضي الله عنـه في غزوة خيبر ونحو ذلـك ؟ ... من أين جـاء هـذا اللزوم الأخرق بين هـذا وذاك ؟ ..

الحقيقـة الخـامسـة : أوليـاء الله تعـالى هم صفوتـه من عبـاده من دون الرسل والأنبياء ، وهم أشخاص حقيقيون ، وليسوا (كما أوهم الكاتب) شخصيات خرافية جسدتها بقايا الوثنية في نفوس « الخبثاء أو الأذكياء » من الناس .

وقد حدثنا البيان الإلهي عنهم ، وعن أبرز صفاتهم ، بـأجلى بيـان لا تطولـه سخريـة ولا وهم ، فقـال عز وجل : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيـاءَ اللهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ ، الذين آمنوا وَكانوا يَتَّقونَ ﴾ [يونس ٦٢ ، ٦٣] .

أما أمر تقديسهم ، فلا أدري ما الذي يريده الكاتب من هذه الكلمة التي يجعلها وثيقة تهمة لعامة المسلمين ، ويرى فيها دليلاً ما بعده دليل ، على روح الوثنية في نفوسهم .

فإن كان يقصد بها الوصول في الخضوع لهم إلى درجة العبادة ، فهي حقاً من الشرك الصريح الذي لا ريب فيه ، والمتلبسون بذلك ممن يدخلون حكماً في ضمير الجماعة الذي صدر به قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دونِ الله ... ﴾ [التوبة ٣١] ولكن أين هم هؤلاء الناس ؟ وفي أي مكان أو كهف يعيشون ؟ .. أنا لم أعثر طوال حياتي كلها على ناس ، أي ناس ، يذهبون هذا المذهب في تقديس محمد ﷺ ـ فضلاً عمن دونه من الأولياء والصالحين .

أما إذا كان مقصوده بهذه الكلمة عموم ما يدخل في باب المحبة والاحترام والإجلال والتقدير ، فلا أعلم إلا أن ذلك من مظاهر كال الإيمان بالله ورسوله وتوقير حرماته ، بل من مظاهر حقيقة التوحيد ، إذ تتشبع بها النفس المؤمنة ، وهيهات أن يكون ذلك داخلاً في عموم قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دونِ الله ﴾ [التوبة ٣١] .. ولا تغيب هذه الحقيقة إلا عن جاهل يغيب عنه الفرق الكبير بين حب الشيء مع الله أو من دون الله ، وحب الشيء لوجه الله عز وجل . أما الأول ، فغاية في الشرك المذموم ، وأما الثاني فغاية في التوحيد المطلوب .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى وقدس روحه : « والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله ، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله ، والمشركون يحبون غير الله مع الله . كحب المشركين لآلهتهم ، وحب النصارى للمسيح ، وحب أهل الأهواء رؤوسهم » .

ثم كيف لا يكون الأمر كذلك ، وقد روى البخاري عن رسول الله ﷺ

قوله فيما يرويه عن ربه : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » وقد كان من دعائه ﷺ قوله : « اللهم ارزقني حبك ، وحب من ينفعني حبه عندك » . رواه الترمذي .

أفيريد الكاتب أبلغ من هذا دليلاً على وجوب توقير من قد يظن أنهم أولياء لله تعالى وإجلالهم . وإنما يكون الولي ولياً باستقامته على الحق ، وبعده عن المعاصي ، ما ظهر منها وما بطن .

ثم إن أئمة المسلمين ، وعامة أهل السنة والجماعة ، سلفاً وخلفاً ، أجمعوا على أن كل ما قد جاز أن يكون معجزة لنبي ، يمكن أن يكون كرامة لولي عقلاً وشرعاً . لأن مناط الأمر فيهما واحد ، فالإله الذي شاء أن يؤيد رسوله ببعض الخوارق ، لا يمنعه أي مانع من أن يكرم وليه ، إذا شاء ، ببعض تلك الخوارق أيضاً ، لحكمة يعلمها .

ثم إن المسلم لا يكلف بأن يعتقد شيئاً أكثر من هذا ، في حق الأولياء والصالحين ، أي يكفيه أن يؤمن بأن من الممكن عقلاً وشرعاً ، أن يجري الله على أيديهم الخوارق ، التي يمكن أن يجريها على أيدي رسله وأنبيائه ، وليس عليه بعد ذلك أن يصدق الوقائع الجزئية ، التي يتناقلها الناس عن كرامات ، أو خوارق معينة ، وقعت لفلان من الصالحين .. بل ذلك عائد إلى قناعته الشخصية ، التي لا سلطان لأحد عليها من دونه ، فإن شاء صدق ولا حرج عليه ، وإن شاء لم يصدق ولا وزر عليه .

هذا بالإضافة إلى أن الشريعة الإسلامية وضعت بين أيدينا المقياس الذي به يتبين صدق الخبر وكذبه ، بل يتبين به درجة الصحة التي فيه ، من حيث إنه يفيد ظناً راجحاً ، أو يقيناً قاطعاً ، فما على العالم المتبصر بمنهج العلم وقواعد الفهم ، إلا أن يتخذ من هذا المقياس نبراساً له في هذا الطريق .

أما ما قد يتلبس به بعض العامة من الناس من بدع في زياراتهم لقبور الصالحين ، فذلك ليس حجة إلا عليهم أنفسهم ، وهيهات أن يعود بشيء من النقض على حقيقة ثابتة ، وهي أن لله عز وجل أولياء يجب على الناس توقيرهم وإجلالهم

وكذلك ما قد يشيع بينهم من مبالغات وتزايدات في الحديث عن خوارق هؤلاء الصالحين ، فإنه لا يعود أبداً بالنقض على حقيقة ثابتة لا ريب فيها ، وهي أن كل ما يمكن أن يكون معجزة يؤيد بها الله أنبياءه ، يمكن في العقل والشرع أن يكون كرامة يكرم الله بها أولياءه ، سواء أصدق الناس ما قد يروى عنهم من أخبار في ذلك أم كذبوا .

أي أن الشيخ أحمد البدوي ، والشيخ أحمد الرفاعي ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، رضي الله عنهم وقدس أرواحهم ـ لا نعلم من تراجم أحوالهم التي سجلها لهم علماء التراجم والتاريخ ، إلا أنهم كانوا على غاية من تقوى الله تعالى ، والاستقامة على دينه وشريعته ، وهل الولاية فيا وصفها القرآن به شيء أكثر من هذا ؟ .. إذاً فهم أولياء الله تعالى فيا نرى ونعتقد ، يجب علينا تقديرهم وإجلالهم ، ولا مانع من أن نتلمس منهم البركة والخير ، وليس ما يمنع عقلاً ولا شرعاً أن يكون الله قد أكرمهم ، أو أكرم بعضهم ببعض الخوارق ، أما ما قد يتزيده بعض الناس عنهم من كلام ، أو ما يبتدعونه في زياراتهم من أعمال ، فلا يعود بالنقض على تلك الحقيقة أبداً . ذلك لأن تصرفات هؤلاء الناس ليست هي التي أوجدت أولئك الرجال وأعطتهم صفاتهم . فلا حجة لهؤلاء عليهم بشكل من الأشكال .

☆ ☆ ☆

أما ما ساقه الكاتب من الخبر الشائع بين الناس ، من أن علياً رضي الله عنه حمل باب حصن خيبر ، فاقتلعه وتترس به ، وأن سبعين رجلاً لم يستطيعوا

تحريكه بعد ذلك ـ فقصة باطلة لم يعرج عليها أحد من علماء الحديث وأئمة الرواية . ذلك لأن في سنده حرام بن عثمان المدني وهو متروك بإجماع علماء الحديث . قال عنه الإمام الشافعي ويحي بن معين : الرواية عن حرام حرام . وقال ابن حبان : كان غالياً في التشيع يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل . (انظر الإصابة ٢ / ٥٠٢ ، وتهذيب التهذيب ٢ / ٢٢٣ ، وميزان الاعتدال للذهبي ١ / ٤٦٨) والعجيب من أمر هذا الكاتب أنه من الجهل بموازين الرواية ورجالها . بحيث لا يعلم منها إلا الشائع بين عوام الناس ، فيمضي يلتقطها من أي كتاب يلم شعث التاريخ ويجمع من الأخبار ما هب ودب . ثم يجعل من جهله هذا حجة على الأخبار والأحاديث الصحيحة بل المتواترة ! ..

وبعد فهل لهذا الكاتب الذي لم يتق الله في علم يلتزم به ، ولا في أدب يتسم به ، أن يصحو إلى نفسه ، ويستغفر الله عن هذا اللغو الذي انساق فيه بلا منهج ولا روية ؟

فإن لم يكن من شأن هذا الكاتب أن يفعل ذلك ، لأنه يتأبط غاية يسعى إلى تحقيقها ، فهل للأمة التي أكرمها الله تعالى بكنوز خيراته ، وبالنعم الوارفة العظيمة التي جعلها تتقلب فيها ، ألا تقلب نعمة الله كفراً ، وألا تجعل منها ثمناً تقدمه لنشر مثل هذه الضلالات ، على أوسع رقعة في عالمنا الإسلامي ؟

يا هؤلاء الذين أكرمهم الله تعالى بكنوزه الصفراء والسوداء ، وامتحنهم بالنعم ألواناً : حذار ، ثم حذار ، من أن تسكركم هذه الكنوز عن مراقبة ربكم وحماية دينكم ، ومن أن تجعلوا منها سبيلاً إلى رضا الشيطان ، وأسباب الطغيان ، فإن كنوزكم هذه إن ذهب الله بها ، لن تعود ...

مشكلات فهم القرآن وتفسيره

وهي مشكلة من يتسلقون إلى القرآن تسلقاً كيفيـــاً ، ليفهمـوه ، فيفسروه كما يروق لهم ، ثم يعودوا إلى الإسلام فإذا هو ، تماماً كما يحبون ، لا يخالف أمانيّهم ورغباتهم شروى نقير ! ..

جرّ القرآن إلى العلوم الحديثة وجذبه عنها
كلاهما تعسفٌ باطل

هو خلاف يتفاقم بين أنصار طريقتين معروفتين في تفسير القرآن الكريم ، إحداهما تحاول أن تجر القرآن جراً إلى العلوم الحديثة ، والأخرى تقاوم هذه الدعوة بالسير في اتجاه معاكس ، ينأى بالقرآن عن الخوض في تلك العلوم .

وحتى الآن - وفيما هو ظاهر - لم يستطع الطرفان أن يلتقيا على ميزان يفصل في الأمر ، ويجمع خطوط الخلاف على صراط واحد من الحق الذي لا مرية فيه ، ولا يقع فيه أي خلاف .

على أن هذا الميزان موجود ، ولا تحتاج المسألة إلى أي معاناة في استخراجه أو البحث عنه . فمكانه معروف من كتب علوم القرآن المختلفة ، بل في أي مرجع قديم أو حديث يعنى بمناهج البحث وقواعد تفسير النصوص ، لو أن النقاش استهدف جذور المسائل وكلياتها .

ذلك أنه ليس محور الصحة والبطلان في تفسير القرآن ، أن يتضمن التفسير شيئاً من مسائل العلوم الحديثة أو أن لا يتضمن شيئاً منها . بل ليس محور الصحة والبطلان في ذلك أي معنى من المعاني أو نظرية من النظريات يمكن أن ينتهي المفسر بتفسيره إليها ، إلا إذا شئنا - والعياذ بالله - أن نجعل من رغبة أو فكرة سابقة في أذهاننا ، أساساً مستقراً وقراراً لا محيص عنه ، فعندئذ تغدو عملية

التفسير مجرد ذريعة لدعم هذا القرار ، وعندئذ يتخذ التفسير صفة الصحة أو البطلان ، حسب قرب مدلول الآية أو بعده من الفكرة السابقة التي نتبناها .

وهذا منتهى ما يمكن أن يصل إليه المذهب الذرائعي في التجرد عن الموضوعية ، وفي تسخير المنطق والعقل لأي رغبة سابقة ! .. ونعوذ بالله من أن تكون مطامحنا أو رغباتنا النفسية .. السابقة بالإيمان أو نقيضه . بالتدين أو عكسه ، هي القائد الموجه لعقولنا في ساحة النظر والبحث .

ميزان واضح :

إذن ، فما هو المحور الذي يدور عليه تفسير القرآن صحة وبطلاناً ؟ .

والجواب أن هذا المحور لا يتمثل في أكثر من الميزان الذي نعتمد عليه لتفسير أي كلام عربي ، صاغه من لا شك لدينا في أنه حكيم لا يهذي ولا يعبث .

هذا الميزان يتكون من المقومات والأركان التالية :

أولاً ـ خضوع التفسير لدلالات اللغة العربية وقواعدها التي لا خلاف فيها .

ثانياً ـ خضوعه لقواعد تفسير النصوص المتفق عليها . كأحكام العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والمنطوق والمفهوم . إلخ ...

ثالثاً ـ ألا يتعارض التفسير معارضة حادة مع مضمون أي آية أخرى في القرآن ، بحيث لا يكون من سبيل للجمع بينهما تحت ظل أي قاعدة من قواعد تفسير النصوص .

رابعاً ـ ألا يتعارض التفسير معارضة حادة مع الدلالة الثابتة لنص حديث نبوي صحيح ، بحيث لا تترك هذه المعارضة سبيلاً سائغة للتوفيق بينهما .

من هذه المقومات الأربعة فقط يتكون الميزان الذي لا بد من الاحتكام إليه لتفسير آية من القرآن . وهو ميزان متفق عليه عند علماء العربية والتفسير

والأصول جميعاً . وهو الذي يمثل القاعدة المشتركة التي يلتقي عليها كل من أقطاب مدرستي التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي . فما نعلم إماماً من أئمة التفسير بالرأي استجاز لنفسه الخروج عن سلطان هذا الميزان قيد شعرة . كما لا نعلم إماماً من أئمة التفسير بالمأثور حرم أو أنكر أي تفسير اجتهادي ينضبط بقيود هذا الميزان . وإن لم يتخذ من ذلك مذهباً شخصياً لنفسه في نطاق أعماله العلمية الخاصة .

وما قصة هاتين الطريقتين اليوم في تفسير القرآن على ضوء العلوم الحديثة . إلا امتداد لمدرستي التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور . وما ثار بين أرباب هاتين الطريقتين الخلاف بل الشقاق الحاد ، على خلاف ما كان الأمر عليه بالنسبة لأئمة التفسير بالمأثور وأئمة التفسير بالرأي ، إلا لأن هؤلاء لم يحتكموا إلى بنود هذا الميزان ، كما احتكم إليه أولئك الأئمة السابقون ، ولو أنهم فعلوا ذلك ، لامتص هذا الميزان من بينهم كل خلاف وجدال .

وبناء على هذا فإنني أقول :

إذا التزم المفسر لكتاب الله تعالى بالبنود الأربعة لهذا الميزان التزاماً صادقاً وصحيحاً ، فمن الشطط ، بل من التعسف الممجوج ، أن ننكر المعنى الذي توصل بتفسيره إليه أياً كان ذلك المعنى وبأي النظريات أو العلوم تعلق .

أما إذا لم يلتزم بهذا الميزان التزاماً صادقاً ودقيقاً ، فمن الشطط والتعسف عندئذ أن نقبل المعنى الذي انتهى بتفسيره إليه . سواء كان متعلقاً بالعلوم الكونية الحديثة ، أو بالأحكام الدينية أو الأخبار التاريخية أو بأي شيء آخر .

ومن هنا يتبين أن الخوض في نقاش حول صحة تفسير القرآن بالعلوم أو النظريات الحديثة أو عدم صحته ، دون الالتفات إلى هذا الميزان الذي ذكرناه ، إنما هو خوض فيما لا طائل منه وكلام لا حصيلة له .

وبوسعنا الآن أن نستعرض نماذج من النصوص القرآنية التي يمكن أن تكون جزءاً من موضوع النزاع الذي نتحدث عنه ، وسنرى بعد احتكامنا إلى الميزان الذي أوضحناه ، أنه لا يؤيد هذه الطريقة ولا تلك تأييداً ذاتياً مطلقاً ، بل هو يصرف بعض هذه النماذج عما يسمى بالتفسير العلمي المزعوم ، ويؤيد هذا التفسير ويؤكد على صحته بالنسبة للبعض الآخر .

يقول الله تعالى في سورة الرحمن ٣٣ : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذوا مِنْ أَقْطارِ السّماواتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذوا لا تَنْفُذونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ ﴾ .

ما أكثر الذين يفسرون هذه الآية بأنها إرشاد وتوجيه علمي للناس ، بأن يحاولوا كشف السبل العلمية التي تيسر لهم الصعود إلى طبقات الجو والنفوذ إلى ما فيها من كواكب وأجرام ! .. فهي إذن ـ بناء على هذا التفسير ـ بمثابة الإرهاص الذي جاء بين يدي صعود الإنسان إلى القمر ، بل هي بمثابة الإخبار الغيبي عن هذا الكشف العلمي الفريد الذي توصل إليه الإنسان .

فهل يتفق هذا التفسير مع البنود الأربعة لميزان تفسير النصوص القرآنية ؟

إذا تأملت في ألفاظ الآية ، أدركت أن هذا التفسير يتعارض تعارضاً بيناً مع أول بند من بنود الميزان المذكور ، ألا وهو خضوع التفسير للدلالة اللغوية وقواعدها المتفق عليها .

إن الآية تقول : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات ﴾ ولم تقل (.. إلى أقطار السماوات) وفرق كبير في الدلالة اللغوية بين التعبيرين .

إن ﴿ من ﴾ لا تصلح في هذا المقام إلا لمعنى واحد ، هو التجاوز .. فالمعنى إذن : إن استطعتم أن تتجاوزوا أقطار السماوات والأرض وتخرجوا عن دائرة المكونات الإلهية فافعلوا ! ..

وواضح أن الأمر هنا للتعجيز ، وأن المعنى المراد الذي تكني عنه الآية : إن الإنسان لن ينجو من قبضة الله تعالى وما قد ينتظره يوم القيامة من حساب وجزاء ، مهما حاول ومهما أوتي من القوة ، إلا بسلطان من الإرادة الإلهية إذ تتعلق بنجاته ... وهذا المعنى لا شأن له ـ كما نرى ـ بصعود الإنسان إلى القمر أو المريخ أو حتى بسياحته الممكنة بين الأجرام السماوية الجاثمة ـ مهما كانت بعيدة ـ ضمن دائرة المكونات وداخل أقطار السموات والأرض .

نعم لو جاء التعبير بـ (إلى) بدلاً عن (من) لكان التفسير الشائع للآية ممكناً ومقبولاً .

من أجل هذا نقول : إن جر هذه الآية إلى المعنى الذي يطيب لبعض الناس لصقه بها ، تعسف ممجوج وتجاوز لقواعد اللغة العربية وضوابط تفسير النصوص .

وفي سورة نوح ١٣ ، ١٤ قول الله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً ﴾ .

لقد وقف بعض الناس عند هذه الآية وقفة من عثر فيها على كنز نادر ثمين ! .. ذلك لأن الآية قد تحدثت عن التطور بصريح العبارة والبيان ! .. بل نصت على أن خلق الإنسان جاء متطوراً !!

إذن ، فالآية سجلت سبقاً علمياً رائعاً على كل من (لامارك وداروين) ، وسائر القائلين بنظرية تطور الإنسان من أنواع أو أجناس أقل شأناً ! ..

ترى هل يساعد ميزان تفسير النصوص القرآنية على قبول هذا التفسير ؟ .

إن الميزان المذكور لا يساعد على هذا التفسير البتة . ذلك لأن صرف كلمة ﴿ أطواراً ﴾ إلى هذا المعنى يتناقض مناقضة حادة مع آيات صريحة أخرى من مثل قول الله عز وجل ﴿ لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ ﴾ [التين ٤] ومن

المعروف أن (أل) في الإنسان للجنس ، فالآية نص قاطع إذن على أن الله تعالى أبدع جنس الإنسان في أحسن تقويم ، وهو مناقض لتصور أن الإنسان قد تصاعد من فصائل وأشكال دنيا .. ذلك لأن جنس هذه الفصائل كلها يغدو ـ بناء على هذا التصور ـ واحداً ، والأفراد الذين تساموا ضمن هذا الجنس إلى أحسن تقويم ، لا يبلغون معشار أفراد الجنس كله .

هذا إلى أن كلمة ﴿ أطواراً ﴾ في هذه الآية ، إنما تتولى تفسيرها آية صريحة أخرى في القرآن ، هي قول الله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ في بُطون أُمّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاث ﴾ [الزمر ٦] بالإضافة إلى ما هو ثابت في القرآن نفسه من أن النشأة الأولى للإنسان إنما كانت من أخلاط التراب والماء ثم النطفة وهكذا . إلخ ... وقد فسر هذا كله قول الله عز وجل ﴿ يا أَيُّها النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْث فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [الحج ٥]

فانظر إلى جر هذه الآية إلى هذا المعنى (العلمي) فيما زعم البعض ، كم جر من المفاسد :

المفسدة الأولى : الوقوف في وجه آية صريحة تتناقض مع هذا التصور مناقضة كلية .

المفسدة الثانية : الإعراض عن آيات أخرى تتولى بيان المعنى الإيجابي المراد لكلمة ﴿ أطواراً ﴾

المفسدة الثالثة : تحميل القرآن ـ بعد هذا كله ـ مسؤولية التأييد لنظرية (بل لفرضية) لم يدعمها أي برهان علمي بعد ، بل تواردت البراهين والأدلة على بطلانها .

وجاذبية الأرض

والآن نقرأ قول الله تعالى في سورة [المرسلات ٢٥ ، ٢٦] ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتاً ، أَحْياءً وَأَمْواتاً ﴾ فما معنى كفاتاً ؟

والكفت والكفات ـ في اللغة العربية ـ بمعنى الجذب والضم ، وعليه قول الشاعر :

كرام حين تنكفت الأفاعي   إلى أجحارهن من الصقيع

أي حين تنجذب الأفاعي إلى داخل جحورهن من شدة البرد .

إذن ، فالآية تقول بصريح العبارة . في مجال الامتنان والتذكير بالنعم : ألم نجعل هذا الكوكب الأرضي الذي تعيشون عليه جاذباً لكم ، بحيث ترون فيه أسباب طمأنينتكم واستقراركم .

ولكي لا يتصور متصور أن هذا الجذب أو الضم إنما يكون إذا دفن الإنسان بعد موته في باطن الأرض ، جاء القيد المعمم يقول : ﴿ أحياءً وأمواتاً ﴾ أي : بل جعلناها بحيث تجذبكم إليها إذ تكونون أحياءً تتحركون على ظهرها ، وإذ تعودون أمواتاً مدفونين في باطنها .

ولقد أيقن العلماء قديماً ـ ومنهم يونس بن قرة ـ من دلالة هذه الآية ، أن الله أودع في الأرض قوة جاذبة إليها بها يستقر الإنسان فوقها ويلقى فيها طمأنينة حياته وأسباب عيشه .

فهذا معنى علمي تدل عليه الآية دلالة متفقة كل الاتفاق مع الميزان الذي ذكرناه ، إذ الدلالة اللغوية مؤيدة له ، بل هي لا تؤيد إلا هذا المعنى . وقواعد تفسير النصوص مؤيدة هي الأخرى . وليس من تعارض بين هذا المعنى وأي آية قرآنية أخرى ، أو حديث نبوي صحيح .

إذن فالشطط والتعسف هنا ، إنما يتمثل في العمل على صرف الآية عن هذا المعنى ، لمجرد أنه معنى علمي يتعلق ببعض المكتشفات العلمية الحديثة .

مثال آخر . وهو ما نلاحظه من أن القرآن إذا تحدث عن الشمس وصفها دائماً بأنها سراج مضيء ، وإذا تحدث عن القمر وصفه دائماً بأنه منير . فالسراج والإضاءة صفتان للشمس دائماً ، والإنارة صفة للقمر دائماً . انظر إلى هذه الآيات :

﴿ تَبارَكَ الّذي جَعَلَ في السَّماء بُروجاً وَجَعَلَ فيها سِراجاً وَقَمراً مُنيراً ﴾ [الفرقان ٦١]

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فيهنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً ﴾ [نوح ١٥ ، ١٦]

﴿ هُوَ الّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدّرهُ مَنازِلَ ﴾ [يونس ٥]

وإذا عدنا إلى اللغة العربية لنتبين المعنى الدقيق لكل من سراج ومضيء ومنير ، ولنقف على مظاهر الفرق بينها ، نجد أن الشيء لا يقال عنه سراج أو مضيء إلا إذا كان يبث مع الشعاع حرارة . ويقال عنه منير إذا كان يبث ضياء لا حرارة فيه . كما أنك لا تقول عن الشيء سراج أو مضيء إلا إذا كان الشعاع منبثقاً من داخله وجوهره ، وتقول عنه منير إذا انعكس عليه الضوء من جرم آخر . فأنت تقول عن الغرفة منيرة ولا تقول عنها أنها سراج أو مضيئة ، إلا على وجه المبالغة أو التشبيه .

وبناء على هذا البيان اللغوي الذي يعرفه علماء اللغة جميعاً . تكون الآية السالفة ناطقة بأن القمر جرم بارد لا حرارة فيه . وبأنه إنما يكتسب نوره من جرم آخر ، بعكس الشمس .

فهذا تفسير علمي لا محيص عنه بالنسبة لهذه الآيات . وهو ـ كما نرى ـ متفق كل الاتفاق مع الميزان المتبع لتفسير كتاب الله تعالى . فإن أعرضت عنه بحجة أن هذا تفسير يتناول بعض العلوم الكونية ، فذلك هو الشطط والتعسف الباطل الذي لا معنى له .

ولنتأمل الآن في هذه الآية : ﴿ وَأَرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فأَسْقَيْناكُموهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنين ﴾ [الحجر ٢٢]

فاللواقح جمع لاقح أو لاقحة ومعناها معروف ، وقد رتبت الآية على صفة اللقح التي أثبتتها للرياح ، هطول الأمطار من السحاب ، وأداة هذا الترتيب هي الفاء في قوله تعالى ﴿ فأنزلنا ﴾ إذن فتلقيح الرياح للسحب هي السبيل التي جعلها الله سبباً لهطول الأمطار على النحو الذي نراه .. هذا ما تعبر عنه الآية بنصها ، وبمنطوقها الذي لا محيص عنه . فهل نستطيع أن نفر بهذه الآية إذن من الحقيقة العلمية التي تقول أن الرياح تلقح السحاب بالشحنات الكهربائية بين يدي تجمع الأمطار فيها وتهاطلها قطرات على وجه الأرض ؟

إن الفرار بالآية ـ والحالة هذه ـ عن هذا المعنى الذي لا بديل عنه ، ليس في الحقيقة إلا استجابة لفكرة ذرائعية . تتذرع بهذا الفرار لإقصاء القرآن عن مدلولات معينة ، على كل حال ، ومهما كانت الموجبات . ولا ريب أن هذا العمل لا يسمى تفسيراً بحال من الأحوال .

أردت من عرض هذه النماذج أن يتجلى للقارىء بكل وضوح ، أن محور الصحة والبطلان في تفسير آيات القرآن ليس متمثلاً في ماهية المعنى الذي نتوصل بالتفسير إليه ، فتلك أسبقية فضولية لا مسوغ لها في نطاق البحث الموضوعي المتجرد .

وإنما محور الصحة والبطلان ، الخضوع أو عدم الخضوع للميزان الذي لا بد

من اتباعه بصدد تفسير القرآن ، ولا تغير ماهيـة المعنى الـذي نصل بـالتفسير إليـه من طبيعة هذا الميزان أو سلطانه شيئاً .

وكل جـدال حول التعرف على الطريقـة المثلى في تفسير القرآن ، لا يحتكم إلى هذا الميزان الذي هو محل وفاق وإجماع ، ليس إلا سلسلة من الجدل المتوالد الـذي لا نهاية له ولا ثمرة منه .

القرآن .. ونظرية التطور

اطلعت ، أخيراً ، في العـدد ٢٤٨ من مجلـة العربي ، على مقـال لـلأستـاذ الدكتور عبد الكريم الإيرياني بعنوان : (هل يعارض القرآن نظرية التطور) . وهو يتضمن نقداً رفيقاً ، مشفوعاً بثناء أشكره عليه ، على بعض ماجـاء في مقـالي المنشور في العدد ٢٤٦ من مجلـة العربي ، بعنوان : لماذا التعسف البـاطل في تفسير القرآن[1] ؟

ويتلخص نقده في القول بأن نظرية التطور ، لما كانت تستنـد إلى مقومـات البحث العلمي وطرائقه ، ولما كان جمهرة علمـاء الأحيـاء يقرون أسـاسيـات هـذه النظرية وإن اختلفوا في تفاصيلها ـ : فإن القول بأن القرآن ينكر هذه النظريـة إقحام للقرآن في طريق محرج . إذ من المحتمل أن تنضج هذه النظريـات غـداً ، ثم تتحـد وتتلاقى على حقيقـة علميـة لا يـأتيهـا البـاطل . فنكون قـد أنطقنـا القرآن عندئذ بما يتنافى مع حقيقة علمية أثبتها البحث العلمي .

لذا ، يرى الدكتور الإيرياني ، بدافع من غيرتـه على كتـاب الله عز وجل ، أنني قد أبدعت بهذا القول مذهباً ثالثاً ، قد يكون في واقعه شراً من المذهب الـذي عقدت مقالي لتحذير الناس منـه ، وهو التحرر من قواعـد التفسير ابتغـاء تحميل القرآن ماقد لا يحمله من المعاني والأفكار .

☆ ☆ ☆

---

(١) العنوان الذي اخترناه للمقـال هنـا هو : جرّ القرآن إلى العلوم الحـديثة وجذبـه عنهـا كلاهمـا تعسف باطل . وهو الذي يراه القارىء قبل هذا البحث .

إنني لاأعتقد (بعد الإمعان في هذا الذي كتبه الدكتور الإيرياني) أن ثمة أي خلاف جوهري حول نظرية التطور بين الذي قررته عنها في مقالي المذكور ، ومااستدرك به عليّ في مقاله هذا .

فيكفي أننا التقينا على القول بأن كل ما يقال عن تطور الإنسان من أصناف أخرى أقل شأناً ، لا يزال في طور النظريات المتعارضة ، وإن سلك الباحثون إليها السبيل العلمي المعروف ، وهي : الملاحظة ثم البحث ثم الاستنتاج . إذ ليس حتماً أن يصل الإنسان إلى حقيقة علمية ساطعة ، لمجرد أن يسلك إليها (جهد استطاعته) طريق الملاحظة ، فالبحث ، فالاستنتاج . لأن احتمالات الخطأ في الطريق وفي النهاية كثيرةً جداً .

إذن فردّ الاستدراك على ماقد كتبت ، هو قولي بأن القرآن لا يمكن أن يقبل نظريات التطور ، لأنها تتنافى مع نصوصه المحكمة المتعلقة بأصل الإنسان . وسبب استدراكه على هذا القول ، مايراه من احتمال أن تؤول النظرية غداً إلى حقيقة علمية !..

ولكي أزيل الغموض الذي اقتضى من الدكتور الإيرياني هذا الاستدراك ، أوضح نقاطاً ثلاثة ، قد تكون ذات أهمية في هذا البحث :

النقطة الأولى :إنني لم أتخذ موقفاً ثالثاً عندما حذرت من البحث في القرآن عما يمكن أن ينهض شاهداً لنظرية التطور[1] ، كما يفعل أو يحاول بعض الناس . ولا عندما قلت : إن هذه النظرية لم يؤيدها إلى اليوم أيّ دليل علمي ، بل تواردت الأدلة على بطلانها

وإنما سقت هذا الكلام تطبيقاً للميزان الذي يجب الاحتكام إليه عند تفسير

---

(١) نقصد بالتطور هنا القول بتطور الإنسان من أجناس أو أنواع أقلّ شأناً . فلاجرم أننا لا نعني هنا الحيوانات الأخرى .

أي آية من القرآن ، وهو الميزان الذي يتلاق عليه كل من مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأي .

فقد قلت ـ ولا أزال ـ إن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح ١٤] بنظرية النشوء والارتقاء ، جنوح كبير عن القاعدة ذات الشروط الأربعة لتفسير القرآن . إذ إن هذا التفسير يتناقض مناقضة حادة ، مع تلك الآيات الكثيرة التي تنص على أن جنس الإنسان خلق في أحسن تقويم ، وأن السمة الإنسانية كانت ملازمة له ، منذ خَلْقِ الله لأبيه آدم عليه الصلاة والسلام ، على النحو الذي بيّن ، فلم يحصل الإنسان على هذه السمة فيما بعد اكتساباً ، أو بعد صراع مع الطبيعة كما قد يُتوهم .

فأنت ترى أن دلائل البطلان التي تشيع في هذا التفسير ، هي عين الدلائل التي اتضح بها بطلان تفسير أولئك السطحيين لقوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا .. ﴾ [الرحمن ٣٣] ، إذ إن هذه الدلائل وتلك . مأخوذة من الميزان الذي لابدّ من الاحتكام إليه عند تفسير القرآن . وهو ميزان يتكون من أربعة شروط لابدّ من مراعاتها ، ذكرتها في بحثي السابق ولا نريد أن نعود إلى الحديث عنها .

فإذا اتضح أن الأمر كذلك ، فلا يسوغ لنا بحال ، أن نتجاهل شيئاً من مضمون هذا الميزان بصدد تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح ١٤] ، من أجل أن المسألة تتعلق بنظرية التطور ، ومن أجل أن جمهرة علماء الأحياء يبحثون فيها .. وأنه يوشك أن يأتي يوم تصبح فيه هذه النظرية حقيقة علمية ... فإننا لو ذهبنا هذا المذهب ، لكان ذلك منا تحيزاً واضحاً ، وخرقاً لشمولية هذا الميزان الذي هو وحده مدار الصحة والبطلان في تفسير أي نص قرآني .

ولو فتحنا على أنفسنا باب هذا التحيّز ، لتسابقت إلينا مسائل كثيرة أخرى تدعونا إلى سلوك الطريق المتحيز ذاته تجاه كثير من الآيات المشابهة ..

فكثير من علماء الحياة ـ مثلاً ـ لا يزالون يواصلون بحوثهم في أصل الحياة ومدى إمكان إيجادها عن طريق تفاعل كيميائي . وربما نسجوا لأنفسهم بعض النظريات أو الفرضيات في هذا الصدد ، وإن لكثير منهم آمالاً قوية في الوصول إلى نتائج إيجابية ، من وراء بحوثهم هذه ، ولا ريب أنهم كغيرهم ، يسيرون طبقاً لما يقتضيه المنهج العلمي المتمثل في الملاحظة ، فالبحث ، فالاستنتاج ، فهل يستوجب هذا أن نتجاهل ما يقرره القرآن في عبارة صريحة حاسمة ، من أن الإنسان لن يصل إلى معرفة حقيقية لِكُنْهِ الروح ، وأنه لن يستطيع إيجاد أي كائن حي ، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً ﴾ [الإسراء ٨٥] وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعوا لَهُ ﴾ [الحج ٧٣] ، لمجرد أن جمهرة علماء الحياة يواصلون بحثهم في هذه المسألة ، غير عابئين بتحديات القرآن ؟. فهذه هي النقطة الأولى .

☆ ☆ ☆

النقطة الثانية : إن هذا الذي قررته لا يعني أبداً ضرورة الكف عن أي بحث علمي يتعلق بمعرفة أصل الإنسان ، ومدى احتمال أن يكون قد نشأ من حيوانات أخرى . كما لا يعني وجوب الإعراض عما يقوله الباحثون في ذلك .

إنني ـ وقد آمنت بما يقرره كتاب الله عز وجل ـ من أن الإنسان لم يتطور خلال التاريخ من أي فصيلة حيوانية أخرى ، لا أجد إطلاقاً ما يمنعني من متابعة ما يقوله أصحاب هذه النظرية ، ودراسة ما قد ينتهون إليه من بحوث في ذلك . كما أنني لا أجد أيّ مسوغ لحمل الناس على الكف عن هذه الدراسة ، والإعراض عما يقوله علماء هذا الشأن في ذلك .

ذلـك لأنني على يقين بـأن هـذه المتـابعـة ، ستزيـد المـؤمن بمـا يقرره القرآن طمأنينـة ويقينـاً ، وتسـاهم في تبـديـد أسبـاب الشـك والجحود عنـد الآخرين إذا مـا تحلـوا بحريـة الفكر والنظر ، ولم يربطـوا عقـولهم بـأي ذرائعيـة أو أسبقيـة في الحكم ، إذ سيكتشفـون أخيراً عقم مسعـاهم ، وسيعـودون ليقفـوا تحت مظلـة هـذا البيان الإلهي المعجز :

﴿ مـا أَشْهَـدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْـقَ أَنْفُسِهِمْ وَمـا كُنْتُ مُتَّخِـذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف ٥١]

وكذلك لا أرى ما يمنع أي إنسان من أن يجرب طاقته ابتغاء التأكـد من أنـه لن يستطيع حقـاً أن يكسر شيئـاً من تحـديـات القرآن ، أو أن يستعمل قـدراتـه العلمية للتأكد من صدق إخباراته الصريحـة القـاطعـة . كأن يبـذل مـا يملـك من الجهـد لإعـادة الحيـاة إلى من وقـع في سيـاق المـوت أو انفصلت عنـه الروح .. أو لمعرفة حقيقة الحياة ، أو لإيجادهـا بعيـداً عن النواميس والقوانين التي أقـامهـا الله وسيلة لذلك .

ولعمري ، كيف يستيقن الإنسان صدق تحديات القرآن وأخبـاره ، إن هو لم يعرضهـا على محـك التجربـة والواقع ، عن طريق النظر والبحث طبـق المنـاهـج العلمية السليمة ؟! ..

فليطمئن الدكتور الإيرياني ، إلى أنني لا أدعو أولئك العاكفين على دراسـاتهم لتـاريخ نشـأة الإنسـان ، إلى إغـلاق دراسـاتهم هـذه ، لمجرد أن القرآن يجـزم بـأن الإنسان لم يتطور من أي حيوان آخر .

بل إنني لن أجد أمامي ما يؤكد صدق هـذا القرار القرآني ، خيراً من استمرار هؤلاء الناس في بحوثهم ، على أن يكونوا أمناء على الحقيقـة العلميـة متحررين عن كل أسبقيـة في التطلع والحكم . فهـذا هو وحـده السبيل الموصل إلى الإيمـان بقولـه

تعـالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيـاتِنـا في الآفـاقِ وَفي أَنْفُسِهِمْ حَتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّـهُ الْحَـقُّ ﴾ [فصلت ٥٣]

فهذه هي النقطة الثانية

☆ ☆ ☆

النقطة الثالثة : على الرغم من أن الدكتور الإيرياني قـد أكـد في مقـالـه أن مسألة التطور لم تتجاوز بعد مرحلة النظرية .. على أنها ليست نظرية واحـدة ، بل نظريات متخالفة ، إلا أن سياق كلامه قد يوهم كثيراً من الناس بأن المسـألـة كادت أن تصل إلى درجة الحقيقة العلمية ، وذلك لشدة اهتمام الـدكتور الإيريـاني بها ، وتأكيده أن جمهرة علماء الحيـاة مـا يزالون يقومون ويقعـدون بهـا ويجزمون بأن الحقيقة العلمية مخبوءة فيها .

لذا ، فإنني لا أجد مناصاً ، من بيان حجم هذه النظريـة ، أو النظريـات ، اليوم . ثم من بيان السّر في أن جمهرة علماء الحياة (الأجـانب) لا يزالون يقومون ويقعـدون بهـا ، على الرغم من أن جهودهم المبـذولـة في تهـديمهـا أكثر من جهـودهم المبذولة في إشادتها ! ..

إن مـا يسمى اليوم بنظريـة النشـوء والارتقـاء ، ليس أكثر من حلقـات من الفرضيات المتضاربة والمتناسخة ، في محـاولـة للوقوف على أصل الحيوانـات عـامـة والإنسان بصورة خاصـة (وإنمـا يعنينـا هنـا الإنسـان) بـدأهـا العـالم التصنيفي (لامارك) بفرض تفسيرات معينة يرتبط معظمها بعوامل البيئـة والمنـاخ ، أقـام عليهـا تصوره لفكرة التطور .. ومـا إن وضعت نظريتـه هـذه تحت مجهر البحث والنقـد حتى ظهر فسـادهـا ، ثم مـا هو إلا أن دفنت تحت وابـل من النقـد الـذي صوب إليها من كل جهة .

ثم جاء (داروين) فـأخرج في عـام ١٨٧١ م كتـابـه المشهور (أصل الأنواع

والانتخاب بالنسبة للجنس) ضمنه نظرية جديدة للتطور ، أقامها جهد استطاعته على مبدأ اختيار الأصلح .

ولكنها ما إن سارت بين الناس قليلاً ، ونالت الشهرة الطبيعية ، بحكم غرابة ما قد جاء به ، وبحكم تطلع من حوله من الناس إلى معرفة أي تفسير لأصل هذا الكائن العجيب ـ حتى منيت هي الأخرى بانتقادات كثيرة جداً ، كشفت عن كثير من الثغرات العلمية فيها ، ذكر طائفة كبيرة منها الدكتور عبد الحليم سويدان في كتابه علم الحياة ، ثم قال إنها جزء يسير من انتقادات كثيرة أخرى وجهت إلى الداروينية .

وحسبنا أن نعلم بأن (داروين) نفسه قد استدرك على نظريته بانتقادات كثيرة وُجّه إليه بعضها من الآخرين ، واستقل هو بتوجيه سائرها إلى نفسه ، وقد سجلها في كتابه دون أن يجيب على شيء منها . وإنما اكتفى بالاعتذار قائلاً « إن ما نعلمه من تاريخ الإنسان لا يبلغ شيئاً ، إذا ما قورن بمبلغ جهلنا بالتاريخ » .

ولا يتسع هذا المقال لعرض هذه الانتقادات العلمية الهامة التي استدرك بها (داروين) على نفسه ، ثم وقف منها موقف المعترف بجهله العاجز عن الإجابة الشافية . ولكن بوسعك أن ترجع إلى كتاب أصل الأنواع ص ٤١٢ فما بعد وص ٤٤٧ فما بعد ، على سبيل المثال .

وإني لأعدّ هذه المواقف من (داروين) معالم بارزة تشهد على دقة الأمانة العلمية التي كان يتمتع بها ، بمقدار ما تكشف عن نقيض ذلك لدى كثير ممن جاؤوا من بعده ، وعثروا في آرائه التي لم يقطع فيها بأمر على ذريعة رائعة لتحقيق غايات معينة ، لا شأن لها بحقائق العلم وموازينه في قليل ولا كثير .

ثم إنه كان للانتقادات الكثيرة التي توجهت إلى (نظرية داروين) أثر كبير

في أن تتهاوى ، ويمرّ عليها عهد من السقوط والتردي ، ولكن طائفة من الباحثين عادوا فأشادوا من أنقاضها نظرية أخرى جديدة ، أطلق عليها فيما بعد اسم (الداروينية الجديدة) اعتبرت بمثابة النسخة المصححة لـ (نظرية داروين) . وقد تزعم هؤلاء الباحثين العالم الهولندي : (Hugo De Veries) غير أن هذه النسخة المصححة أيضاً ما لبثت أن استهدفت لانتقادات كثيرة ووقعت تحت وطأة نقائض لم تجد أيّ مفر منها[1]

إذن ، فما الذي يسجله ميزان الرؤية العلمية لهذا الموضوع ، بعد هذا الاستعراض الموجز ؟ .. إنه يسجل على الفور أن فكرة التطور لم تتجاوز بعدُ مرحلة الفرضية التي تتجاذبها الشواهد المتناقضة . وكل ما قيل أو كتب فيها لا يعدو أن يكون محاولات مبتورة تثير مزيداً من مشكلاتها أكثر مما تحلّ شيئاً من معضلاتها .. وليست طبيعة هذا الصراع الذي ألمحنا إليه إلا طبيعة حيرة واضطراب في موضوع مغلق . وهيهات أن يكون سيراً منهجياً لفهم أمر معلوم الحقيقة محدود الحجم والنطاق .

بقي أن نتساءل : فما للباحثين والناقدين إذن ، يعودون هم أنفسهم فيقبلون فكرة النشوء والتطور في الجملة ، أي بقطع النظر عن أي تفسير لها ؟! .. وهذه هي الظاهرة التي جعلت الدكتور الإيرياني يقول « إن جمهرة علماء الأحياء يقرون أساسياتها ، وإن اختلفوا في تفاصيلها » . وإنها لظاهرة تستدعي التساؤل والاستغراب ، أكثر مما تدعو إلى التأسي والاطمئنان ! ..

فإن علينا أن نتساءل حقاً : لماذا يعمد هؤلاء العلماء إلى سائر التفسيرات التي ظهرت إلى الآن لفكرة التطور الإنساني ، فيحطمونها تحطيماً ، حتى إذا استراحوا

---

(١) ذكرت سلسلة هذه النظريات ، مع تفاصيل الانتقادات التي وجهت إلى كل منها في كتابي (كبرى اليقينيات الكونية) ص ٢٧٢- ٢٩٠ .

وقعدوا ، عادوا فقالوا : ولكن لا بدّ أن الإنسان قد ترقى صعداً إلى ما هو عليه الآن عن طريق التطور والارتقاء ؟! .. فمن أين جاء اتفاقهم على (لا بدّ) هذه ؟

والجواب : أن هؤلاء الباحثين لم يضعوا في بداية بحثهم جميع الاحتمالات الموضوعية المتعلقة بهذه المسألة تحت مجهر واحد من النظر والفحص ، وهو ما يسمى عند العلماء : (الاستقراء التام) وهو شرط أساسي للدخول في أي بحث علمي . بل نبذوا من احتمالات الأمر ما لا رغبة لهم فيه . ولم يقفوا عنده بأي تأمل أو نظر ، ألا وهو احتمال أن تكون الحقيقة كما فسرها الخالق نفسه في محكم كتابه ! . ثم حصروا بحثهم في النطاق الذي اختاروه لأنفسهم ، وضمن هذا النطاق جالوا وبحثوا عن النشأة الأولى وأصل الخلق وعلاقة الإنسان بالحيوانات الأخرى . وهذا ما يسمى عند العلماء بالاستقراء الناقص .

فكان عليهم (وقد حكموا على أنفسهم بهذه المساحة الضيقة في البحث) أن يتخيروا أقرب الحلول التي يجدونها أمامهم . فإذا لم يعثروا على ما يتفق والأدلة العلمية ، فإن عليهم أن لا يرجعوا ـ على كل حال ـ بأفكار فارغة . إذ أن الرجوع بافتراض ما ـ مهما كان محاطاً بالشكوك والريب ـ أليق بطموح الفكر من الرجوع بموقف سلبي حائر .

أي أن قبول هؤلاء الناس لأي مذهب يفترض فكرة التطور في تاريخ نشأة الإنسان ، مهما كان فيه من النقائص والثغرات ، أقرب إلى القناعة الإنسانية من القول بأن الأرض أو السماء قد انشقت فجأة عن كائن معقد الصنع عجيب الطوية ، يهدد الأرض بقوته ويطمح إلى القمر بسلطانه ، ذلك لأنه إن لم يقبل بالفرضية الأولى على علاّتها ، لا بدّ أن يجد عقله مرغماً على هذه الأخرى . ومن منا يتردد في اختيار الحل الأول ، عندما نجد أنفسنا محصورين في مضيق ليس فيه إلا أحد هذين الحلّين ؟ .

ولا ريب أن هذا الاختيار يستند إلى منطق .. ولكنه منطق نسبي يأتي على قدر المضيق الذي حبس هؤلاء الباحثون أنفسهم فيه . ولكنه جنوح خطير عن سبيل البحث العلمي الذي يجب أن ينهض على الاستقراء التام واطّراح الرغبات والأهواء عن الطريق .

غير أن هذه النتيجة التي أُلجؤوا إليها إلجاءً ، لا تلزمنا نحن بحال . فإننا ننطلق في بحثنا لهذه المسألة وغيرها من استقراء الاحتمالات كلها ، بما فيها تقرير الخالق جل جلاله ، دون أي تفريق بينها في بادىء الأمر .. ثم لما رأينا سائر نظريات التطور تعاني من وطأة انتقادات هامة وجهت إليها ، ورأينا كلاً منها يصرع الآخر ويبطله ، أيقنا أن الحق الذي يهدي إليه العلم في هذا الموضوع ، هو ما يقرره الخالق نفسه ، في بيان واضح قاطع لا يترك مجالاً لريب .. فسلوك هذا الطريق لا بدّ أن يوصل إلى هذه النهاية ، وهو طريق علمي لا محيص عنه لمن أراد أن يكون موضوعياً في البحث والنظر ، وهو ما يسميه العلماء بمسلك السبر والتقسيم ، أو الحصر والإسقاط .

وانظر ، كم يشعر الإنسان بطمأنينة النفس والعقل ، عندما يعود من رحلته مع تلك النظريات المتصارعة المتخاصمة ، ليجد نفسه أخيراً أمام هذا البيان الإلهي الأخاذ :

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف ٥١]

ولكن الإنسان لن يستشعر بما يمتد لهذه الآية من ظلال الطمأنينة ، إلاّ بعد أن يقوم بسياحة فكرية وعلمية إلى أجواء سائر تلك الآراء والنظريات ، ويرى طبيعتها ، ويقف على حصيلة البحث فيها .

لذا أعود فأقول مؤكداً : إننا لا نصد أنفسنا ولا نصد الناس عن متابعة كل ما يقوله الباحثون في هذه المسألة ، بل ندعو إلى القراءة والمتـابعـة ذلـك لأن اليقين بأحقية القرار القرآني الصريح ، إنما يأتي ثمرة الوقوف على مـدى الاضطراب الـذي يشيع في النظريات الأخرى .

موقفي من صاحب التفسير العصري للقرآن[1]

كنت ، ولا أزال ، أتابع هذا الذي يكتبه الدكتور مصطفى محمود في (صباح الخير) حول محاولته العصرية لتفسير جوانب من القرآن .

ولم يكن لدي ما يدفعني إلى تتبع فصوله هذه ، لولا أنها ذكرتني باليوم الذي عرفت فيه هذا الرجل من خلال أول شيء قرأته له .

كنت إذ ذاك في القاهرة ، في عام ١٩٥٧ م ، وفي بارقة زمنية قصيرة ، لمع واختفى كتاب اسمه (الله والإنسان) لمصطفى محمود ، ولم تطل هذه اللمحة الزمنية أكثر من ثلاثة أيام ، فقد صودر الكتاب وجمعت نسخه المنتشرة في كافة المكتبات والأكشاك .

وقد وقع الكتاب في يدي ، فأتيح لي أن أتصفح معظمه .. لقد كان الكتاب محاولة عصرية أيضاً ، ولكنها محاولة لتفسير الحقيقة الإلهية وعلاقة الإنسان بالله . وانتهى الكاتب الصحفي من محاولته هذه إلى أن الله عز وجل ليس إلا وهماً جسدته الحاجات المختلفة لدى الإنسان .

وانطوى عني اسم مصطفى محمود ، في تلافيف هذا الكتاب الذي انطوى من السوق خلال ثلاثة أيام من ظهوره ، إلى أن انتشر من جديد في محاولته العصرية الثانية .

ورأيته في محاولته الثانية هذه يمزق كتابه الذي نشره قبل ثلاثة عشر عاماً صفحة

(١) نشر في مجلة الوعي الإسلامي عام ١٩٧٠ م .

صفحة ، ورأيته من خلال كل سطر يكتبه في مقالاته الجديدة اليوم يستغفر الله من اللغو الذي خاض فيه بالأمس ، ورأيته لا يستشهد بالآية من القرآن إلا ويقول في رأس كلامه عنها : يقول ربنا جل جلاله ، أو يقول أحكم الحاكمين جل جلاله .. يؤكد بذلك نسبة هذا الكتاب إلى الخالق عز وجل .. ورأيته لا يقف عند حد الإيمان بالله وكفى ، ولكنه يأبى إلا أن يوضح بالدليل العلمي الذي لا يقبل الريب أن هذا الكتاب ليس من صنع محمد ﷺ ، وما ينبغي وما يعقل أن يكون من صنع بشر .. ورأيته يلمس بفكر متشبث مطمئن ، وبنفس منتشية راضية كثيراً من أماكن الإعجاز في القرآن ، ورأيته يلح في محاولة تنبيه العقول إلى الحقائق العليا التي تنبه إليها عقله ، ووعاها فكره واستيقنتها نفسه .

ثم تابعته ، وهو يتحدث في جانب آخر من أخطر وأهم الجوانب التي عالجها كتاب الله عز وجل .. جانب التسيير والتخيير في حياة الإنسان ، وأمسكت قلبي بيدي وأنا أسير متئداً وراء محاولته الخطيرة هذه .. ولكني والله رأيت الرجل الذي كان يحاول بالأمس أن يجعل من حقيقة الله عز وجل وهماً في حياة الإنسان ، يجعل من حقيقة التسيير والتخيير في حياة الإنسان أكبر شاهد على عظمة الخالق وعدله ، ورأيته وهو يتناول آيات القرآن المتعلقة بهذا الموضوع يعالجها على ضوء مصباح يتقد إيماناً ويقيناً بالله عز وجل .

ومضيت أتابع سيره الجديد ، على درب الإيمان بالحقيقة العظمى التي ما ينبغي أن يضل عنها أي عقل ، فرأيته يتحدث عن الإنسان ونشأته كما يقرر القرآن ، ورأيت الرجل وهو يعالج هذا البحث ، كأنما تتنازعه أفكار وفرضيات مختلفة تطوف كلها مجتمعة في رأسه ، وهو يريد أن ينفلت منها ليتفرغ إلى وحي هذه الآيات ، وينصت إلى صريح قرارها وواضح تبيانها ، ولكن تلك الأفكار والفرضيات لا ترتد عنه إلا وهي مقبلة إليه ، ولا تدع رأسه إلا وفي أذنيه منها وسوسة وطنين .

فكان أن انتهى من محاولته في تفسير الآيات المتعلقة بنشأة الإنسان ، إلى ما يشبه من يريد أن يعقد صلحاً بين مجموع هذه النظريات والفرضيات ، وما يقرره كتاب الله تعالى في يقين وحزم .

ثم انطلق ينفض يديه من هذه المشكلة والخصومة التي عز عليه أن يجد فيها غالباً ومغلوباً

لم أعلق كبير اهتمام على هذه الظاهرة التي تجلت خلال محاولة كاتبنا المؤمن ، بل السعيد بإيمانه ونشوة يقينه ، فطبيعي جداً أن يتقابل إيمانه الغض مع رواسب فكرية مختلفة تجمعت في قاع نفسه خلال مغامراته الثقافية والفكرية المختلفة ، وطبيعي جداً أن يتزاحم القديم والجديد بين جوانحه إلى حين ، وأن يتقاربا إلى بعضها كلما سنحت فرصة ، عسى أن يتعارفا فيتحدا في ظل تعايش سلمي معقول . ولكن الرواسب ستضطر أخيراً إلى أن تهاجر من موطنها الذي طالما تمكنت فيه . لقد كان يتاح لها أن تعيش وتستوطن في ذلك الفراغ الرحيب من الشك . والشك خير مهاد يترعرع فيه مختلف النظريات والفرضيات والأوهام ، وعندما يعمد يقين الإيمان إلى اقتلاع هذا الفراغ وإقصائه من طوايا النفس ، فإنه يقصي معه أيضاً كل ماترعرع وتجمع في داخله من الأوهام والفرضيات .

ثم رأيت الكاتب ينتقل من مجالات العقيدة في القرآن ، إلى البحث في تشريعاته وفلسفة أحكامه ، ورأيته يتناول حديث الحلال والحرام في القرآن .

وأمعنت ، فرأيت النقلة بين أحاديثه السابقة في العقيدة والإيمان ، وحديثه الجديد عن السلوك والمعايير نقلة بعيدة وعويصة .

إنه يريد أن يفصل بين الوسيلة والغاية في أمر السلوك وأغراضه السامية ، أي أنه يريد أن يثبت بأن السمو النفسي والنظافة الإنسانية ، من اليسير عليهما أن يتحققا دون وساطة قنطرة من القيود السلوكية المعينة . فمن اليسير أن يتعفف

كل من الرجل والمرأة ، ويترفعا عن الجنوح الشهواني وقبائحه ، دون أن يقوم بينهما حاجز من حراسة الحجاب أو تنظيم السلوك أو ضبط الحريات . ومن اليسير أن تتلاق الأجسام العارية على الشطآن الملتهبة ، وتكون أفكار الجميع منصرفة مع ذلك إلى زرقة السماء ، وآيات الله المنبسطة على صفحة البحر .. وهكذا يستطيع الإنسان أن يمارس حريته في الانطلاق أمام الدوافع المختلفة لأي تطور من التطورات العصرية ، ويحافظ في نفس الوقت على الغايات السامية العليا التي قامت عليها شرعة الحلال والحرام في القرآن .

لم أعجب لهذا الكلام قط .. ولم أجد في بعد النقلة والفجوة بين طبيعة مقالاته السابقة وحديثه الجديد هذا أي شيء يدعو إلى الاستغراب .

ولقد قال لي بعضهم أرأيت ؟ لقد كان الرجل يمهد في كتاباته الأولى لهذه المكيدة التي طرحها فجأة بعد أن تكاثرت الأنظار من حوله ، لتجد أمامها مزيداً من الرواج ، وسبيلاً أعرض إلى النفوس .

قلت لا . إن الرجل كان صادقاً مع نفسه في كتاباته الأولى ، وهو صادق مع نفسه فيما كتبه اليوم . ولكن السر في الفجوة التي قامت بينهما تتمثل فيما يلي :

أولاً : إن محاولة التخلص من العقائد والأفكار الباطلة ، أيسر بكثير من محاولة التخلص من السلوك المنحرف ، فالتحرر من الأولى لا يكلف صاحبها أكثر من يقظة تامة في الفكر والعقل . ومتى استيقظ العقل اندفع بطبيعة الحال إلى اطراح الزيف واعتناق الصحيح ، أما التحرر من السلوك المنحرف فإنه يكلف صاحبه جهداً عظيماً يقع أهم أعبائه على النفس ، ويذهب ضحيته كثير من شهوات الإنسان وأهوائه ، وهيهات أن يقوى كل إنسان على مثل هذا التحرر الذي يكلفه كل هذا الجهد .

لذلك كان الفارق بين الإيمان بالفضيلة وتطبيقها ، فارقاً عظيماً . الإيمان

بالفضيلة شيء سهل على الفكر والعقل لا يكلفها أي قيد أو فطام . فمن أجل ذلك كان المؤمنون بها هم أكثر المنصفين من الناس ، أما تطبيقها فـأمر عسير على النفس وأهوائها يكلفها أن تنفطم عما لا صبر لها عنه ، ولـذلـك كان الـذين يمـارسونهـا ويأخذون أنفسهم بها طائفة يسيرة من الناس .

وهذا مـا يعبر عنـه المربي الفرنسي (جـان جـاك روسو) عنـدمـا يقول « كم قيل ، وأعيد القول عن الرغبة في إقامة الفضيلـة على العقل وحـده ، ويـا لـه من أساس متين . أي أسـاس هـذا ؟ إن الفضيلـة كما يقولون هي النظـام ، ولكن هل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلب على مسرتي الخاصة ؟ » .

ثانياً : لقد عـاش الرجل في خضم هـذه المظـاهر التحرريـة دهراً طويلاً من الزمن ، واستيقظ على إيمانه بالله وعقيـدتـه بشرعتـه وأحكامـه ، وإن هـذا الخضم يتلبسـه من كل جوانبـه وأطرافـه . ولا يتـأتى لـه أن يتخلص منـه إلا في صـورة التخلص من الحياة نفسها بأبسط أشكالها ومظاهرها . ثم إنه رأى من طول مراسـه لهذه المظاهر السلوكية المتحررة ، واستمرار إلفه لهـا ، أنهـا فقـدت القـدرة على أن تتـدخل إلى الفكر بـأي محـاولـة تغيير أو إثـارة . فمن اليسير على الإنسـان المفكر بنظره أن يختـط لنفسـه السبيل الفكري الصحيح ، في نجـوة عن تـأثير تطـورات العصر وتقاليده .

ولقد رأى هذا الإمكان بعينه . ألم يتفتح عقلـه للهـدايـة والإيمـان ، وأشرب قلبـه حب التعلق بكتـاب الله تعـالى ، والعكوف على دراستـه ، وهو يلبس هـذا الثوب المنسوج في سداه ولحمتـه من أقصى مظـاهر التحرر السلوكي ، التي تفور بهـا المكاتب والردهات المحيطة به ؟

إذن ، فلقد تحققت الغـايـة بـدون التعب وراء أي وسيلـة ممـا أنيـط بـه حكم الحلال والحرام .

أقول هذا الكلام اعتذاراً عن الذي وقع فيه كاتبنا الحر الصادق مع نفسه فيما أعتقد . لا اعتذاراً عن الحقيقة نفسها ، فالحق لا محيد عنه في حال من الأحوال، ومهما تجمعت الأعذار ، فإنها لن تقوى على نسخه أو تغييره ما دامت هناك حقيقة ذاتية مطلقة ، وليست أمراً نسبياً موقوتاً .

ولذلك فلا بد من أن أضيف إلى اعتذاري عن الدكتور مصطفى فيما قاله عن الحلال والحرام ، مناقشة سريعة حول البحث نفسه .

لن أتحاكم معه إلى النصوص القرآنية ودلالاتها ، ولا إلى الحدود والضوابط التي يجب على الإنسان التزامها لدى تفسير الألفاظ وأخذ المعاني منها ، ولا إلى القواعد المعروفة في كيفية الأخذ بدلالات الألفاظ ، وهي القواعد التي إن لم يأخذ بها المتكلم أو السامع انقطعت صلة التفاهم بينه وبين الآخرين ، وأصبحت اللغة التي تشيع بينهم ـ أيا كانت ـ كلاماً فارغاً لا طائل تحته ولا مدلول له .

أجل . إن الإنسان عندما يسمع هذه الآية ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ وَلا يُبْدينَ زينَتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور ٣١] ثم يخرج في تفسير الفقرة الأخيرة منها عن سلطان اللغة ودلالتها ومنطوقها ومفهومها ليستخرج منها دلالاتٍ أخرى بدلاً منها ، فمعنى ذلك بكل بساطة ووضوح ، أنه يعلن عن عدم حاجته إلى اللغة وسيطاً بينه وبين أفكار الآخرين ، ومعنى ذلك أيضاً أن الله عز وجل قد رصف كل هذه الألفاظ والجمل إلى جانب بعضها دونما حاجة إليها ، وقد كان أحرى به أن يقول بدلاً عن كل ذلك (قل للنساء يتعففن) .

أقول : لا أحب أن أناقش الدكتور من هذا الجانب .. فربما كان الرجل بعيداً في اختصاصه العلمي عن الخوض في هذا المجال الذي قد لا يصلح للخوض فيه إلا علماء التشريع .

ولكنني أسير معه في الطريق الآخر الذي فضل أن يسير فيه إلى نظريته الطريفة عن الحلال والحرام ، وقد كانت طريقته الفضلى إليها التحليل النفسي .

يرى الدكتور مصطفى أن المهم في أحكام الحلال والحرام في القرآن أن يسمو الإنسان إلى صعيد من التربية الإنسانية الفضلى ، فليس المهم في تحريم النظر إلى مفاتن المرأة الأجنبية ألا يحدق النظر فيها بعينيه ، ولكن المهم ألا ينحرف معها إلى ممارسة أي رذيلة ، وليس شيئاً مرضياً عند الله أن يغمض عنها عينيه في الوقت الذي ينحط معها إلى ارتكاب الفواحش .

وهذا كلام صحيح ، ولكن صحة هذا الكلام لا تستلزم إمكان التلاعب بالحكم إطلاقاً ، وهنا تبرز نظرية الكاتب . إنه يريد أن يقول : إذا عرفت الغاية من شرعة الحلال والحرام ، فلنركز على الغاية دون أن نضيع وقتاً طويلاً أو قصيراً في وسائلها الشكلية التي لا معنى للتقيد بها إلا التخلف عن مقتضيات التطور والانحباس في أقفاص من النظم والعادات العتيقة ، وعلى هذا فإن كل ما يطالب به ذلك المسلم الذي يتقلب على رمال الشاطىء في الاسكندرية هو أن ينظر إلى الأجساد العارية من حوله ببراءة وطيب خاطر ، وأن يسمو بنفسه وفكره صعداً .

فنظرية الكاتب تنحصر في دعوى إمكان تحقيق الغايات الإنسانية دون الاستعانة بشيء من وسائلها ، وهذا ما نخالفه فيه ويخالفه فيه كل باحث .

إن السارق لا يعتبر سارقاً بنظر كل من الشريعة والقانون إلا إذا استل المال من حرز مثله ، واللوم الذي يقع على صاحب المال بسبب عدم حفظه له أكبر من اللوم الذي يقع على السارق الذي أخذه من الأرض بدون حق ، مع أن السارق كان بوسعه أن يسمو عن ارتكاب هذه الجريمة دون الحاجة إلى إخفاء المال عنه .

والمجرم لا يعتبر مجرماً يقع تحت طائلة العقوبة القانونية إلا إذا كان قد

ارتكب جريمته في ظروف أمكنتـه من الاطلاع على عقوبتهـا المقررة ، ومهما قيل عن ضرورة تسـامي هـذا الإنسـان عن مقـارفـة مـا ارتكب بقطـع النظر عن أي عقوبة أو جزاء ، فإن هـذه الضرورة لا تشكل أي مسؤوليـة تنـاط بـه بحيث يجرم من أجلها .

إذن فهنـاك ظروف تسـاعـد على الانحراف إلى الخطيئـة ، وظروف أخرى تساعد على الابتعاد عنها ، ولا يمكن للقانون أيـاً كان مصـدره أن يتجـاهل هـذه الظروف ولا يبالي بها .

والحق الذي لا شك فيه هو أن الشريعـة الإسلاميـة لا تشرع للإنسـان غـايـة نبيلة إلا من حيث تشرع السبيل إليها ، ولا تحذره عن نهايـة سيئـة إلا من حيث تنهاه عن تعاطي أسبابها ، والإنسان لدى التحقيق إنمـا يملـك اختيـاره في السلوك ما دام يتابع خطاه في طريق الوسائل والأسبـاب ، فـإذا تجـاوزهـا أصبح تلبسـه بالغاية أمراً حتمياً لا مناص منه ، ولا اختيار له فيه سواء كانت الغايـة بحـد ذاتها خيراً أم شراً .

وانظر إلى دقـة القرآن في التعبير عن هـذا المعنى عنـدمـا يقول ﴿ ولا تَقْرَبوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَمـا بَطَنَ ﴾ [الأنعـام ١٥١] ﴿ وَلا تَقْرَبوا الزِّنى إنَّـهُ كانَ فـاحِشَـةً وَسَـاءَ سَبيـلاً ﴾ [الإسراء ٣٢] ﴿ وَلا تَقْرَبـوا مَـالَ الْيَتِيم إلا بـالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعـام ١٥٢] أرأيت ؟ إنـه لا يقول لا تقترفوا الفـواحش أو الـزنـا أو تأخذوا مال اليتيم ، ولكنـه يقول لا تقربوا ، أي لا تسلكوا السبيل التي تنتهي بكم إلى ارتكاب الزنى والفواحش المختلفة ، فهو إنمـا ينهـانـا عن ممـارسـة أسبـاب هـذه المنكرات لأن ذلك هو الضمان الطبيعي للحيلولة دون وقوعها .

أما إذا مـارس الإنسان أسباب المحرمات ،وخاض سبيلها ، فهيهـات أن يملـك قوة تقف به عند نهاية الطريق وأول الغاية ، وقد يكون ثمة شذوذ عن القاعـدة ، ولكن الشاذ لا حكم له عند أي مفكر قانوني منصف .

وهذا يعني أن الله عز وجل عندما حـذر من الزنى ، إنما حـذر منه بتحريم أسبابه الموصلة إليه من تبرج ، واختلاط وخلوة ، وتلامس ، ومقدمات .. ولو تأملت لوجدت أن هذه الأمور التي حرمها لا تنطوي بحد ذاتها على أي مفسدة أو سوء ، ولا معنى لتحريمها لو نظر فيها إلى جوهرها ومضمونها ، ولكن مفسدتها في كونها جسراً يعبر منه إلى ما هو السوء الحقيقي .

هذه الحقيقة ، لا يماري فيها أي باحث ، ولا أعتقد إلا أن الدكتور مصطفى محمود يؤمن ويصدق بها كأقوى ما يكون الإيمان والتصديق .

ولكن لعله يريد أن يناقشها من جانبين :

الجانب الأول :

أن الابتعاد عن ممارسة الأسباب قد يتجرد في بعض الأحيان عن فائدته المرجوة ، وذلك عندما يخترع الإنسان للوصول إلى الفاحشة أسباباً أخرى ، كتلك التي تحتجب وتتستر ، ولكنها تبعث بفنون إغرائها من وراء الحجاب ، بل بواسطة الحجاب نفسه .

والجواب على هذا واضح . إن الشارع جل جلاله حرم اتخاذ كل وسيلة (طبيعية كانت أو مصطنعة) إلى الفواحش والمنكرات ، واستبدال وسيلة بأخرى لا يغير من حكم الأولى ، أي أن اتخاذ مظهر الاحتشام نفسه سبيلاً إلى عرض المفاتن ليس دليلاً كافياً على مشروعية التعري والتبذل في المظهر .

والجانب الآخر :

إن شيوع سبب من أسباب الإغراء والتنبيه إلى الفاحشة ، يجعله من الابتذال بحيث يضعف أخيراً عن أداء غرضه الأصلي ، فيصبح مظهراً طبيعياً لا إيحاء فيه ولا حياة ..

وهذه نظرية عتيقة جداً ، يرددها كثير من المثاليين ، ولا أظن أن يكون الدكتور مصطفى واحداً منهم بحال ، وهي نظرية وهمية لا تستند إلى أي دلالة تطبيقية .

إن تحليل الأمر في ذلك ، هو أن سر الإغراء في عرض ما يتعرى من الجسد مثلاً ، إنما هو في دلالته على الخفي منه .. فإذا مضت مدة من الزمن على الحد الفاصل بينهما ، ضعفت الصلة بينهما أمام الأبصار ، فخف أثر الإغراء ، ويكون ذلك هو الدافع إلى التلاعب بالحد ، وزيادة نسبة العري ، فإذا مضت مدة أخرى آل الأمر إلى مثل ما آل إليه الوضع الأول ، وهكذا تقوى وسيلة الإغراء كلما بدا الشعور بضعفه ، ومع اشتداد وسيلة الإغراء بسبب هذا الدافع تشتد معها نسبة الفواحش أو نسبة الاضطرابات النفسية عند الناس بسبب مقاومتها أو معالجتها .

وإذن ، فلا معنى للحديث عن هذه النظرية ، لأن العجلة سائرة على كل حال ، وليست بواقفة ، ففي كل يوم فن من الإغراء جديد ، ولا يكاد الفن من فنونه يتقادم ويفقد بعض مؤثراته حتى يأتي من ورائه فن جديد يحمل أقوى عناصر التأثير .

وإذن ، فكيف يكون العلاج ؟ إن العلاج إنما يكون باجتثاث الجرثومة من أساسها ، وبتدارك الأمر عند أول محرك تتوالد عنه المراحل المتتالية الأخرى .

هذا شيء . وشيء آخر يعرفه كل منصف ، هو أن مظاهر الإغراء التي قد تفقد بعض تأثيراتها بسبب طول الاعتياد وكثرة الشيوع ، إنما تفقد ذلك عند من خاضوا غمارها خلال مرحلة طويلة من الزمن ، فعادوا وهم لا يحفلون بها ، لا لأنهم قد تساموا عليها ، ولكن لأنهم قد بشموا بها .

إن رؤية المناظر والمواقف الجنسية المختلفة في بلدة كالسويد مثلاً ، يعتبر أمراً عادياً لا يثير استغراباً ولا إهانة ولا استهجاناً لدى أولئك الذين نشؤوا وعاشوا في

تلك الأجواء ، فهل يعني ذلك أنهم قد تجاوزوا مرحلة التأثير بدواعي الانحراف وأسبابه ، فهم لا ينحطون إليها ولا يتأثرون بها ؟ .

كلنا يعلم أن هذا الذي يمر بهذا المشهد الجنسي المكشوف غير عابىء به ولا ملتفت إليه ، قد تجده بعد ساعة يمارس نفس العملية في مكان آخر ، فعدم الاكتراث والتأثر بمظاهر الإغراء إنما هو نتيجة انتشار اللذة رخيصة في كل مكان ، وليس نتيجة فهم معين أو جديد لما تبصره عيناه .

والذي يتصور تحقق الأمر الأول دون اشتراط تحقق الأمر الثاني ، إنما هو كمن يتصور إمكان زهد الجائع في الطعام ، وعدم الالتفات إليه إذا ما انتثرت أطباقه الشهية أمام عينيه عن يمين الشارع ويساره .

والخلاصة :

أنني لا أشك في صدق الدكتور مصطفى محمود مع نفسه فيما عرض ويعرض له من بحوثه حول القرآن . ولكني أريد منه (وهو العالم النفسي المختص) أن يمعن في هذا الذي أقول ، ويتهم نفسه قليلاً فيما أوحت إليه عن فلسفة الحلال والحرام .

على أن من الطبيعي جداً أن يمر الدكتور (إذا علمنا مبدأ رحلته الفكرية) بهذه المرحلة من التصور . ولكني على يقين ، أنه سرعان ما يتجاوزها نحو الاستقرار الأعمق والأتم .

عودٌ إلى صاحب التفسير العصري للقرآن

منذ سنوات خلت ، كتبت مقالاً ، أدافع فيه عن الدكتور مصطفى محمود وتفسيره العصري الذي خرج به على الناس للقرآن ، فأثار سخط كثير منهم ، لما رأوا فيه من التسرع في الرأي والخروج عن قواعد التفسير وبعض أصول الاعتقاد .

وكان منطقي في الدفاع عنه ، أن الرجل قد اتجه إلى سبيل الإيمان بالله عز وجل ، وهو مثقل بأحمال الماضي .. إذ كان التفسير المادي أو الطبيعي هو الباب الوحيد الذي ينفذ منه إلى خزانة عقله كل مظاهر الحياة وحقائق العلم ووقائع التاريخ !.. وإنما هو الآن يسير في منعطف ، من ورائه كل ما قد خلفه من أخيلة الكفر وأباطيل الهوى وتخبطات الفكر ، وأمامه كل ما يستقبله من حقائق الإسلام ومعالم الهداية وأسرار الحياة . فلاجرم أنه لم يتخلص بعد من سائر أثقاله العالقة بنفسه وفكره ، ولم يملك بعد من صفاء الذهن عن شوائب الماضي وأصدائه ما يقبل به على حقائق الإسلام مشرقة نقية عن المزيج والدخيل .

ثم إن الرجل صحافي . تعود أن يمسك القلم ويقف بالمرصاد لكل فكرة تسنح له . فما هو إلا أن يسرع فيسجلها ويحدث الناس بها . ولقد رأى اليوم نفسه فجأة بين ذخر عظيم من علوم القرآن وحقائق الإسلام ودراسات الأئمة والعلماء ، وقلمه لا يزال في يده ، وطبيعته الصحافية مشتعلة بين جنبيه ، فأقبل إلى كل ذلك بروح صحافي هاوٍ للسبق الصحافي وقع على كنز من الأخبار والطرائف ، فما هو إلا أن راح يلتهمها بعينيه وقلمه قبل أن يسبقه إليها غيره ، وقبل أن يهضمها فكره . لا ريب أنه لن يتريث والحالة هذه ، ولن يقف من الأئمة والعلماء الباحثين موقف التلميذ المتئد من أستاذه المعلم .

غير أنه لابد أن يتجاوز هـذا المنعطف . وأن يتخلص من رواسب المـاضي . ولابـد أن تصفو أسبـاب الرؤيـة أمـام بصيرتـه لجميع حقـائق الإسـلام . ولابـد أن يثاقل القلم إذ ذاك في يده ويكفكف من جماح الـدفع الصحـافي في كيـانـه ، وأن يسير بخطى وئيـدة وسـط مشـاعر الخـوف من التعثر والانـزلاق أمـام الخـوض في قضايا مصيرية يتحمل الإنسـان جريرتهـا وينهض بمسؤوليـاتهـا يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ، إلا من رحم الله .

كان هذا خلاصة كلام قلته آنـذاك بصـدد الاعتـذار للـدكتور مصطفى محمود أمام خصومه الذين أسرعوا بتوجيه اللائمة الشديدة إليه .

واليوم ، وقد انقضى من هذا الاعتذار عنـه سبعـة أعوام ، أنظر ، فـأجـد أن الدكتور مصطفى محمود ، لا يزال واقفاً في منعطفه ذاك ، يخلط رؤيته الإسلاميـة الحديثة بالكثير من رواسبه الفكريـة القـديمـة . ولا يزال يسرع إلى أي تصور قـد يقفز إلى خاطره عن معاني القرآن وحقائق الإسلام ، ينشره ويـدعو إليـه ، دون أن يحكم في ذلك أي برهان أو يقف عند ميزان ، وكأنما هي عنده جملة فلسفات أو نظريات إنسانية ، وليست قرارات إلهية يخاطب بها رب العـالمين عبـاده ليحملهم مسؤولية تنفيذها وليحاسبهم يوم القيامة على تضييعها .

وأنظر إليه وهو لا يزال ثابتاً في منعطفه ذاك ، يلقي الحـديث على عواهنـه في تفسير كل آية وتحليل كل حكم ، في جرأة غريبـة لاتتفق إطلاقـاً مع مـاللقرآن من رهبـة في نفس كل مؤمن . وأذكر مع هـذه الصورة موقف رجل مثـل أبي بكر رضي الله عنه عاصر رسول الله ﷺ وأخـذ منـه ، وكان عربي السليقـة واللسـان ، يسألـه رجل عن معنى كلمـة في آيـة ، فيوجل ويحجم قـائلاً : « أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ، إن أنا قلت في كتاب الله بما لا أعلم » ؟.

أنظر إلى هذه الصورة وتلك . فأسأل نفسي : هل كان الذين انهالوا باللائمـة

على مصطفى محمود قبل سبع سنين على خطـأ فيافعلوا ؟. وهل كنت على حق في اعتذاري له ودفاعي عنه ؟

ألم يأن لهذا الرجل ـ إن كان مؤمناً حقاً بأن كتـاب الله هو كتـاب الله ـ أن يسمو به عن استطلاعاته الصحافية ، وأن يقصر عن سياحته الاستشراقية الطليقـة بين سوره وآياته ، ثم يقف أمامـه مرتـديـاً جلبـاب العبوديـة والإجلال ، مـدركاً بعقلـه ووجـدانـه أنـه أمـام كلام متكلم لم يصل النـاس إلى مراده برؤيتـه والسماع منه ، كما هو الشأن في كلام الناس ، ولا إمكان للوصول إلى ذلـك في دار الـدنيـا ، ليدرك مايحيط به من سور الرهبة والجلال الذي يمنع قارئه المؤمن بحقيقته من أن يسرع فيقتحم إليه بالشرح والتأويل ، كما يفعل ذلك بأي نص من كلام البشر .

لقد قام في نفسي هذا التساؤل ، ودفعتني الريبة إلى الإجابـة بشيء أخشى أن أكون متسرعاً فيه ، عندما قرأت مقـالاً لـه منـذ بضعـة أسـابيع في مجلـة (صبـاح الخير) يفسر فيهـا قـول الله عـز وجـل : ﴿ والسّـارِقُ والسّـارِقَـةُ فَـاقْطَعـوا أَيْدِيَهُما ﴾ [المائـدة ٣٨] أو بتعبير أصح : ينقل تفسيراً لهـذه الآيـة عن المستشـار مصطفى كمال المهدوي ، في إطار من التزويق والترويج والاستحسان ، ويجمع من حوله أسباب القبول لـه والرضـا بـه ، ثم يبـارك للمستشـار المهـدوي هـذا الفهم ، ويقرر أن فيه التزاماً واحتراماً (؟!) وأنه جدير بالاستماع والقبول !

وخـلاصـة التفسير ، أن أداة الجنس الـداخلـة على السـارق وهي (أل) إنمـا جاءت لتدل على أن المقصود بالسارق من قد مارس السرقة حتى غدت حرفة لـه ، كقولنا : الفارس ، والكاتب . وعلى هذا ، فإن الذي تقطع يده بحكم الآيـة ، إنمـا هو ذاك الذي غدا محترفاً للسرقـة من كثرة مـاسرق !.. أمـا من قـد سرق مرة أو مرتين .. ولم يصل إلى درجة الاحتراف فلا يقع تحت طائلة هذه الآية وحكمها .

ثم إنه يمد رواق هذا التفسير على قوله تعالى : ﴿ الزّانِيَةُ وَالزّاني فَاجْلِدوا كُلَّ

واحِدٍ مِنْهُما مائَـةَ جَلْـدَةٍ ﴾ [النور ٢] ويقرر أن الزاني ، بحكم دخول أداة الجنس عليها ، هو ذاك الذي أصبح من كثرة مامارس الفاحشـة داعراً ، وأن الزانيـة هي التي غـدت من كثرة انحرافهـا بغيـاً . فهؤلاء هم الـذين تعنيهم الآيـة بـاستحقـاقهم عقاب الجلد .

لقد عجبت لهذا الكلام عجباً لا ينتهي .

أأفرض على قلبي من البساطة ما يوصله إلى حد الغفلة والبله ، فأتصور حسن النية وسلامة القصد وأقرر أنـه الجهل . الجهل بـأبسـط معـاني الكلمـات والحروف وقواعد اللغة العربية ، وأن الـدكتور مصطفى محمود قـد وصل من جهلـه بـاللغـة العربية إلى درجة أنه لا يعلم بعد أداة الجنس ومعناها ، وأنه يتصور حقـاً أن معنى الاحتراف قد نبع من (أل) في كلمة الفارس لا من مادة فارس ذاتها ، وأنه قد نبع من (أل) في كلمة (الكاتب) لا من مادة كاتب ذاتها ، وأنه لا يدرك أن بين مادة (فارس ، وسارق) من الفرق في هذا الصدد مثل ما بين المشرقين !.

أأفرض أنه الجهل . والجهل وحده بأبسط قواعد اللغة العربية جعل الـدكتور مصطفى محمـود لا يعرف أن (أل) في مثـل كلمـة (السـارق والـزاني) تسمى أداة الجنس ، وأداة العمـوم ، وأن وظيفتهـا أن تـدل على أن أي رجـل سرق فعقـابــه القطع ، وأي إنسان زنى فعقابه الجلد ؟!

أأغمض العين وأفرض أنه الجهل الفادح بالبدهيات من قواعد اللغة العربيـة ، يجعله يتصور حقاً ، أن معنى القاتل مثلاً في قول المشرع : القـاتل يقتل ، الرجل الذي ظل يمارس القتل حتى احترف القتل وأصبح سفـاحـاً ، وأن معنى البـائع في القاعدة الفقهيـة : المبيع قبل القبض من ضمان البـائع ، الرجل الـذي شـأنـه البيع والصفق في الأسواق حتى غدا معروفاً بذلك ، فهو الذي تنطبق عليه هذه القاعـدة الفقهيـة ، وهل يتصور حقـاً أن رجـال القضـاء والقـانون هكـذا يفهمون الكـلام العربي المبين ؟!.

أأفرض أنه الجهل ، ولا شيء غير الجهل ، بالحديث الصحيح المشهور الذي رواه الشيخان وغيرهما عن النبي ﷺ أنه « أمر بقطع يد المرأة المخزومية الشريفة التي سرقت ، ثم قال رداً على من جاء يشفع في حقها : وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ؟!.

ومهما يكن ، فإن الرجل لا يقيم وزناً لأحاديث النبي ﷺ في معرض آرائه التي يفسر بها القرآن ، مؤكداً أن السنة لم تسلم من التغيير والتحريف . ولذلك فهو يقرر في حزم أن عقاب الزنى ـ عندما يصبح الزاني محترفاً ـ هو الجلد فقط ، لأن (الرجم لم يرد به حرف واحد في القرآن) .

ولست أدري كيف نؤدي الصلاة المكتوبة ، وليس في القرآن حرف واحد يتحدث عن كيفيتها ، أم كيف نحج ونزكي ونفهم الربا وليس في القرآن كله حرف واحد يتحدث عن كيفية الحج وإخراج الزكاة وتجنب الربا !.

ولست أدري كيف يقول الله لرسوله : ﴿ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل ٤٤] وهو يعلم ما يقوله مصطفى محمود من أن بيانه ﷺ سوف لن يصل إلى سمع الناس خالياً من التحريف والتغيير .

ومن هم إذن أولئك الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله : « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » أخرجه أبو داود وابن ماجة والدرامي والترمذي وقال حديث غريب من هذا الوجه .

نعم .. من هو هذا الرجل وأمثاله مادام أن أحداً من الناس لن يتلقى من بعده حديثاً عنه خلا من تحريف أو تغيير .

ثم أين ذهبت تلك الجهود الخارقة العجيبة التي بذلها علماء الحديث وتراجم

الرجال في تصنيف أنواع الحديث وضبط قواعد الإسناد بأصول علمية في منتهى المنهجية والدقة ، كانت ولا تزال درة في جبين مكتبتنا الإسلامية وحضارتنا الباسقة . أيذهب كله وينهار بنفثة صحافية في مقال عن تفسير القرآن كتب تحت دخان لفافة إلى جانب فنجان من القهوة ، ثم نشر في مجلة (صباح الخير) ؟.

أحقا أن هذا كله جهل ، جاء بطيب نية وبحسن قصد ؟!.

أم أتسرع في اقتحام كلامه بالتأويل ، كما يتسرع هو في اقتحام كلام الله تعالى بالتفسير والتأويل ، دون أي تهيب ولا انضباط ، فأقرر أنه يتجاهل البدهيات ليعبث بأحكام الله تعالى كما يشاء ، وليمد غاشية من اللبس عليها أمام عقول الناس ، وليجهض هذا الاتجاه العارم لدى صفوة الأمة وشبابها المثقف ، نحو تطبيق حدود الله والتزام سائر شرائعه وأحكامه ؟

ولكني لن أتسرع ، وإن كانت حوافز التسرع لدي هائجة وكثيرة .

بل أكتفي برسم شارات العجب من إنسان يزعم أنه مؤمن بكتاب الله ، الذي لم يصلنا إلا بواسطة رسوله ، إذ أخبر أصحابه بآياته ، فحدثنا الرواة بهذا الذي أخبر به ، ثم يأتي هذا الإنسان ليفرق بين الله ورسوله ، فيقبل القرآن ، ويرفض الطريق الوحيد الذي نفذ منه هذا القرآن إلينا ، حتى إذا فصله عن ضوابط السنة المبينة وعراه عن قيودها وشروحها ، أقبل إليه يؤول فيه كما يريد ، ويحكم فيه ذوقه وخياله دون أن يحمل نفسه في ذلك أي نظر أو جهد !.

إنسان يدعي أنه مؤمن بخطاب الله تعالى إلى الصفوة المختارة من خلائقه ، لابد إذن أن يكون مؤمناً بدقة بيانه وسمو تعبيره ، وبأنه ينطوي على أحكام هي غاية في الخطورة والأهمية في حياة الإنسان : إن زل عنها وقع في شقوة خالدة أو اهتدى إليها نال سعادة الأبد ، أليس عجباً كل العجب أن يذهب في اقتحام هذا

الخطاب بالتأويل والتفسير مذهب من لا يتحمل أي مسؤولية ، ولا يستشعر أي خطورة ، ولا يرى أنه سيحمل غداً جريرة أخطائه وانزلاقه ، وسيبوء بإثم الذين خدعوا بكلامه ، ثم لا يقف وقفة فكر أو احتياط عند قوله ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

أين هي سيما العبودية الواجفة إذ تلتف بكيان المؤمن كله عندما يقف أمام آية من كلام الله تعالى تتجه إليه بالخطاب ؟.

أين هي الخشية التي يتضاءل المؤمن تحت سلطانها إذ يتأمل فيرى أن قيوم السماوات والأرض يخاطبه ببيان أنزله إليه ، إذ رفعه إلى تلك الدرجة الباسقة التي جعلته أهلاً لأن يقول له ولسائر بني جنسه : ياعبادي .

وتراه يظل يستشهد بمواقف المتصوفة وأحاسيسهم ووجداناتهم . ولَتمنيتُ أن لو ذاق شيئاً من خشية أولئك الربانيين ، إذ كانت أعينهم تشخص لمرأى القرآن وقلوبهم تتطاير أوزاعاً عند سماع آياته . ولعله يعلم أن أحدهم أمسك بكتاب الله تعالى ليقرأ فيه ، فأحدق فيه يقول : أهذا كلام ربي !. أهذا كلام ربي !. وظل يرددها في دهشة تتفاقم حتى خر مغشياً عليه !.

☆ ☆ ☆

إلا أن فن الحديث عن الإسلام ، وإبراز مواقف الصوفية من رجاله ، شيء آخر غير الاصطباغ بالإسلام نفسه واتخاذ هذه المواقف ذاتها .

وفَنّيّةُ الحديث عن الإسلام ، رغم أنها عمل مثمر يحقق أرباحاً قد تكون طائلة في مجتمع تطمح فيه البصائر والأبصار إلى عودة الإسلام شرعة ومنهاجاً ، ولكنها في المآل حجة على صاحبها ، وثقل يحمله يوم القيامة على ظهره .

وأياً ما كان ، فإن أصدق كلمة قالها مصطفى محمود في مقاله هذا عن قطع يد

السارق ورجم الزاني ، قوله في معرض تركه للسنة وإعراضه عنها ، والتفاته إلى القرآن فقط (فيما يزعم) :

« والله تعهد بحفظ القرآن من التغيير والتبديل ﴿ إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظونَ ﴾ [الحجر ٩] » .

نعم : تلك أصدق كلمة قالها في مقاله هذا ، وإن جاءت في سياق تسويغه لترك السنة والترفع عن الاحتجاج بها . فالقرآن محفوظ حقاً عن أي يد أو قلم يريد أن يعبث به ، وستظل حقائق أحكامه مشرقة يسمو إشراقها على كل غبش وتلبيس . ولذلك قيض الله للسنة المطهرة من يحميها في حصن حصين من الرعاية والعناية الخارقة إلى يوم الدين ، حتى يتحقق حفظ الله للقرآن بكل أشكاله وأسبابه ومعانيه .

ولسوف يأتي اليوم الذي تعود فيه شريعة الله إلى التطبيق وفقاً لبيان الله المنزل وسنة رسوله الشارحة والمؤيدة ، لا وفقاً لآمال المزيفين والخادعين والمتخصصين بفن الإجهاض .

والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مشكلات الاتباع والابتداع

يتمزق التصور الإسلامي ، في أذهان كثير من المتطلعين إلى فهمه ، في ضرام الصراع القائم بين أولي الإفراط والتفريط ، في فهم الاتباع وحرب الابتداع .

ليس كل جديد بدعة

البـدعـة ، بمعنـاهـا الاصطـلاحي الشرعي ، ضـلالـة يجب الابتعـاد عنهـا ، وينبغي التحذير من الوقوع فيها . ما في ذلك ريب ولا خلاف .

وأصل ذلك قول رسول الله ﷺ فيما اتفق عليه الشيخـان : « من أحـدث في أمرنـا هـذا مـا ليس منـه فهـو ردّ » . وقـولـه فيما رواه مسلم : « إن خير الحـديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

ولكن ما هو المعنى المراد من كلمة (بدعة) هذه ؟

هل المراد بها معناها اللغوي الذي تعارف عليـه النـاس ، فيكون المقصود بهـا إذن ، كل جديد طارىء على حياة المسلم مما لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحـد من أصحابه ولم يكن معروفـاً لـديهم ؟ .. وإذن ، فـالمسلمون كلهم ، من أقصى عـالمهم المعمور إلى أقصاه ، يعانون اليوم من ضلالة لا مفرّ لهم منهـا ، إذ إنهم غـارقون في بحار من البدع كيفما تقلبوا وأينما اتجهوا أو تحركوا : أبنية بيوتهم بدعـة ، والأثـاث الذي فيها بدعة ، وموائدهم بدعة ، وطراز ثيـابهم بـدعـة ، والأسـاليب التي تنهض عليهـا أنشطتهم الثقـافيـة والعلميـة والاجتماعيـة ، كلهـا ظلمـات من البـدع المتراكمة ! ... وهي ليست مصيبة حاقت بهذا الجيل وحده ، بل إنها الضلالـة التي انحرفت فيها أجيال المسلمين من بعد عصر الصحابة إلى يومنا هـذا ، ثم إلى أن تقوم الساعة . ذلك لأن الحياة ـ منذ بعثة المصطفى ﷺ ـ ما تزال تتحول بـأصحـابهـا من حال إلى حال ، وتنقلهم من طور إلى آخر . ولا مطمع في إمكان التغلب على قانونها هذا وربطها بمسار من الثبـات والجمود على حـالـة واحـدة على مرّ الأزمنـة

والعصور . وحتى الفترة القصيرة التي عاشها النبي ﷺ مع أصحابه ، لم تجمد الحياة خلالها على نسق مطرد ثابت ، بل استقبل النبي وأصحابه منها أطواراً إثر أطوار . ولكن (لحسن حظ ذلك الرعيل الأول) كان المصطفى ﷺ بين ظهرانيهم ، وكان يرحب بسنّة الكون هذه دون أي مقاومة لها أو ثورة عليها . فكم من عرف جديد أيّده ، وكم من كشف طارىء على حياة الصحابة والعرب رحّب به ودعا إليه ، بعد أن تأمل فرآه لا يخالف من أصول الدين وأحكامه شيئاً ، بل ربما يسّر سبيل إحيائه والأخذ به على خير وجه ؛ حتى استظهر من ذلك علماء الشريعة الإسلامية القاعدة القائلة : « الأصل في الأشياء الإباحة » ، واستنبط من ذلك علماء الحنفية وآخرون أنّ العرف ـ بقيود معينة ـ مصدر لا يستهان به من مصادر الشريعة وأحكامها .

إذن ، فلا يعقل أن يكون المقصود بالبدعة هذا المعنى اللغوي العام . بل ما رأينا واحداً من علماء المسلمين وفقهائهم ذهب في تفسير البدعة وتعريفها هذا المذهب العجيب . وإنما تنطوي الكلمة على معنى اصطلاحي خاص ، فما هو ؟

☆ ☆ ☆

أمامي تعريفات كثيرة للبدعة ، كلها يدور في فلك معنى اصطلاحي واحد ، وإن تخالفت من حيث الصياغة والأسلوب . ولكني أختار منها تعريفين عرفها بهما الإمام الشاطبي في كتابه (الاعتصام) . وذلك لسببين : أحدهما أن الشاطبي يعدّ في مقدّمة من خدم هذا البحث وتناوله بالشرح والتحليل من جوانبه . ثانيهما : أنه يعدّ من أكثر العلماء المتقدمين محاربة للبدعة وتشدداً في الابتعاد عنها .

التعريف الأول ، أنها « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله عز وجل » والتعريف الثاني أنها « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية » .

وإنما رددها الشاطبي رحمه الله بين هذين التعريفين ، نظراً لرأي من حصر البدعة في العبادات ، ولرأي من عممها في سائر أنواع السلوك والتصرفات . على أنه مال فيما بعد إلى أن البدعة إنما تختص بالعبادات سواء منها القلبية وهي العقائد أو السلوكية وهي سائر أنواع العبادات الأخرى .

ولا يعنينا الآن أن نقف عند هذا الترديد بأي نظر أو تمحيص . إنما الذي يعنينا أن نلاحظ قولهم في التعريف : « طريقة في الدين مخترعة .. »

إذن ، فلكي يأخذ السلوك معنى البدعة وحكمها ، يجب أن يمارسه صاحبه على أنه داخل في بنية الدين وأنه جزء لا يتجزأ منه ، مع أنه في واقع الأمر على خلاف ذلك .. وتلك هي روح البدعة وسرّ تحذير الشارع منها . وذلك هو الملاحظ في تسميتها : (بدعة) .

والمستند الذي يشكل الدليل القطعي على ذلك قوله ﷺ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ... » إذ المقصود بـ « أمرنا هذا » الدين ، كما هو واضح ؛ وقوله ﷺ فيما أخرجه الطحاوي : « ستة ألعنهم لعنهم الله وكل نبي مجاب : الزائد في دين الله ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط بالجبروت يذلّ من أعز الله ويعز به من أذل الله ، والتارك لسنّتي ، والمستحل لحرم الله ، والمستحلّ من عترتي ما حرم الله » .

ويتضح من ذلك أن مناط إنكار البدعة وردّها على صاحبها ، أن المبتدع يقحم في بنية الدين وجوهره ما ليس منه . ولما كان المشرّع هو الله عز وجل ، لم يبق مجال لأي تزيّد أو تغيير على شرعه .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها : اختراع صلاة زائدة على ما ثبت في الشرع من المكتوبات والنوافل ، واختراع صيام يوم لفضيلة لم يرد بشرعه فيه قرآن أو سنة ثابتة ، وإيجاب الاقتصار على لون واحد من الطعام على المائدة

تزهداً ، واختراع التقرب إلى الله بتحميل الجسم من المشاق ما لم يرد بـه دليل من الشرع ، ورفع الصوت بالأذكار والقصائد أمام الجنائز ، والأذان عند إدخال الميت قبره . ونذكر منها في أمور العقائد كل ما تزيّدته الفرق المبتـدعـة على الـدين من عقائد وأفكار باطلة .

أما سائر الأفعال والتصرفات الأخرى ، التي قد تصدر من الإنسان ، دون أن يتصور أنها جزء من جوهر الدين أو واحد من أحكامه ، وإنما يندفع إليهـا ابتغـاء تحقيق هدف أو مصلحة لـه ، دينيـة كانت أو دنيويـة : فهي أبعـد مـا تكون عن احتمال تسميتها بدعة ، وإن كانت مستحدثة في حيـاة المسلمين غير معروفـة لهم من قبل . بل مآلها أن تُصنَّف إما تحت ما سماه رسول الله ﷺ : (سنة حسنـة) ، أو تحت ما سماه : (سنة سيئة) . وأنت تعلم أنه ﷺ قـال فيما رواه مسلم وغيره « من سنّ في الإسلام سنـة حسنـة[1] فلـه أجرهـا وأجر من عمـل بهـا بعـده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرهـا ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

☆ ☆ ☆

ويحتاج بيان هذا الأمر إلى تفصيل طويل الـذيل ، ولكنـا نقتصر منـه على الموجز التالي :

ـ إن كانت الأفعال والتصرفـات التي تصـدر من الإنسـان (ممـا لا يـدخل في معنى البدعة التي تم بيانها) تتعارض مع أوامر أو نواهٍ ثابتة في الشرع ، فهي تسمى مخالفات (محرمـة أو مكروهـة) لشرع الله عز وجل . لا فرق بين أن تكون هـذه

---

(١) ليس المقصود بالسنة الحسنة هنا ، ما توهمه بعضهم من إحيـاء سنـة منـدثرة للنبي ﷺ . إذ لو كان المعنى كـذلـك لاستلـزم أن تكـون للنبي سنـة سيئـة أيضـاً ، نظراً إلى مـا تقتضيـه تتمـة الحديث . وإنما المقصود استحداث أمر لم يكن من قبل ، فيه خير للمسلمين .

المخالفات مستحدثة ، أو تكون قديمة معروفة كالمباذل الأخلاقية والأندية التي تشيع فيها المنكرات . وأمرها واضح لا يحتاج إلى بحث .

- وإن كانت مرسلة ، أي غير معارضة ولا موافقة لشيء من أحكام الشرع وآدابه التفصيلية . فهي تصطبغ ، من حيث أحكامها ، بلون الآثار والنتائج التي تحققها . أي فما كان منها مؤدياً إلى تحقيق مصلحة من سلّم المصالح الخمسة[1] التي جاء الدين لرعايتها ، فهو من قبيل السّنة الحسنة ، ثم إنه يتفاوت ما بين الندب والوجوب ، حسب شدة الحاجة إليه لتحقيق تلك المصلحة ، إذ قد يكون من ضرورياتها الذاتية وقد يكون من حاجياتها الأساسية ، وقد يكون من تحسينياتها المفيدة . وما كان منها متسبباً إلى هدم واحدة من تلك المصالح أو الإضرار بها ، فهو من نوع السنة السيئة ، ثم إن درجة سوئه تتفاوت حسب مدى الضرر الذي قد يلحقه بتلك المصلحة ، فقد يكون مكروهاً وقد يصبح محرماً . أمّا ما كان منه بعيداً عن أي تأثير ضارٍّ أو مفيد لسِلّم تلك المصالح ، فهو من قبيل المباح ، أو من قبيل العفو ، كما يعبّر بعضهم .

وإذا استوعبنا هذه الحقيقة أدركنا أنه ليس ثمة ما يسمى بالبدعة الحسنة ، كما توهم ذلك بعض الباحثين . بل البدعة لا تكون إلا ضلالة قبيحة ، وذلك لضرورة أنها تعني التزيّد على الدين والإضافة إليه . وهو لا يمكن أن يكون حسناً بحال من الأحوال .

وإنما يدخل هذا الذي توهموه (بدعة حسنة) فيما سماه النبي ﷺ بالسنة الحسنة ، وهو ما اصطلح الأصوليون على تسميته فيما بعد بالمصالح المرسلة .

---

(١) سلّم هذه المصالح هي مصلحة الدين ثم الحياة ثم العقل ثم النسل ثم المال . ويتم السعي إلى تحقيقها خلال ثلاث مراحل مترتبة . هي إنجاز ضرورياتها ، فحاجياتها ، فتحسينياتها . فهذه هي شبكة ميزان المصالح التي تنهض عليها أحكام الشريعة الإسلامية عامة . وما من عادة أو سنّة مستحدثة إلاّ وتأخذ حكمها الشرعي بناء على هذا الميزان .

وأمثلة هذه السنة الحسنة كثيرة لاتكاد تحصى . نذكر منها دراسة كل ماجّد من المعارف والعلوم التي تحقق مصلحة من مصالح الدين أو الحياة أو المصالح الأخرى ، وإقامة المؤسسات والمجامع التي تخدم الهدف ذاته ، وإقامة أجهزة إعلام ووسائل نشر ، وإنشاء مجلات وصحف تخدم المصالح الإسلامية أو واحدة منها ، طبق الترتيب الذي صنفها الشارع على أساسه . وتنظيم اللقاءات والمؤتمرات والندوات التي تدعو إليها الضرورة أو الحاجة لإنجاز شيء من تلك المصالح أو رعايتها .

وإننا لنرى أن من أمثلة هذه السنة الحسنة تلك الاحتفالات التي يقوم بها المسلمون عند مناسبات معينة ، كبدء العام الهجري ، ومولد المصطفى ﷺ ، وعند ذكرى الإسراء والمعراج ، وذكرى فتح مكة وغزوة بدر ، ونحوها ، مما يتوخى منه تحقيق خير يعود إلى مصلحة الدين ، سواء على مستوى الضرورات أو الحاجيات أو التحسينيات .

ومن المفروغ منه أن ذلك كله مشروط بأن لاتستتبع هذه الأعمال آثاراً ضارة تودي بجدوى ماحققته من المصالح أو تلحق الضرر بمصلحة مقدمة عليها .

☆ ☆ ☆

هذا مانعتقد أنه المنهج العلمي الذي لابديل عنه ، عند الخوض في ذكر البدع ومحاربتها وجذب الناس عنها . ولا ريب أن اتباع المنهج العلمي يوصلنا إلى هذا القرار :

إن احتفالات المسلمين بذكرى مولده ﷺ والمناسبات المشابهة ، لاتسمى بدعة قبل كل شيء . لأن أحداً من القائمين على أمرها لا يعتقد أنها جزء من جوهر الدين وأنها داخلة في قوامه وصلبه ، بحيث إذا أهملت ارتكب المهملون على ذلك وزراً . وإنما هي نشاطات اجتماعية يتوخى منها تحقيق خير ديني . فإن هم توهموا ذلك كانت بسبب ذلك بدعة .

ثم إنها لاتدخل تحت ما يسمى بالسنة السيئة أيضاً ، إن روعي في إقامتها أن تخلو من الموبقات وأن تهذب عن كل ماقد يعود على الخير المرجّو منها بالنقض أو الإفساد .

وإذا رأينا من يخلطها بما يسيء إلى نتائجها ، فإن التنبيه يجب أن يتجه إلى هذا الخلط ، لا إلى جوهر العمل بحدّ ذاته . وإلاّ فكم من عبارة صحيحة مشروعة يؤديها أناس على غير وجهها ، فتؤدي إلى نقيض الثمرة المرجوة منها . أفيكون ذلك مبرراً للتحذير من أدائها والقيام بها .

نعم ، إن اجتماع الناس على سماع قصة المولد النبوي الشريف ، أمر استحدث بعد عصر النبوة ، بل ماظهر إلا في أوائل القرن السادس الهجري . ولكن أفيكون ذلك وحده كافياً لتسميته بدعة ، وإلحاقه بما قال عنه المصطفى ﷺ : « كل من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » ؟. إذن فليجردوا حياتهم من كل ما استحدث بعد عهده ﷺ ، إن كانوا يستطيعون . فإنّ كل ذلك من البدع !.

وإني لأعجب لأناس ، ينتقلون من مؤتمر إسلامي إلى آخر ، ويتصدرون فيه باحثين وأعضاءً عاملين ، دون أن يتذكروا أنه هو الآخر بدعة (بالمعنى الذي يتوهمون) لا فرق بينه وبين احتفالات المسلمين بالمولد ونحوه شروى نقير ، اللهم إلا أن تكون تلك المؤتمرات يبذل عليها من الأموال الطائلة مالا يعطي ثمرة ولا نتيجة ، وقد تشيع فيها أمور لا ترضي الله عز وجل ، على حين لا يكلف اجتماع طائفة من المسلمين في أحد البيوت أو المساجد للاحتفال بذكرى المولد أو الهجرة شيئاً من ذلك . ولكنهم ما إن يوضعون أمام الحديث عن المولد ونحوه ، إلا وتجدهم ثاروا وهاجوا ونعتوا الاجتماع عليه بأنه ضلال وبدعة ، ترى لو وضعت هذه الاحتفالات ضمن إطار مؤتمرات ، دعي إليها الناس من الأقطار ، وأنفق عليه المال الطائل ، أتتحول بفضل ذلك من بدعة باطلة إلى عمل مبرور ؟

وغنيّ عن البيان أنني لا أنكر شيئاً من هذه المستجدّات على اختلافها ، بل إنني لا أدعو إليها أيضاً لذاتها .. إذ هي أمور تقبل أو ترفض على ضوء النتائج الآتية من ورائها ، فهي كالماء الذي يأخذ لون الإناء الذي يتجمع فيه ، وما تنسحب أحكام الشريعة الإسلامية على سائر ما يستجدّه الناس من شؤون وعادات ، إلاّ بناء على هذه القاعدة التي لا مجال لأي ارتياب فيها .

وإنني لأذكر مولداً حضرته في أحد المساجد ، بإحدى محافظات القطر السوري ، كانت ثمرته العاجلة أن أعلن كثير من الحاضرين توبتهم عن موبقات كانوا يرتكبونها ، وأعلن آخرون بدء التزامهم بعبادات كانوا معرضين عنها أو متساهلين بشأنها ، والتزم آخرون بالعكوف على دراسة القرآن ، وآخرون بردّ ما عليهم من مظالم والتزامات لإخوان لهم . ولم يخرجوا من المسجد حتى تعاهدوا وتواثقوا على ذلك .: فبأي ميزان من موازين الشريعة الإسلامية أعدّ مثل هذا الاحتفال ضلالة تجب محاربتها ، لمجرد أن عصر النبي لم يشهدها ومن ثم فلم يُتح له أن يؤيدها ؟!...

أجل ، من الضروري الدعوة إلى تنقية مثل هذه الحفلات ، وسائر الشؤون المستجدّة الأخرى ، من الشوائب ، والتحذير مما قد يتسلل إليها من المنكرات .. ولكن حتى لو ظهر في هذه المستجدّات قليل من الشر ، فإننا نقبلها ونحافظ عليها تمسكاً بما قد تنتجه من الخير الكثير ، على أن نحافظ على تطبيق القاعدة القائلة : (درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح) .

☆ ☆ ☆

أقول بعد هذا كله : فلنفرض أننا مخطئون في فهم (البدعة) على هذا النحو ، وأنّ الصواب ما يقوله الآخرون من أن كل ما استحدثه الناس ، حتى مما لا يدخلونه في جوهر الدين وأحكامه ، بدعة محرمة ـ فإن المسألة تغدو عندئذ من المسائل المختلف في شأنها والخاضعة للاجتهاد .

وبما هو معروف في آداب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أنّ القائم بهذا الشأن ينبغي (كلما وقف في موقف عام) أن ينهى عن المنكرات المجمع على أنها كذلك ، ولا ينصرف عنها إلى النهي عما اختلف فيه المسلمون من المسائل الاجتهادية التي لا يكلف المجتهدون فيها بأكثر من الوقوف عندما قضت به اجتهاداتهم وفهومهم . إذ الإمعان في النهي عن هذه المسائل لا يمكن أن ينتهي إلاّ إلى إثارة أسباب الشقاق وتصديع وحدة المسلمين وبث عوامل البغضاء فيما بينهم .

وإنّ في حياتنا ومن حولنا من المنكرات الشنيعة والمفاسد الخطيرة ، التي لا خلاف في مدى جسامتها وسوء آثارها ، ما يكفي لأن نمضي العمر كله في معالجتها والسعي إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف للقضاء عليها . فلماذا نتشاغل عن هذا الذي أجمعت الأمة على أنه من المنكر الذي لا عذر في السكوت عليه ، ثم نشتغل بالانتصار لاجتهاداتنا الشخصية وحرب ما يقابلها ويكافئها من الاجتهادات الأخرى ؟.

ألآ إنّ أعظم مصيبة رانت على حياتنا ، إنما هي مصيبة هذا التدابر والشقاق الذي مني به العالم العربي والإسلامي على عرضه وطوله ، ومن ثم فإنها لأعظم منكر يشيع في أرجاء عالمنا الإسلامي . فمن كان يريد أن ينهض بواجب النهي عن المنكر ، فليبدأ من هنا .. على أن يتخذ لنفسه عدّة واحدة في مسعاه هذا ، ألا وهو الإخلاص . الإخلاص ، ذلك السرّ الأقدس الذي يسحق الأنانية والعصبية ، ويفرق بين أدق ما يلتبس على كثير من الدعاة والربانيين ، في مجال السلوك والتطبيق : الانتصار للنفس .. والانتصار لله .

التربية الوجدانية

بين مشكلة الابتداع وفقد الاتباع

مما هو معلوم لنا جميعاً ، أن الكيان الإنساني - إذا أسقطنا منه صورة اللحم والدم ، وهي الجسد - يتكون من العقل والوجدان . فبهما تتحقق إنسانية الإنسان ، وبسرّهما كان للإنسان تاريخه العجيب فوق هذه الأرض .

أما عقله ، فهو أداة الإدراك والوعي ، وله جنود من حوله يعينونه في إنجاز عمله العظيم ، كالذي يسمونه المصورة والواهمة والحافظة ، على أن هذه القوى قد تكون في حقيقتها داخلة في بنية الملكة العقلية ذاتها ، ولسنا الآن بصدد تحقيق هذا الأمر .

وأما وجدانه فهو الذي يعبرون عنه بالعاطفة ، وهي تنقسم (من حيث تنوع الدوافع التي تتأثر بها) إلى ثلاثة أقسام رئيسية : عواطف دافعة وهي التي تتأثر بعامل الرغبة والحب ، وعواطف رادعة وهي التي تتأثر بالرهبة وأسباب الخوف ؛ وعواطف ممجدة ، وهي التي تتأثر بصفات العظمة وموجبات الإعجاب .

ومن الثابت أن جميع ما يصدر عن الإنسان من سلوك وتصرفات ، فإنما هو بدفع وإيعاز من هاتين الملكتين أو الحقيقتين . على أن دور العقل لا يزيد على كونه إضاءة للطريق وتبصيراً بالحق ؛ أما الوجدان فمحرك ومهيّج إلى السلوك ، حسبما تمليه عوامل الرغبة والرهبة والتمجيد ، مهما كان نوعها وأياً كان مصدرها .

من أجل هذا يقرر علماء التربية قديماً وحديثاً أنّ سبيل الوجدان كثيراً ما ينفصل عن العقل ، فيندفع الإنسان إلى مسالك لا يقرها الفكر السليم ، لا سيما عندما تستبدّ الشهوات والأهواء وروح العصبية ونحوها بالوجدان ، فإن سائر دوافعه وروادعه إنما تتكون عندئذ من تلك الشهوات والأهواء ونحوها . ومن هنا فإن المشكلة الكبرى التي يواجهها الإنسان في حياته تتمثل في أن الدوافع السلوكية في حياته ، إنما يأتي معظمها من الوجدان ، أما نصيب العقل فيها فنزر يسير . فما أكثر الذين يتمتعون بمدارك واعتقادات سليمة ؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يلزموا أنفسهم ، على صعيد السلوك والتطبيق ، إلاّ بجزء يسير مما تستوجبه قناعاتهم واعتقاداتهم العقلية . وتأمّل في المجتمع الذي حولك تَرَهُ ذاخراً بمظهر هذا الازدواج المتشاكس !.

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى ما يسمونه (التربية) في سائر المجتمعات الإنسانية على اختلافها .

فهي ، مهما تنوعت وتطورت ، ليست أكثر من ترويض الوجدان ، ابتغاء تطويعه لمقتضيات العقل وأحكامه . وقصارى ما يهدف إليه المربون ، أن يتلاقى كلا القوتين : العقلية والوجدانية في كيان الإنسان على طريق واحد ، في تعاون وانسجام ، دون أي تناقض أو تشاكس .

وإذا اختلفت مناهج التربية وأصولها ، ما بين أولى القناعات والعقائد المختلفة ، فإنما ذلك ، لأنهم اختلفوا انطلاقاً من تأملاتهم الفكرية واتجاهاتهم العقلية ، بقطع النظر عن العوامل الكامنة وراء ذلك الاختلاف . وما أكثر ما تكون عوامله عصبيةً أو رغبات نفسية أو غايات مصلحية ، أو نحو ذلك .

☆ ☆ ☆

فإذا علمنا أن الكيان الإنساني مكوّن من هاتين الحقيقتين ، وإذا علمنا أنّ

إليهما مردّ الحركة الإنسانية الدائبة فوق هذه الأرض ، فما لاشك فيه أن هذا الدين الذي أنزله الله تبصيراً للإنسان بحقيقة الكون والحياة ، وإلزاماً له بالتعامل معهما على أساس تلك التبصرة ، يجب أن يكون مهيمناً على كل من العقل والوجدان معاً . إذ لا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا خضع كيانه الإنساني كله لحقائق الإيمان ومبادئه ، وكيانه مؤلف ـ كما قلنا ـ من العقل والوجدان . فإذا أيقن العقل ولم يتأثر الوجدان ، أو تأثر الوجدان ولم يتوافر اليقين العقلي ، فإن صاحب هذا الكيان لا يسمى في الحقيقة مؤمناً .

كيف ، وقد علمت أنّ جل الدوافع السلوكية ، في حياة الإنسان ، إنما تنبثق من عواطفه ووجدانه فماذا عسى أن يكون للإيمان أو الإسلام من سلطان على الإنسان إذا لم يزد على كونه مجموعة مسائل اعتقادية ركنت في زاوية من العقل ، دون أن يتأثر الوجدان منها بموجبات رغبة أو رهبة ، أو تعظيم وتمجيد له ، حتى انساحت العواطف من جراء ذلك ، طليقة ، في ساحة الشهوات والأهواء والرغائب النفسية المتنوعة بمعزل عن مشورة العقل وحكمه ؟

لا ريب أن هذا الإنسان يوصف (بموجب موازين القضاء الدنيوي) بأنه مسلم ، وتطبق عليه أحكام الإسلام ، ولكن الحقيقة التي سيؤول إليها أمره ، أن إيمانه العقلاني الأعزل سيذبل ثم يذبل ، ثم يزداد ذبولاً .. ثم إن ثورة الوجدان المعاكسة ستخنقه وتميته !. فما هو إلا أن تؤول معتقداته الذهنية إلى شكوك وأوهام .. ولئن لم يتجلّ ذلك في أيام صحوه العقلي ، فلابد أن تحيق به هذه الكارثة عندما تجتاحه عاصفة الموت . فما أسرع أن تتبدد أفكاره وقناعاته الإسلامية التي ظلت ـ حياتَه كلَّها ـ محبوسة في زاوية من زوايا العقل ، بعيدة عن منعشات العواطف والوجدان . أقول : ما أسرع أن تتبدد أفكاره هذه ، في غمرة الموت وآلامه ، وإذا هي ذاهبة في يم النسيان . وعندئذ (عند ساعة الموت) لا تطفو على فكر الإنسان ولسانه إلا تلك التصورات والأماني التي ظلت تنمو

وتلقى الرعاية من مشاعره العاطفية والوجدانية ، طوال أيام حياته المدبرة ، فيخرج من الدنيا وهي آخر ما يذكره ويهتف باسمه ويبحث عنه . وإنما العبرة بساعة الختام ، فإذا أشرقت بانعكاسات حياته الماضية ، ذكراً لله وحباً له وخوفاً منه ، ختم له بالحسنى ، واتجه إلى السعادة الخالدة ، أما إذا أظلمت بانعكاسات حياته الماضية ، لهواً ونسياناً وانغماساً في الموبقات ، ختم له بالسوء ، واتجه إلى الشقاء الذي هو مقبل عليه بلا ريب .

وهكذا ، فإن الإيمان بالله عز وجل لا يستقر ويثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعامتي العقل والوجدان معاً . فلابدّ أن يغرس وجوده في ساحة العقل وبراهينه أولاً ، ثم لابدّ أن تغذّى أصوله برعاية العواطف والوجدان ثانياً . شأنه كشأن أي شجرة تغرسها في دارك . لابدّ أن تُغرس في تربة صالحة أولاً ، ثم لابدّ أن تُتعهد بالرعاية والسقيا ثانياً .

وكما أن الشجرة تذبل ثم تيبس إذا غرستها في أرض صالحة ثم أعرضت عن سقياها ورعايتها ، فكذلك الإيمان الذي غرسته في كيانك العقلي قناعةً ويقيناً ، ثم لم تغذه وتنعشْه بمشاعرك الوجدانية ، وتركت هذه المشاعر تصبو إلى الرغائب والشهوات النفسية ، فإنه لاجرم يذبل ثم يختنق في أوار تلك الرغائب والشهوات الجانحة .

من أجل هذا ترى البيان الإلهي لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا ويضع اليقظة الوجدانية في مقدمة هذه الصفات .

فهو يقول : ﴿ إنَّما المُؤمنُونَ الذين إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم وإذَا تُلِيتْ عليهِمْ آياته زَادَتْهمْ إيماناً ﴾ [الأنفال ٢] .

ويقول ﴿ قدْ أفْلَحَ المؤمنُونَ ، الَّذين هُمْ في صَلاَتِهمْ خَاشِعُون ﴾ [المؤمنون ١ ، ٢] .

ويقول : ﴿ والَّذين إذَا ذُكِّرُوا بآياتِ ربِّهم لمْ يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْيـانـاً ﴾ [الفرقان ٧٣] .

ويقول : ﴿ إنَّهُمْ كانُوا يُسارعُون في الخيراتِ ويدْعُونَنا رَغَباً ورَهَباً وكانُوا لنا خاشِعين ﴾ [الأنبياء ٩٠] .

وأنت تعلم أنّ وجل القلوب وخشوعها ، والانسياقَ إلى الدعاء رغبةً ورهبةً ، كل ذلك من مظاهر ارتباط مكمن الوجدان الإنساني بالحقائق الإيمانية الجاثمة في العقل ، ومن آثار تفاعله بها .

ويزيد رسول الله ﷺ هذا الأمر بياناً وتأكيداً ؛ فيقول فيما يرويه الشيخان : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يُحبَّ المرء لايحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » ويقول فيما يرويه الشيخان أيضاً « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده » وروى الديلمي بسنده عن رسول الله ﷺ قوله « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] وهذا هو المعنيُّ بالإحسان الذي عرّفه النبي ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » رواه مسلم .

ويتبيّن لدى التأمل في تلك الآيات وأمثالها وهذه الأحاديث المبينة والمؤكدة ، أن الممارسات العملية لأركان الإسلام وتوابعها لا تفيد صاحبها شيئاً ، إلا إذا سرى إليها شعاع من جذوة الإيمان الذي استقر قناعة ويقيناً في داخل

---

(١) لا عبرة بما قد يراه بعضهم من ضعف في هذا الحديث ، إذ لايزيد مضمونه على مادل عليه حديث الشيخين السابق « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده » إذ من المعلوم أن مثل هذه المحبة للنبي ﷺ لاتتحقق إلا إذا كان هوى المحب تابعاً لما جاء به المحبوب .

العقل . فعندئذ تحيا تلك الممارسات الفعلية بروح الإيمان ، وتتحول من حركات آلية باردة إلى سلوك إيماني نابض بمشاعر الرقابة الإلهية ، فلا شك أنه إذا أقبل إلى أيّ عبادة من العبادات ، أقبل إليها بمشاعر متيقظة تنبهه في كل لحظة إلى أن الله يراه . وتلك هي رتبة الإحسان في السلوك الإسلامي الذي يندبنا إليها المصطفى ﷺ .

ولكن كيف السبيل لإيصال أشعة الجذوة الإيمانية في العقل ، إلى الممارسات الإسلامية على الأعضاء ؟ وعن طريق أي سلك يمكن تحقيق هذا الربط ؟

إنه سلك العاطفة والوجدان .. فهو وحده الذي يمكنه أن يمتصّ القناعة الإيمانية في العقل ، ثم يحيلها في بوتقة العاطفة إلى شعلة متوهجة من الحب والخوف والإجلال ، ثم يوجهها إلى تلك الأعمال والوظائف الإسلامية من صلاة وصيام وحج وذكر وقراءة قرآن ونحوها ، فإذا هي مشاعل سلوكية مضيئة ، وإذا هي تنبض بيقظة الإجلال لله عز وجل . وفي هذا المستوى يدرك المسلم بإحساسه أبعاد قوله ﷺ « .. وجعلت قرة عيني في الصلاة »[1] وقوله لبلال « أرحنا بها يا بلال »[2]

ولكن كيف السبيل إلى استخدام العاطفة في تحقيق هذه الصلة الهامة بين مركز الإيمان في العقل ومظهر الوظائف الإسلامية على الأعضاء ؟ كيف السبيل ، وإن هذه العاطفة من شأنها أن تكون أسيرة في يد النفس وشهواتها ورعوناتها ، فهي تكون بذلك أغلظ حجاب يحجز قناعة العقل والفكر عن مظاهر الأعمال والسلوك ، حتى تغدو تلك الأعمال من جراء ذلك حركات تقليدية آلية ميتة لا حياة فيها ولا ضياء ؟ ..

---

(١) رواه النسائي وأحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد .

تلك هي العقبة الكؤود ! .. وتلك هي الفتنة التي أقامها الله في حياة الإنسان ، ثم ألزمه بالجهاد .. بمجاهدة النفس والهوى ، في سبيل اجتياز العقبة ، ثم السير لبلوغ مرتبة الإحسان . وتوعّد على ذلك ووعد .. فقال جل جلاله :

﴿ فَأَمَّا مَنْ طغَى ، وآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنيا ، فإنَّ الْجَحِيمَ هي المأوى ، وأمّا مَنْ خَافَ مَقَام ربِّهِ ونَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى ، فَإنَّ الْجَنَّةَ هي الْمَأْوى ﴾ [والنازعات ٣٧ ـ ٤١]

والكلمة القرآنية الجامعة لهذه المجاهدة بجوانبها وفروعها الكثيرة ، هي (التزكية) وما أكثر ما يرددها القرآن لافتاً النظر إلى ضرورتها ومدى أهميتها .

فمن ذلك قوله ﴿ قدْ أفلَحَ من زَكَّاها ، وقد خَابَ من دَسَّاها ﴾ [والشمس ٩ ـ ١٠]

وقوله ﴿ قد أفْلَح من تزكّى ، وذكر اسْمَ ربِّه فَصَلّى ﴾ [الأعلى ١٤ ، ١٥]

وقوله على لسان موسى خطاباً لفرعون ﴿ فقُل هل لك إلى أن تَزَكّى ، وأهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ [والنازعات ١٨ ـ ١٩]

☆ ☆ ☆

فمن أجل ذلك اتجهت همة المسلمين الصادقين في إسلامهم إلى الخوض في سبيل هذا الجهاد ، ألا وهو سبيل تزكية النفس من سائر أوضارها ورعوناتها ، وربط العاطفة بحقائق هذا الدين وأحكامه ، من جوانبها الثلاثة : الرغبة والرهبة والإجلال . وذلك بدءاً من عصر صحابة رسول الله ﷺ ، فمن بعدهم

غير أن سبيل هذا الجهاد أمام أصحاب النبي ﷺ ، كان أقل وعورة بالنسبة لمن جاء بعدهم ، وذلك لأسباب ، من أهمها رؤيتهم النبي ﷺ وجلوسهم إليه وسماعهم لكلامه وعظاته . فقد كان لذلك أثر كبير في غرس محبته في قلوبهم

والتأثير على جوانب نفوسهم ، وهو الأمر الذي يستوجب ، بطبيعة الحال ، محبة كل ما يدعوهم إليه رسول الله ، وإيثاره على ما يعارضه من نوازع الشهوات والأهواء[1] فمن ثم تجلت فيهم ظاهرة الطفرة التي لم نجدها ظهرت فيمن بعدهم ، أعني بها سرعة تحولهم عن أوضاعهم الجاهلية التي كانت متحكمة بهم راسخة في حياتهم ، إلى ذلك الالتزام الكامل بعزائم الدين وأحكامه وآدابه .

ومن هذه الأسباب ، بساطة الحياة التي كانت تحيط بهم ، فقد كانت مغرياتها محدودة ، ومحرّماتها معدودة ، ومن ثم فقد كان سبيل التسامي فوقها والتحرر من غوائلها أقصر وأيسر .

ولكن لما توفي النبي ﷺ ، وأنجز الله وعده للمسلمين الذين أنجزوا وعدهم له ، ففتح لهم البلاد ووسع أمامهم الفتوحات ، واندلقت إليهم الدنيا ـ بزينتها وزخرفها ـ من كل صوب ، كان لا بدّ أن يتضاعف أمامهم الجهد في سبيل تزكية النفس ، فقد أصبحت القيود أثقل وأكثر .

فكان أن انصرف كثير منهم إلى استنباط أصول ومناهج تربوية ، يأخذ بها الإنسان نفسه ، ليسمو بها شيئاً فشيئاً ، ويحررها من رعوناتها وأمراضها الباطنة . ولم يكن في مناهجهم وأصولهم التربوية تلك ، ما يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله ، بل كان مأخوذاً منه مخرّجاً على مبادئه وأحكامه . وكانوا في صنيعهم الذي فعلوه لا يزيدون ولا ينقصون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة ، فاستنبطوا قواعد النحو من لسان العرب ، وعن أولئك الذين استشعروا ، هم

---

(١) قد يقال : فما بال المشركين ، وقد كانوا يرون رسول الله ويجالسونه ، لم يكونوا يزدادون إلا كراهية له وبغضاً ؟ والجواب : أن هؤلاء المشركين كانوا ينظرون إليه من وراء مناظير ضغائنهم وأحقادهم واستعلائهم ، فلم يكونوا يرون فيه إلاّ يتيم أبي طالب ، وابن أبي كبشة . ولو أزاحوا عن أعينهم هذه المناظير ، لرأوا فيه مثال الإنسانية الكاملة ، ولشاهدوا فيه حقائق النبوة ، فاتجهت قلوبهم إليه بالحب ، كأولئك الآخرين تماماً .

الآخرون الحاجة ، فاستنبطوا قواعد الأصول من اجتهادات الصحابة ، وعن أولئك الذين استشعروا الحاجة أيضاً ، فاستخرجوا قواعد البلاغة والبيان من كلام الله عز وجل .

ولا نزال نذكر في مقدمة من أقدموا على هذا الصنيع ، جلالة وسبقاً ، الحارث المحاسبي (٢٤٣ ت) وأحمد بن أبي الحواري (٢٤٦ ت) والجنيد البغدادي (٢٩٨ ت)

وإنما درج هؤلاء ، فيما كتبوا ونظّموا ، على منوال من سبقهم إلى ذلك سلوكاً وعملاً ، من جلة التابعين ومن بعدهم ، كالحسن البصري ، وسفيان الثوري ، وعطاء بن أبي رباح . وما خرجوا في شيء من أصولهم التربوية على ميزان الكتاب والسنة قط ، ثم إما أن يكون دخوله في هذا الميزان صريحاً وواضحاً ، وإما أن يكون اجتهاداً واستنباطاً .

ونقول : إن كل ما يتوقف عليه الواجب يصبح واجباً ، وكل ما يتوقف عليه المندوب يكون مندوباً ، ما لم يكن هذا المتوقَّفُ عليه منهياً عنه ، نهياً لا يقلّ في أهميته وجزمه عن ترك الواجب المنصوص عليه . فمهما كانت السبل التربوية غير منصوص عليها في قرآن ولا سنة ، ولكنها تعين في تزكية النفس وتصعيد العاطفة والوجدان ، فإنها تأخذ حكم الغاية التي تتحقق من ورائها وهذه الغاية داخلة ، كما يقول ابن تيمية رحمه الله ، في أصول الإيمان وقواعد الدين . فالسعي إلى التحقق بها واجب على جميع الخلق باتفاق أئمة الدين[1]

وهذه الأصول كلها تدخل في نطاق الأعمال الباطنة ، كمحبة الله ، والخوف منه ، والرضا عنه ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ، والزهد في كل ما يحجب ويبعد عنه . ومدارها على العاطفة والوجدان .

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية ١٠ / ٥ فما بعد .

فلما أخذ هؤلاء الربانيون أنفسهم بالسبل التربوية للتحقق بهذه الصفات ، وأرشدوا إلى ذلك عامة الناس وخاصتهم ، وسلك الكثير منهم هذا السبيل ، نشأ عن تفاوتهم في السبق والاهتمام بذلك ومدى الاستمرار عليه ، ما سموه بالمقامات ، كالأحوال ، والفناء والبقاء . وأطلقوا على من أخذوا أنفسهم بهذه السبل التربوية اسم : السالكين

وربما وصل أحدهم ، ومن خلال التدرج في هذه المراتب ، إلى ما أسموه بوحدة الشهود ، إذ يفنى السّالك بالمكوّن عن الأكوان ، وبرؤية موجده عن ملاحظة وجوده . وربما اندفع في غمرة هذا الاصطلام إلى النطق بكلمات لا تنضبط بموازين العقل والمنطق ، ولكنها تنبعث من فيح مشاعره الوجدانية التي فنيت ـ كما قلنا ـ عن كل ما سوى الله ، كقول أبي يزيد البسطامي قدس الله روحه « ما في الجبَّة إلا الله » وكقول بعضهم : أنا الحق ، أو : سبحاني .

وقد اتفق العارفون على أن حال الصحو أفضل وأسلم ، حيث يكون العقل والوجدان على وفاق ، وهي الحال التي كان عليها رسول الله ﷺ وأكثر أصحابه . ومع ذلك فلا جناح على من وقع في حال الفناء ووحدة الشهود ، كما يقول ابن تيمية رحمه الله . « إذ في مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز ، مع جود حلاوة الإيمان ، كما يحصل بسكر الخمر وسكر عشيق الصور ، فكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء ، كما يحصل بحال حب ، فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق .. »[1]

ولكن كما أنه لا جناح عليهم بسبب هذا العذر ، فلا يجوز الاقتداء بهم لمن كان في حالة صحو ، ولا حمل كلامهم وأفعالهم على الصحة ، بل يجب النظر إلى

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية ١٠ / ٣٤١ .

ذلك على أنه شطحات يعفى عنها لأهل الأحوال والمواجيد الصحيحة ، ويؤاخذ بها كل من ردّدها تشبهاً أو أيدها عقلاً ، ممن لم يكونوا في مثل تلك الحال .

☆ ☆ ☆

غير أن هذا السلوك ، قد أدركه هو الآخر ، ما أدرك أنواع العلوم والمعارف الإسلامية الأخرى ، من أدواء البدع والزغل والانحراف عن جادة القصد والاستقامة . فامتزج بالحق الذي ندب إليه العارفون والربانيون ، كثير من الباطل الذي روّج له الجاهلون آناً والفسقة والزنادقة آناً آخر .

ولسنا الآن بصدد تعداد هذه البدع والانحرافات وتفنيدها والتحذير منها ، فبحث ذلك يطول ، ويخرجنا عما عقدنا هذا الفصل له . ولكننا نشير هنا إلى أهم الأسباب التي دعت إلى ذلك :

فأول هذه الأسباب : الزندقة وإضمار السوء والكيد للإسلام . فلقد أقبل كثير من أصحاب المقاصد السيئة إلى تلك المواجيد التي انجرفت فيها مشاعر بعض أولئك الصالحين ، والتي ألجأتهم إلى بعض الشطحات التي أشرنا إليها ، ففلسفوها ووضعوها في قوالب فكرية وصيغ اعتقادية ، ومدوا إليها نسباً من بعض المذاهب الضالة المتزندقة كالبابية والبهائية . حتى غدت تلك الشطحات حقاً يُدعى إليه وفكراً يُجادَل دونه . ومثل هذا الباب إذا فُتح يصبح سبيلاً رحباً إلى أوسع مرتعٍ للدساسين والمضللين .

ثانيهما : الجهل . فقد اندفع إلى هذا السبيل ناس كثيرون ، دون أن يتزودوا بزاد كافٍ سليم من علوم الشريعة الإسلامية ، لاسيما علوم الكتاب والسنة . فتفننوا في ابتداع سبل ومناهج تربوية ، ابتغاء تزكية النفس وتصعيد الوجدان ، ولكنهم غفلوا عن أن كثيراً من الأسباب التي أخذوا أنفسهم بها ، تتعارض مع ضوابط الشريعة الإسلامية ونصوص الكتاب والسنة . فللذكر وسائر العبادات

الأخرى آداب وقيود ، لا يجوز الخروج على شيء منها ، ولا يجوز فيها إلاّ الاتباع دون زيادة ولا نقصان .. وللسبل التربوية إلى تحطيم النفس وترويضها قيود وشروط ثابتة في مصادر الشريعة الإسلامية ومعروفة ، لا يجوز على المربي تجاوزها أو الإعراض عنها . فتجمعت من جراء ذلك ، في هذا السبيل القدسي ، طفيليات من الأشواك والعقبات التي تبعد السالك عن الله بدلاً من أن تقربه إليه ، سواء شعر بذلك أم لم يشعر .

ثالثها : مراعاة حظوظ النفس ، واتخاذ هذا المسلك نفسه ، سبيلاً من نوع جديد ، إلى الوصول لكثير من أماني النفس وأهوائها .

وبيان ذلك ، أن هذا المنهج التربوي ، إنما يقوم في أصله وطبيعته ، على التسليك الذي لا يكون ـ على الأغلب ـ بدون مسلِّك ومرشد . ومن الشروط التربوية في الإرشاد والتسليك ، أن يكون المرشد كاملاً ليستطيع أن يكون مكملاً ، ثم أن يوليه المريد السمع والطاعة لكل ما يأمره به وينهاه عنه . ومادام هذان الطرفان من الشرط متوافرين ، فهو شرط سليم لا إشكال فيه ولا ردّ عليه . ولكن فقد أحد الطرفين يجعل وجود الثاني لغواً لا مسوغ له . فإذا كان المرشد كاملاً حقاً ، في علمه وعمله وإخلاصه وسمّو نفسه ، فلا بدّ للمريد أن يكون طوع أمره ، بل لا يصلحه إلا ذلك . ولكن إذا لم يكن المرشد قد أحرز درجة الكمال هذه ، لم يكن ثمة أي موجب لأن يخضع له مريده هذا الخضوع المطلق ، بل الخضوع المطلق لمثله يصبح من أخطر المزالق إلى الانحراف عن جادة الاستقامة التي شرعها الله عز وجل .

ولقد تسلل ، فيما بعد ، إلى رتبة الإرشاد كثير ممن كانوا بأمس الحاجة إلى من يرشدهم ويزكي نفوسهم من غوائل الدنيا وشهواتها ، دفعهم إلى تسلق تلك الرتبة حب الزعامة والتعظيم وشهوة إصدار الأوامر المطاعة ، وجمع المال الكثير من أيسر الطرق ؛ إذ كانت رتبة الإرشاد هذه من أيسر السبل وأقصرها إلى تحقيق ذلك كله .

فتزاحم المرشدون ، من هذا النوع ، في كل بلد وصقع . وتكاثرت الطرق بعدد هؤلاء المرشدين . فظهر من خلال ذلك الزغل ، وفاحت رائحة الدنيا ، وكان لا بدّ أن تظهر وتتنامى الانحرافات والأخطاء .

على أن هذا السبيل ، بقيت فيه ـ على الرغم من ذلك ـ معالم خير واضحة ، ولم تخل العصور من مرشدين مخلصين في توجيههم وإرشادهم ، ملتزمين بقيود الكتاب والسنة ، وإن كانوا يقلّون مع الزمن ، حتى أصبح العثور عليهم أمراً عسيراً يشبه العثور على كنز عظيم نادر .

والذين لا يفرقون بين وظيفتي التعليم والإرشاد ، قد يعجبون لهذا الكلام، إذ يتصورون أن القيام بمهمة التربية الوجدانية والإرشاد الديني ، ليس إلا نوعاً من التعليم ، فهو أهون من أن يحتاج إلى هذه القيود كلها ؛ إذ كل من أوتي علماً يستطيع تعليمه ، يستطيع أيضاً أن ينهض بمهمة الإرشاد فيمن يعلمهم ، بل الإرشاد والتسليك ليس شيئاً غير وظيفة التعليم ذاتها ! ..

والذين يتصورون الأمر على هذا النحو ، كثيرون جداً . ولكنهم مخطئون بداهة لو تأملوا وتدبروا .

الإرشاد عملية تربوية تستهدف تقويم الوجدان الإنساني وتصعيده ، وهو يتطلب قدرات فائقة من المرشد ، كما يتطلب ، قبل هذه القدرات ، أن يكون قدوة تامة للمريد .

أما التعليم فليس أكثر من نقل المعارف إلى الأذهان ، وإنما يكفي لذلك توفر المادة العلمية ، ثم توفر الأداة التعبيرية السليمة .. على أن الناس كانوا ، ولا يزالون ، أحوج إلى المرشد الكامل منهم إلى المعلّم العالم ، وإن كانوا بحاجة إلى كليهما معاً .

☆ ☆ ☆

وهنا نصل إلى المشكلة التي نعاني منها اليوم .

التربية الوجدانية ، التي تستهدف ربط المشاعر الوجدانية بالله عز وجل ، حباً له ، ومخافة منه ورضاً عنه ، واتكالاً عليه ، تسلّل إليها كثير من البدع والأخطاء والانحرافات ، على أيدي كثير من المسلكين والموجهين ، أو ربما التلامذة والمريدين . فماذا يجب أن يصنعه المسلمون العلماء الرقباء على دين الله عز وجل .

إن ما يصنعه ، في الواقع جلّ هؤلاء المسلمين ـ وأكثرهم من أهل العلم ـ أنهم يستنكرون هذا السلوك كله ، ويحذرون من الأخذ بأسباب هذه التربية من حيث هي ، لأنّ بدعاً أخذت تشيع فيها ، ولأن أخطاءً وانحرافات ظهرت على حال المشتغلين بها .. وانتشرت أساليب هذا التحذير والإنكار أقوالاً وكتابات تتكرر هنا وهناك ، حتى استهان الناس بتربية هذا الجانب من الكيان الإنساني أيما استهانة ، وحتى أهمل الكثير منهم واجب الرقابة والرعاية الوجدانية في حياتهم ، إذ حسبوا أن إسلام المسلم يتحقق بإدراك العقل ويقين الفكر ، فبقيت عواطفهم طليقة من أي قيد أو توجيه ديني ، فكان أن استعمرها وتحكم بها حب الشهوات والأهواء ، وهيمنت عليها رعونات النفس ورغائبها . وانشطرت كيانات المسلمين من ذلك شطرين متناقضين بل متصارعين ، شطر يتمثل في العقل المصدق والفكر المحدث المتفلسف ، بياناً للإسلام ودفاعاً عنه ، وشطر يتمثل في الانفعالات الوجدانية الخفية ، والمنصرفة إلى رغائب الدنيا وأهوائها والمتعلقة بأمراض النفس ورعوناتها ! ..

ونحن نقول : أمّا البدع والانحرافات ، فما من ريب أن على المسلمين الابتعاد عنها والتحذير منها[١] . كيف وقد قرر العلماء أن وباء البدعة أشدّ خطراً من

---

(١) على أن يعلموا قبل كل شيء معنى (البدعة) وتعريفها العلمي في اصطلاح الشريعة الإسلامية ، وقد مرّ بيانها في الفصل السابق .

ضرر المعصية ، لأن معرفة كون المعصية معصية يدفع مرتكبها ، مادام مسلماً ، إلى التوبة والاستغفار ، أمّا البدعة فإنما ترتكب على أنها جزء من الدين ذاته ، فهيهات أن يستشعر صاحبها في ارتكابها ضرراً يدعوه إلى التوبة والإقلاع .

ولكن علينا ، ونحن نحارب البدع ونحذر منها ، أن نبقي على الأساس السليم ، وأن نحافظ على جوهر الاتباع . وإلاّ فأي خير حققه ذاك الذي يدمّر بالسلاح الذي يحارب به البدعة ، جوهر الدين وأساسه . وقد علمت أن هذه التربية الباطنة ، كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك ، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة ، لا يكون تركها محموداً في حال أحد وإن ارتقى مقامه وأعمال القلوب هذه « وهي التي قد تسمى بالمقامات والأحوال هي من أصول الإيمان وقواعد الدين »[1] .

نعم ، أي خير حققه ذاك الذي حارب الذباب المتساقط على وجه صاحبه بصخرة طحنت رأسه قبل أن يتطاير الذباب عنه ؟

إن المصيبة في حال هؤلاء الناس أنهم ينسون أصول الإيمان وقواعده ، في غمار حمّى هجومهم على البدع والانحرافات ، فلا يلفتون إليها نظراً ، ولا يرسمون لها طريقاً ، ولا يتحدثون عنها من قريب أو بعيد ، فتضيع هذه الأصول في تيار حربهم اللاهبة . ثم يعودون وقد حطموا الجدار المتداعي من الدار ، ولكنهم قعدوا بعد ذلك راضين مطمئنين في العراء .

وقد علم العقلاء جميعاً أن الجدار المتداعي من الدار لا يجوز تركه ، ولكن لا يجوز نسفه أيضاً ليستبدل عنه بالعراء . وإنما يبنى من خلفه جدار ثابت مستقيم ، حتى إذا تم الوثوق به وتكاملت الطمأنينة إليه ، نسف ذلك الجدار الفاسد من أساسه غير مأسوف عليه .

---

(١) هذا من كلام ابن تيمية رحمه الله ، انظر مجموعة فتاويه ١٠/١٦

تزكية النفس الإنسانية لب الدين وجوهره، ما في ذلك شك، وتحرير الوجدان الإنساني من غوائل هذه النفس أصل من أصوله الثابتة، لا يرتاب في ذلك مسلم، فماذا صنع الذين يمسكون بمعاول التهديم في نطاق بنائهم لهذه الأصول ؟

والشباب المسلم الذي يتكاثر بفضل الله في كل بقعة من أرضه الواسعة ، يظلّ يسأل ، تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة : كيف السبيل إلى أن أسمو على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة ؟ كيف السبيل إلى أن أشعر بلذة المناجاة للخالق إذا وقفت بين يديه في صلاة ، أو جلست أقرأ قرآناً ؟ كيف أصنع لأرقى بمشاعري إلى الرتبة التي أعبد فيها الله كأني أراه ؟ كيف أجعل محبة الله ملء كياني حتى لاأحب مع الله غيره ، وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى لا يتسلل إلى قلبي أي خوف من سواه ؟

نعم ، إن الشباب المسلم الظامىء يظل يسأل هذه الأسئلة ، ولا من مجيب . لأن الذين عليهم أن يجيبوا ، منهمكون في ملاحقة البدع والسعي للقضاء عليها .

غير أن هؤلاء الشباب إن لم يجدوا أنفسهم أمام أجوبة عملية تروي ظمأهم الإسلامي ، فلسوف يقعون ، شئنا أم أبينا ، في تيار هذه السبل التربوية القائمة ، على ما فيها من بدع وانحرافات . لأن شيئاً ما خير من لا شيء ، إن لم يؤمن بذلك العقل دائماً انقاد له الشعور والوجدان غالباً .

ألا ترى إلى الظمآن الذي يمسك بكأس من الماء الملوث يريد أن يشربه ، إن خير سبيل عملي تسلكه إلى حجزه عن ذلك الماء ، أن تقدم له كأساً أخرى يلمع فيها ماء طاهر عذب . أمّا أن تجلس مكتفياً بموعظة التحذير والتخويف من ضرر الماء الوحيد الذي بين يديه ، وأنت في شغل شاغل عن الظمأ الذي يحرق كبده ، فاعلم أنّ موعظتك لن تؤثر فيه شيئاً ، لأن عذاب الظمأ الذي يعانيه أشدّ عليه من الضرر الذي تخوفه منه .

من أجل هذا ،. تنظر ، فتجد هذه الطرق الصوفية في تزايد وانتشار ، وتجد المقبلين عليها في تكاثر مطرد ، بل إنك تجدهم في أكثر الأحيان من صفوة الناس ثقافة ودراية ووعياً . لأنهم رأوا في هذه الطرق على علاّتها ما يعالج نفوسهم ويرقى بعواطفهم ، ويشعرهم بلذة الطاعة والعبادة ، ولم يجدوا أمامهم البديل الذي هو خير منها ، فكان لابدّ من ركونهم إليها مهما حذر المحذرون وأنكر المنكرون .

فانظر ، كم يروّج هؤلاء المنكرون ، للبدع والانحرافات ، من حيث يتوهمون أنهم يحاربونها ! .. ولو أنهم تبنوا الدعوة إلى معين هذه الطرق وأصولها الصافية الأولى ، ونبهوا النّاس (لاسيما هؤلاء الشباب الظامئين) إلى السبل التربوية السليمة التي تعين على تزكية النفس وترقيق القلب وتصعيد الوجدان ، بعيداً عن مزالق البدع والانحرافات ، إذن لانفضت جموع الناس عن تلك الطرق التي ينكرونها ويحذرون منها ، ولجفّت موارد البدع والمنكرات ، مع وجود المورد الصافي عن تلك الكدورات والموصل إلى الهدف التربوي ذاته من أسلم طريق .

☆ ☆ ☆

قد يسأل بعض هؤلاء الذين لا يتقنون إلا صنعة الهدم ـ الهدم بغير بديل ـ : أين هو البديل عن هذه (الطرقية التواكلية والصوفية الجانحة) ، يسأل هذا ، وكأنه يرى أن هذا النهج كله بدعة من حيث هو ، وكأنه شجرة حنظل يتمثل الخطأ في وجودها الذاتي كله ، فليس على المصلح سوى أن يقتلعها ثم يجلس ويستريح .

وأقول لهؤلاء الناس أولاً : ماأجدركم أن تعكفوا على ما كتبه ابن تيمية رحمه الله في الجزء العاشر من فتاواه المعنون بـ (علم السلوك) وأن تقرؤوا ماكتبه ابن القيم رحمه الله في كتابه (مدارج السالكين) ولا أستزيدكم عليهما شيئاً ، ثم أن تصححوا تصوراتكم ومعلوماتكم على ضوء ذلك .

وأقول لهم ثانياً : لقد كان مسمى هذا الذي يطلقون عليه التصوف ، في صدر الإسلام ، حقيقة لااسم لها ، إلا ماسماها الله به من التزكية والتنزه عن باطن الإثم ، ثم عاد اليوم اسماً لا مسمى له ، إلا جملة وظائف وأعمال ، هي بالصنائع والحرف المتوارثة أشبه منها بأي شيء آخر ، فأعيدوا ـ يادعاة الاتباع ومنكري الابتداع ـ كل شيء إلى وضعه الذي وضعه الإسلام فيه . دعوا اسم (التصوف) جانباً وارموا به عرض أي حائط ، واستعيدوا مسماه القديم ، مسماه الذي لم يكن له آنذاك هذا الاسم المبتدع الجديد ، استعيدوه التزاماً وسلوكاً في حياة المسلمين . فقد أوضحنا قبل قليل أن هذا المسمى يتمثل في أعمال القلوب ، مما يدخل تحت اسم الأحوال والمقامات ، وذكرنا أنه من أصول الدين التي لا يجوز أن يعرض عنها أي مسلم . لم يجادل في ذلك أحد .

نعم إن مثل هذا السلوك التربوي الخطير ، كان ينبغي أن لا يتم إلا بإشراف مرشد ومسلّك . ولكن ماذا نصنع إذا لم نعثر على المرشد الذي يستأهل هذا الاسم عن جدارة ، أي الرجل الذي جمع بين العلم الغزير بأحكام الشريعة والعمل بها ، ثم تزكت نفسه حتى لم يعد يبالي : أأقبلت الدنيا إليه أم أعرضت عنه ، انحطّ الناس في قدحه أم اجتمعوا على مدحه ؟

نكتفي في هذه الحال بالعودة المباشرة إلى كتاب ربنا وسنة نبينا ، فنستلهم منها منهاج هذه التزكية النفسية والتربية الوجدانية ، ثم نمارسها وظيفة مستمرة ثابتة ، على أساس هذا المنهاج . فإن ذلك خير عون على إشراق القلب وتطهير النفس من كل الأمراض والرعونات .

فلقد ندبنا القرآن إلى القيام بالأسحار ، راكعين ساجدين ، مكثرين من الاستغفار ، بضراعة وذل . فهذا أول جزء من المنهاج المرسوم .

ولقد أمرنا القرآن بالإكثار من ذكر الله في نفوسنا ودون الجهر من القول ،

ونهانا أن نكون من الغافلين ، ثم زاد الأمر تأكيداً في أوقات البكور والآصال ، وعند طلوع الشمس وغروبها . نكثر فيهما من التسبيح والتحميد ، بقلب خاشع حاضر ، وهذا هو الجزء الثاني من المنهاج .

ولقد أوصانا القرآن بالإكثار من تلاوته ـ وهو كتاب ربنا جل جلاله ـ بآداب ، لا مجال في هذا المقام لذكرها . وقد ذكر العلماء أن من أعظم أنواع ذكر الله تعالى الاشتغال بتلاوة كتابه . فهذا جزء ثالث من المنهاج الذي نتحدث عنه .

ولقد نهانا كتاب ربنا جل جلاله عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن أن نغذي جسومنا بشيء من الحرام ، وأكدت لنا سنة المصطفى ﷺ أن الجسم الذي غذي بالحرام ، فالنار أولى به ، وقد علمنا أن أكل المال الحرام يغلف القلب بالسواد ويجلّله بالران ، فلا ينفتح لموعظة واعظ ولا يهزه ترغيب ولا يخيفه ترهيب .. وهذا جزء آخر من المنهاج .

ولقد أمرنا كتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ ، بمصاحبة الأخيار ، والابتعاد عن مجالسة الأشرار ، فإن مصاحبة الأخيار تنقل إشراق أفئدتهم إلى قلبك وإن نظرهم إليك ينير طوايا نفسك ، وإنّ في مجالسة أصحاب رسول الله ﷺ ، له ، والآثار التي اكتسبوها من ذلك ، لأكبرَ شاهد على ما نقول . ولا ريب أن النقيض يورث النقيض .. وهذا هو الجزء الخامس من المنهاج .

ثم إن كلاً من الكتاب والسنة قد أمرنا بالإكثار من الصلاة على نبينا محمد ﷺ . دون قيد زمان بعينه أو مكان بعينه ، إلاّ ما أكدته السنة من الترغيب في الإكثار من الصلاة عليه في اليوم والليلة الزهراوين (يوم الجمعة وليلتها) وقد أجمعت الأمة على أن الإكثار من الصلاة على سيدنا محمد ﷺ ، خير جلاء

للقلب ، وأفضل طَهور للنفس[1] وهذا جزء آخَرٌ وليس آخِراً من المنهاج .

فمن هذه الأوامر والنواهي يتكامل منهاج تزكية النفس وتربية الوجدان .. وهي لبّ ما جاء به كل من الكتاب والسنة ، وباتباع هذا المنهاج يظهر في حياة المسلم ما يسمى بالأحوال والمقامات ، وهو من أجل ذلك يمثل أصول هذا الدين وأساسه ، كما أوضحنا من قبل .

فدعك يا أخي من تسميات غُلّف بها هذا المنهاج ، ودعك من بدع وانحرافات تسلّلت إليه . أفليس هذا المنهاج ـ عارياً من التسميات الطارئة مطهراً من البدع الباطلة ـ قائماً على دعائم مباشرة من كتاب الله وسنة رسول الله ؟ .. فأين هم الذين يهتّمون بالدعوة إليه إلى جانب اهتمامهم بمحاربة البدع . بدع الطرق والتصوف والأذكار ؟

ها نحن أولاء قد تجنبنا تلك البدع ، وأقمنا البصائر والأبصار حراساً على أنفسنا منها ، فهل يكفي أن نجلس بعد ذلك ونستريح ، وهل يغنينا التخلص من البدع عن أخذ أنفسنا بسلسلة هذه الأوامر الإلهية وتطبيقها على خير وجه .

إنّ بوسعي أن أكتب مجلداً ضخماً أصبّ فيه جام الغضب على بدع الطرق وانحرافات التصوف والمتصوفة . ولكن هل بوسعي أن أجعل من هذا المجلد رقية سحرية أداوي بها سخائم قلبي وأهواء نفسي ، وأصعّد بها عواطفي المتعلقة بالدنيا بدلاً من التعلق بالدار الآخرة ، والفارغة عن جواذب الرغبة والرهبة بما رغّب الله به ورهّب منه ؟ وهل بوسعي أن أربّي الجيل المسلم الظمآن ، تربيته النفسية العظمى ، إذا ما وضعت بين يديه مثل هذا المجلد الضخم ثم أعرضت عنه ؟

(١) ذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه (الدر المنضود) ـ نقلاً عن بعض أهل العلم ـ « أن المسلم إذا فقد المرشد الكامل فإن الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ يعيضه عن المرشد . وكأنه ﷺ يكون هو المرشد له ، من حيث لا يشعر .

لقد رأيت بعيني أناساً من هؤلاء الذين اشتغلوا عن سلسلة هذه الأوامر الإلهية ، بالانهماك في أمر البدع والتحذير منها ، يتجاذبون فيما بينهم أطراف أحاديثهم هذه ممزوجة بلحوم محرمة ينهشونها على موائد الغيبة ، لا يقطعها صوت أذان يصكّ أسماعهم ، ثم لا ينهضون إلى الصلاة إلا وقد مرّ معظم وقتها ، ولا يقبلون إليها إلاّ متثاقلين ، يمرون بحركاتها وأركانها ، مرّ من يستعجل كي ينتهي ويستريح . فإذا سلّموا يمنة ويسرة ، دارت على ألسنتهم كلمات محفوظة مكررة ، ثم أقبلوا يصلون ما انقطع من الحديث الممتع عن البدع والمبتدعة ومن لفّ لفهم .[1]

أفليست هذ الحال التي أصفها ، والتي قد تكون في ذهنك صور كثيرة منها ، من شر أنواع البدع والانحرافات التي يجب تجنبها والتحذير منها ؟

ولكن كيف يمكن تجنبها ؟ إن السبيل إلى ذلك رهن بتزكية النفس وتصعيد الوجدان ، والاهتمام بما سماه ابن تيمية (أعمال القلوب) . ولا ريب أن السلوك إلى ذلك أشق أنواع الجهاد كلها ، دلّت على ذلك التجربة والمشاهدة ، وأقوى من هذا الدليل وأقوم قوله عز وجل ﴿ إنَّ النَّفْسَ لأَمّـارَةٌ بالسوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبّي ﴾ [يوسف ٥٣]

على أني أعود فأقول : لا خلاف في ضرورة التحذير من البدع ، وضرورة امتلاخها من تربة مجتمعنا الإسلامي ، ولكن لا معنى لهذا العمل قط ، إن لم نسرع فنغرس هذه التربة بغراس التربية الإسلامية .

---

(١) قلت لواحد من هؤلاء بعد أن انتهينا ذات ليلة من صلاة التراويح ، فلندع الله في ختام صلاتنا هذه قال : لا دعاء بعد الصلاة ، وإنما الدعاء أثناءها فقط ، ومضى منطلقاً . لقد أنساه الانهماك في أمر البدع وحربها ما رواه البخاري والترمذي عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يعلّم بنيه هؤلاء الكلمات ، كما يعلّم المعلّم الغلمان الكتابة ، ويقول إن رسول الله كان يتعوذ بهن دبر الصلاة : « اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر » .

مشكلات في التاريخ والاجتماع

هي ليست مشكـلات ، بقـدار مـا هي رواسب لتراخي المسلمين ، وإهمـالهم للـوظـائف التي كان عليهم أن لا يتخلوا عنها

هل يمكن إقامة المجتمع الإسلامي على منهج ثوري

ازدادت الصلة ، في الآونة الأخيرة ، بين كلمتي (الثورة) و (الإسلام) . وظهر - لأول مرة - ربما شعار : الثورة الإسلامية ، تعبيراً عن آمال إسلامية يتم السير نحوها ، أو تعريفاً بواقع فرض نفسه بشكل ما .

والسؤال الذي لا بدّ أن يتطارحه المسلمون فيما بينهم ، أو المسلم الحصيف مع نفسه ، هو :

هل يتفق مفهوم كلمة (الثورة) مع جوهر الدعوة الإسلامية ، أو مع حقيقة ما يسمى اليوم بالمجتمع الإسلامي ؟

ومعلوم أن (الثورة) في عرف السياسة الحديثة ، تعني أي تغيير جذري شامل ، يحدث في مسار الأنظمة السياسية أو الاجتماعية ، قفزاً فوق سنة التطور والتدرج ، سواء تمّ ذلك بطريقة سلمية هادئة أو بعامل عنف وسفك دماء

غير أن الواقع الذي رصده التاريخ ، بدءاً من الثورة الإنجليزية التي ظهرت عام ١٢١٥ م إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م ، فالثورات الأخرى التي ظهرت هنا وهناك إلى يومنا هذا - حصر معنى الثورة في السعي إلى التغيير الجذري بعامل العنف وإراقة الدماء . ولا شك أن هذه الأداة تفاوتت شدة واتساعاً ما بين ثورة وأخرى . غير أنها ظلت سبيلاً أساسياً وقاسماً مشتركاً بينها جميعاً .

وهكذا ، فعلى الرغم من أن التصور النظري لا يمنع من أن تقوم ثورة يسلك

بها أصحابها طريق السلم والأناة ، إلا أن الواقع لم يساعد هذا التصور يوماً ما على فرض نفسه في مجال التطبيق .

ولا ريب أن لهذا الواقع أسبابه التي لا يصعب التنبه لها . غير أن الحديث عنها خارج عما نحن بصدده الآن .

لذا ، لا بدّ أن نتساءل : هل يتفق جوهر الإسلام بحدّ ذاته مع أي منهج ثوري (يقوم على الشدة والعنف) لإقامة المجتمع الإسلامي وتثبيته ؟

بوسعي أن أبادر فأقول : إن ما يسمى بالمجتمع الإسلامي لا يمكن أن يستقرّ اعتماداً على سبيل العنف وسفك الدماء ، وما سبق أن قام يوماً ما هذا المجتمع على مثل هذا الأساس .

ذلك لأن إشاعة أحكام الإسلام وآدابه في المجتمع ، إنما تأتي ثمرة لرسوخ جذوره الاعتقادية في الأفئدة والعقول . وذلك هو مجمل الفارق الكبير بين النظم الإسلامية ، وسائر الأنظمة الاجتماعية أو السياسية الأخرى .. ذلك لأن هذه الأنظمة الأخرى لا تنمو اعتقاداً عن طريق المناهج التربوية المجردة ، وإنما تفرض نفسها بالوسائل المادية المختلفة حسب اختلاف أصحابها ، وربما كان العنف واحدة منها . وإنما أداة ذلك على الأغلب ، سلوك سبيل العنف . أما عندما تكون هذه الأنظمة متساوقة مع رغبات الجميع ، متآلفة مع مصالحهم ، فلا داعي عندئذ للجوء إلى هذا السبيل .

أما نظام الإسلام ، فهو إنما ينهض على دعامة خفية تكمن في أغوار النفس الإنسانية ، ألا وهي استشعار معنى العبودية لله عز وجل ، واليقين بوجوده ورقابته للإنسان ، وبأنّ مردّه إليه ، وأنه سيجزيه الجزاء الأوفى ، على كل ما صدر منه أو اقترفه من خير وشر . لذلك كانت سائر الأعمال السلوكية التي تصدر من الإنسان مهدرة لا قيمة لها في ميزان المثوبة الإلهية يوم القيامة ، إن لم تنهض

على هذه الدعامة الإيمانية ، ولم تصطبغ بها . ونصوص القرآن صريحة وقاطعة في ذلك :

﴿ وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثوراً ﴾ [الفرقان ٢٣]

﴿ وَالَّذينَ كَفَروا أَعْمالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفّاهُ حِسابَهُ وَاللهُ سَريعُ الْحِساب ﴾ [النور ٣٩]

وبمقتضى هذه الحقيقة التي تبرز الفارق الكبير بين طبيعة النظام الإسلامي وسائر الأنظمة الأخرى ، كان واجب المسلمين في السعي إلى إقامة المجتمع الإسلامي متمثلاً بادىء ذي بدء في العمل بالسبل المكنة كلها على تنبيه العقول إلى حقائق العقيدة الإسلامية ودلائلها العلمية الثابتة ، وعلى إزالة الشبهات التي قد تعوق دون الجزم بها ، ثم في العمل بالسبل المكنة أيضاً على إخضاع هوى الأفئدة والنفوس لما استيقنته العقول وصدّقت به .

وما من ريب في أن طريقاً يتجه به سالكه إلى الأفئدة والعقول ، لا يصلح إلا أن يكون طريق مرحمة وسلم ، وحكمة وأناة . وما من شك في أن أخطر العقبات التي قد تبرز على متنه إنما يتمثل في الضغينة والعنف .

وما ترد كلمة الجهاد مرة في القرآن ، إلا ويكون هذا السعي الحثيث إلى الأفئدة والعقول ، أول ما يقصد من معاني الكلمة ومدلولاتها . وهو المعنى الذي تترجمه هذه الآية القرآنية العظيمة :

﴿ ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَة ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل ١٢٥]

فإن أعوزك مظهر تطبيقي تتجسّد فيه هذه الحقيقة ، فدونكَ فتأمل في

سيرة المصطفى ﷺ ، واستعرض مراحل دعوته كلها ، فلن تجد من خلالها إلا ممارسة مستمرة لهذه الحقيقة ، وسعياً دائباً على هذا الدرب .

لقد أمضى ﷺ ثلاثة عشر عاماً من عمر دعوته إلى الله وجهاده في سبيله ، وهو يخاطب العقول بالإرشاد والتذكير ، ويتجه إلى القلوب يستثير فيها العواطف الإنسانية والفطرة الإسلامية ، دون أن يحرفه عن ذلك الطريق ما أمعنت فيه قريش من العناد والبغضاء ومقابلته بشتى مظاهر الكيد والعدوان .

وربما توهم باحث أنه الضعف الذي كان يعانيه النبي وصحبه آنذاك ، منعه من أن يقابل الشر بمثله ، وحمله على الصبر إلى حين . ولا ريب أن هذا وهم وباطل من القول . فلو كان الذي يمسكه على تلك الحال من التجمل والرحمة وسعة الصدر ، عجزه عن المقاومة وعن رد الكيد بمثله ، إذن لفرضت طبيعة الثورة نفسها على حاله ومظهره ، ولتجلّى ذلك ـ على أقل تقدير ـ في حقد ينفثه أو توعد يشفي غليله به ، ولدعا عليهم ذات مرة بالسحق والمحق ، سيا وأن دعاء الرسل والأنبياء أمضى من أسلحة الثائرين . ولكنا قد علمنا أنه ﷺ ما كان يستقبل عداواتهم إلا بمزيد من الشفقة والرحمة ، وأبى أن يحرك لسانه بالدعاء عليهم حتى في أحلك الساعات وأقسى الظروف التي مرت به .

فلما هاجر إلى المدينة واستقر به المقام فيها ، ونظر المشركون فرأوا أن قد غدا للنبي أرض يركن إليها وأن قد أحاطت به شيعة تستنّ بهديه وتدعو بدعوته ، وأنها بسبيل أن تنتشر في الناس وتستقر في العقول ـ هاج بهم هائج الضغينة والحقد ، وهبّت فيهم من ذلك ثورة لاهبة تسعى لحماية الباطل الذي توارثوه من الآباء والأجداد ، وتلح على خنق حقائق الدين الذي بعث به محمد ﷺ .

وهكذا فإن الأمر كان على عكس ما يتوهمه المتوهمون . فالدعوة الإسلامية

التي اختـط الرسـول سبيلهـا الآمن الحكيم ، هي التي واجهت من المشركين ثـورة البطش والعنف والعدوان ، وليس المشركون هم الـذين فوجئوا من النبي وأتبـاعـه بتلك الثورة التي تنسب اليوم إلى الإسلام فتسمى : الثورة الإسلامية .

ومـا واجـه المسلمون أعـداءهم يومـاً (وهم بقيـادة المصطفى ﷺ) على طول تلك المواجهة وعرضها ، بشيء من تشنجات الثائرين وأحقـادهم الهـائجـة . وإنمـا كانوا يتصدّون لثورتهم بالإخماد ، ويواجهون قوتهم بـالتوهين ، ويلاحقون جموعهم بـالتفريق ، وقـايـة لحقـائـق الـدين الإسـلامي أن تغتـال في أشخـاص المسلمين ، فينكفىء الناس مرة أخرى على ظلام الجـاهليـة ، ويعودون إلى مـاضيهم التـائـه المشؤوم .

لقـد قيـل للنبي ﷺ : إنّ أهـل نجـد بحـاجـة إلى من يـدعـوهم إلى الإسـلام ويعرّفهم به ، فأرسل إليهم سبعة من عيون أصحابـه ، يخوضون إليهم غمـار أحقـاد ضـاريـة ، دون أن يجهزهم ﷺ إلا بمنطق الحق مضمخـاً بلـوعـة الشفقـة والحب ، فتخطفتهم جميعاً يد الغدر ، ودارت عليهم رحا القتل ، ولم يعد منهم أحد .

ثم قيل مرة أخرى له عليه الصلاة والسلام عن شدّة احتياج أهل نجـد إلى من يعرّفهم بـالإسـلام ، فـأرسـل إليهم بـدلاً من أولئـك السبعـة سبعين من أخلص أصحابه ، ولم يجهزهم إلا بمثل مـا جهز بـه إخوانهم من قبل ، فمـا كادوا يبعـدون في أرض نجـد ، حتى أحيـط بهم ، وقتلـوا عن آخرهم ، اللهم إلا واحـداً فقـط ، وهـو عمرو بن أمية الضمري ، وكأن الأقدار استبقته ليعود بالنبأ الأليم إلى رسول الله .

فأي الفريقين ثائر هـائج مغتـاظ ، وأيها الـذي يسعى إلى إنفـاذ دعوة الحق مضمخة بضياء المنطق ، نابضة بلوعة الحب والإخلاص ؟ .

ولما صـدّ المشركون رسول الله عن البيت ، وقـد اتجـه إليـه مع جمع كبير من

أصحابه معتمرين مسالمين ، آثر السلامة ، وعاد إلى المدينة أدراجه ، ووقع مع المشركين على كتاب صلح بين الفريقين ، كانت بنوده كلها خدشاً لكرامة المسلمين وإجحافاً بحقهم ، لو أنهم كانوا يسيرون في معاملة الكافرين مسيرة الثائرين .

ولما أمكنه الله من العودة ظافراً إلى مكة ، وأظفره الله بأهلها ، وسار إليها ممتطياً أعلى ذرى القوة والنصر ، كان يراقب قلبه أن لا يتسلل إليه شيء من روح السخيمة وهوى الانتقام ، وكان يحاذر أن يتسلل إلى رأسه شيء من نشوة القهر والانتصار ، وكان يراقب أصحابه أيضاً ويحذّرهم من أن يفتحوا أفئدتهم لشيء من تلك المشاعر . ولما بلغه أن سعد بن عبادة قال ، وهو على مشارف مكة ، كلمة أجرتها نشوة الظفر على لسانه : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الكعبة » غضب عليه الصلاة والسلام وردّ عليه قائلاً : « بل اليوم يوم المرحمة . اليوم تكسى الكعبة » .

وأبى عليه الصلاة والسلام ، وهو يدخل مكة من أعلى قمم النصر ، إلا أن يكون خاشع القلب مطأطئ الرأس ، يرتدي كسوة الذل والعبودية لمولاه . وقدم على مشركي مكة قدوم الغائب على أهله . وبدّد مخاوفهم من البطش والانتقام بقوله : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فتلك هي صورة مراحل الدعوة الإسلامية ، في حياته ﷺ كلها ، هل تجدها مسوقة إلا برحمة القلب وشفقة النفس ، وهل تجدها متجهة إلاّ إلى العقول بالإقناع وإلى الأفئدة بإيقاظ معاني الإنسانية والحب .

☆ ☆ ☆

غير أن المشكلة التي قد ترد على كلامنا هذا ، في تصور بعض الناس ، هي مسألة الجهاد . أليس الجهاد أقدس شرائع الإسلام ، وهل كان النبي يدعو أصحابه إلى عبادة أعظم من عبادة الجهاد ؟ حتى لقد قرر بأنه الركن الباقي إلى يوم

القيامـة ، وأن من مـات ولم يغز ولم يحـدث نفسـه بـالغزو ، مـات على شعبـة من النفاق ، وهل يكون لمعنى الثورة مظهر أجل من هذا وأبرز ؟

والجـواب أن الجهـاد الـذي شرعـه الله واستقر بـابـاً من أخطر أبـواب الفقـه الإسلامي وأهمها ، ليس أكثر مما تشرعه أي دولة مسالمـة ديمقراطيـة اليوم ، بصـدد حماية سلمها ورعاية أمنها . وهو شيء ضروري لا بـدّ منـه بـإجمـاع سـائر فلاسفـة القانون وعلماء الاجتماع ، مـادام أن البغي على وجـه الأرض لم ينقطع بعـد ، وأن مطامع الظلم والعدوان لا تزال بارزة المخالب والأنياب .

هل تجد دولةً على وجـه الأرض لا تهتم بـإنشـاء جيش قوي لهـا ، ولا تنصرف إلى حماية ثغورها وتحصين حدودها ؟ إن الجهاد الـذي شرعـه الله وألزم بـه عبـاده المسلمين ، ليس أكثر من ذلك مهما رأيت له من مظاهر وأشكال .

يقول ابن رشد في مقدماته على مدونة الإمام مالـك : « فـإذا هوجر العـدوّ ، وحميت أطراف المسلمين ، وسـدّت ثغـورهم ، سقـط فرض الجهـاد عن سـائر المسلمين »[(١)] .

ويقـول الشربيني في مغني المحتـاج : « ويحصـل فرض الكفـايـة بـأن يشحن الإمام الثغور بمكافئين للكفار ، مع إحكام الحصون والخنادق وتقليد الأمراء »[(٢)] .

وحسبـك أن تعلم أنّ مشروعيـة الجهـاد ليست من قبيـل شرعـة المقـاصـد والغايات ، وإنما هي وسيلـة لا بـدّ منهـا ، في ظروف معينـة تفرض نفسهـا ، إلى غايات إنسانية سامية لا غنى عنها .

يقول العز بن عبد السلام : « إن الجهاد لا يُتقرب به إلى الله من جهة كونـه

---

(١) مقدمات ابن رشد ٢٦٣

(٢) مغني المحتاج ٢١٠/٤

إفساداً ، وإنما يتقرب بـه من جهـة كونـه وسيلـة إلى درء المفـاسـد وجلب المصالح »[1] .

وهذا يعني ـ كما قال جمهور الفقهاء ـ أن الأصل هو السلم وحقن الدمـاء . ولا تشرع الحرب إلا عندما تكون هي الوسيلة الوحيـدة إلى حمـايـة السلم ودرء الفتن وحفظ الأرواح . وعندئذ لا مناص من تطبيق القاعدة القائلـة : (يُتحمل الضرر الأخفّ درءاً للضرر الأعظم) .

وبمقتضى ذلك يقرر معظم الفقهاء أن البـاعث على القتـال الـذي يـدخل في تعريف الجهاد ، إنما هو درء الحرابة ، وحماية السبيل إلى تعريف النـاس بـالإسلام بحيث يتمكن المسلمـون من النهـوض بـه على أتم وجـه وفي كل مكان ، وليس مجرد صفة الكفر الذي يتلبس بها غير المسلمين .

ومن أبرز الأدلة على ذلك ، أن النبي ﷺ ، ما زال ينهى في غزواته عن قتل الأجراء والعبيـد ، والنسـاء ، والشيوخ ، والرهبـان الـذين انقطعوا في كهوفهم أو معابدهم . وقد سار الخلفاء الراشدون من بعـده على هـذا النهج . فلو كان البـاعث على القتال كفراً ، لاستوى في موجب القتل هؤلاء وغيرهم[2] .

غير أن هذا لا يعني أن الجهاد في الشريعة الإسلامية ينقسم (كما تراءى لبعض المستشرقين وأتباعهم) إلى حرب هجومية وحرب دفاعيـة . فهـذا التقسيم لا وجود له في باب الجهاد ولا تتفق طبيعـة الجهـاد وأهـدافـه التي شرع من أجلهـا مع هـذا التقسيم .

وإنما محور القضية أن الإسلام بمعنـاه الاعتقـادي والسلوكي ، هو المنهج الـذي فطر الله عليه عباده ، واختاره لهم وألزمهم به في هذه الدنيا ، ولا رادّ لمـا ألزم الله

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/١١٢

(٢) انظر بداية المجتهد ١/٣٧٢

به عباده . لذا فقد كان عليهم جميعاً أن يتقيدوا به في حق أنفسهم ، ثم أن يبصروا الناس به وبدلائله العلمية الثابتة ، على أتم وجه وأقوم سبيل . ولا شك أن على الناس جميعاً أن يتركوا هذه المهمة تسير في طريق آمن وبسلام ، مادامت مقيدة بحدود التعريف العلمي ، وإزالة ماقد يكتنف الإسلام من الشبه والمشكلات[1] .

إذن ، فالجهاد ليس مظهراً لثورية الإسلام ، كما قد يتوهم بعض الناس ، وإنما هو الحزام الذي تتخذه أية أمة من الأمم ، في أي زمان ومكان ، لحماية سلمها ، والتمكن من أداء دورها الإنساني البناء على صعيد الأسرة الإنسانية جمعاء .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فإنما أردت أن أخلص من هذا كله إلى تأكيد النقاط التالية ، وإني لعلى يقين بأنها تهم كل متحرق على عودة راشدة إلى الإسلام ، مهتم بأمر الدعوة الإسلامية ، والعمل لمصلحته بشكل ما :

أولاً ـ يتميز هذا العصر بكثرة الحركات الإسلامية التي تتخذ من النهج الثوري سبيلاً لها ، وهي مدفوعة بعوامل وأسباب شتى ، ولكنها جميعاً تتلاقى على صعيد مشترك يتمثل في الهياج النفسي والأحقاد المستعرة والسعي إلى التشفي والانتقام . وقد تجد بين أصحاب هذه الحركات من يكون معذوراً في وقوعه تحت سلطان هذه العوامل ، كأولئك الذين استلبت منهم أوطانهم أو وقعوا تحت آصار الظلم والاستعباد ، فإن من الطبيعي أن يستبدّ بهم الحنق وتهيج بين جوانحهم عوامل الثورة على الظالمين والناهبين ؛ ولكن فليحاذر أولئك الذين لاغرض لهم إلا

---

(١) لاعلاقة لهذا الذي نقول بحكم المرتد . فللمرتد حكم آخر مستقل عما نحن بصدده ، إذ المرتد لايُقَرُّ على كفره بحال . بل يستتاب بكل الوسائل والسبل السلمية الممكنة والمقنعة . فإن عاند قُتل .

العمل من أجل الإسلام والدعوة إليه ، من أن يلتبس عليهم هذا بذاك ، أو أن يصابوا بعدوى تلك الحركات . وليعلموا أن من المستحيل أن ينهض وجود حقيقي للإسلام على دعامة من هذا القبيل .

إن كل نظام من الأنظمة الاجتماعية الوضعية قد يُفرض لصقاً بواسطة الضغط الثوري ، ولكن الإسلام لا يستقر وجوده إلا بغرس أصوله في تربة الأفئدة والنفوس ، ثم استنباته بالرعاية والتوجيه . ولا يتم هذا إلا بمعاناة فردية طويلة صابرة .

ثانياً ـ إنما يتكون المجتمع الإسلامي بإيجاد أفراده الصالحين أولاً ، ولا تتمثل مهمة المسلمين في أكثر من النهوض الحقيقي بهذا الواجب ؛ فإن هم أنجزوا ذلك في صبر وإخلاص وأناة ، تكفل الله لهم ببقية الأمر ، فتوج لهم جهودهم هذه بنظام إسلامي متماسك وسلطة إسلامية راشدة . لذا فليحذر المسلمون الذين يهتمون بشأن الدعوة الإسلامية من آفة هي أخطر آفات الحركات الإسلامية التي تظهر هنا وهناك ، وهي أنهم ما يكادون يرون أن الإقبال على الإسلام يتزايد ، وأن يقظة إسلامية واعية بدأت تنتشر في صفوف الشباب ، وأن الأنظار أخذت تحسب للقوة الإسلامية حساباً ـ حتى تعاجلهم النشوة ويستبدّ بهم الزهو ، فيتركون القاعدة التوجيهية التي ما كلفهم الله بغيرها ، ويطمحون إلى حيث القمة ، ليبدلوا النظم ويقيموا (الدولة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله) ... ولا بدّ أن تتنبه عندئذ عوامل التربص والحذر لدى الأطراف الأخرى ، وأن تصطرع القوى وتتأزم الأمور . وأخيراً ينكفئ الطامحون على أعقابهم ، وقد خسروا قواعدهم الأولى ، ولم يفوزوا بأحلامهم الأخرى . وتلك هي مصيبة الحركات الإسلامية في أكثر بقاع الأرض .

ثالثاً ـ على المسلم الذي ينهض بأعباء الدعوة الإسلامية ، أن يكون شديد الرقابة على نفسه ، فلا ينتصر لها من حيث يتوهم أنه ينتصر لدين الله . فإن بين

هذين الطرفين حاجزاً دقيقاً جداً لا يكاد يبين . ولكنه مع ذلك حاجز ذو أهمية بالغة ، إن ضاعت معالمه على السالك ، وقع من جراء ذلك في مغبة ضياع خطير ، وذهبت جهوده كلها أدراج الرياح .

☆ ☆ ☆

لست أدري ، وأنا أقرر هذه الحقيقة ، هل كنت رقيباً على نفسي إلى الدرجة القصوى ، متيقظاً للحاجز الدقيق الذي يمنعني من الانجراف نحو الانتصار للذات ! ... أرجو أن أكون قد وُفقت لذلك ، وأعوذ بالله من فتنة النفس والهوى .

تاريخنا الإسلامي
والافتراءات الملصقة به

كنا ، ولا نزال ، نقول : ليس حتماً أن يكون أيّ تطور في شيء من مجالات الفكر أو الحياة ، صعوداً نحو الأفضل . ذلك لأن عملية التطور وسيلة إلى غاية ، وليست غاية بحدّ ذاتها . ورُبّ غاية تكمن في أسفل منحدَر ، وأخرى تستقر في أعلى القمم . وخليق بالطريق إلى الغاية أن يتلوّن بلونها ، وأن يأخذ لنفسه من قيمتها .

ولو لم يصح أن التطور إنما يتلون بلون نتائجه وغاياته ، لما صح لنا القول بأن الحضارات تشيخ وتهرم ، ثم تذبل وتموت .

هذا ، عندما نفرض أن تكون بواعث التطوير تطلعاً مخلصاً نحو الأفضل والأكمل ؛ إذ رُبّ خطأ يدخل في التخطيط أو الاجتهاد ، فيرتد المجتهد أو الباحث ، بسبب ذلك إلى الانحدار والنقصان . فكيف عندما ننظر ، فنجد أن بواعث التطوير كثيراً ما تتمثل في نزوة من نزوات النفس ، أو مصلحة شخصية لفرد أو لفئة قليلة من الناس ، أو ضرر مما قد يدعو إليه حقد دفين ، أو استجابة لرغبة الاندماج والتقليد ، أو عبث يستنفد الطاقة والجهد .

☆ ☆ ☆

ولقد تحدث الناس ذات يوم ، عن التطور العلمي الذي حظيت به الدراسات التاريخية . وتكلموا طويلاً عن الفرق بين ماض ، كان المؤرخ فيه مجرد راوٍ أو (وصّاف) يصف للناس الحادثة والخبر ، ثم يتنصل بعيداً ليعود إليهم

بمثله ، في وضع حيادي ، لا يسمح له أن يكون أكثر من مرآة حاكية ، وحاضر ، غدا المؤرخ فيه محللاً لبواعث الأحداث ، مستنطقاً لنفوس أصحابها ، مترجماً لأهدافها الصامتة ، شارحاً لألغاز الوقائع الغامضة ، كاشفاً عن أخلافها التي عفى عليها الزمن .

وحسب أكثر الناس أن الدراسات التاريخية ، قد دخلت ، بفضل هذا التطور ، في وضع أكمل ، وتهيأت لتقديم ثمار أفضل . وما عرفوا إلا أخيراً ، أن هذا التطور إنما كان بمثابة سكين تمكن من يشاء ، من تمزيق كل ما يحتفظ به الماضي ، من وثائق الأحداث ، وصحائف الوقائع والأخبار ، ليعود فيحول التاريخ بعد ذلك إلى مجرد مسرح ، يملؤه من يشاء ، بما شاء من الصور والفصول .

أجل ، فمنذ أن جاءنا (فرويد) وأشياعه ، بالمذهب الذاتي في كتابة التاريخ ، وجد الناس أنفسهم من هذا المذهب ، أمام ما يشبه قدْراً كبيرة على نار حامية ، تتبخر فيه أحداث الزمن الغابر ، لتتصاعد أطيافاً قابلة للتلون بأيّ لون يشاءه خيال الكاتب ، أو قل : المخرج أو الممثل .

في ظل هذا المذهب العجيب ، أصبح المؤرخ في حل من التقيد بقواعد الرواية والسند ، ليصبح متهيئاً لأن يدخل ، بخياله وأفكاره ووجدانه ، في معترك الأحداث الخالية التي انقطعت عنها معظم الدوافع والبواعث النفسية والبيئية التي جاءت على أعقابها . فلو كان هذا الكاتب أو المؤرخ ، ملكاً من ملائكة الله تعالى ، في صفاء قصده ، وسموّ نفسه ، لما استطاع إلا أن يصطبغ بلون البيئة التي هو فيها ، وأن يخضع لمقتضيات الثقافة التي غُذّي بها ، وأن ينجرف في تيار التربية التي نُشّئ عليها ، ثم لما وجد مناصاً من أن ينظر إلى تلك الأحداث الغابرة ، بمنظار هذه الموازين الجديدة .

فكيف ، ونحن نرى أن أكثر من يدرسون التاريخ بهذه الطريقة اليوم ،

يحرصون الحرص كله ، على أن يجعلوا من التاريخ مرآة صافية تجلو عليها مذاهبهم الفكرية ، أو آراؤهم السياسية ، أو أغراضهم النفسية . يحاول كل منهم ، أن يجعل من عبر الماضي ، الشاهد الأمين الوقور على صدق ما يحلو له من مذهب ورأي .

وما أكثر ما تتناسخ لدى أحدهم المذاهب أو الأفكار ، لمصالح طارئة ، أو انسجاماً مع مقتضيات (تكتيك) ، فيعمد إلى البوق الدعائي ذاته . إلى صوت التاريخ ، وإذا هو ينطقه بما كان ساكتاً عنه ، ويسكته عن الرأي الذي طالما أنطقه به . ويتأمل الناظرون فيما يكتبه أو يرسمه هؤلاء ، فلا يرون على مسرح التاريخ إلا أبطالاً ، يُحمَّلون دوراً إثر دور ، حسب الطلب ، بل حسب مقتضيات المذاهب وتقلبات الأحداث .

ولا أعتقد أن في الإمكان أن نتصور في باب الخيانة والإسفاف ، أشنع ولا أبشع ، من أن يعمد أحدنا إلى عقل الدهر ودماغه (وإنما عقله التاريخ) فيعبث به ، ليتخذ منه شاهداً على الرأي الذي يطيب له ، أو ليشفي به غليل حقده ، أو ليتخذه سلاحاً شخصياً ضد خصمه ـ مع أنه ليس إلا ملك الإنسانية جمعاء ، تستنير بضيائه ، وتستفيد من عبره ودلائله .

☆ ☆ ☆

وحسبي لتصوير عظم هذه الشناعة . أن أضع أمام القارئ نماذج من التفسيرات الحديثة لبعض صفحات التاريخ ، فلسوف يجد كيف أنها تفسيرات منفصلة عن أحداثها ، بل مناقضة لها .

وعلى الرغم من أنني لا أستطيع في هذا المقال الموجز أن أضع بين يدي القارئ أكثر من نماذج ، أبدأ بها من صدر التاريخ الإسلامي فما بعد ـ إلا أنني أعتقد أنه لا يُعفي المؤرخَ الإنساني المنصف شيء عن وجوب النهوض بإعادة النظر في سائر الكتابات الحديثة عن تاريخنا العربي والإسلامي ، لتصفيته من العبث الذي

دخل عليه ، ولتطهيره من الافتراءات التي ألصقت به ، ثم لتنشيطه من عقال الأثقال المتناقضة التي حُمِّلها ، ابتغاء أن ينطق للناس بأفواه متعددة ، فيؤيدهم جميعاً في آرائهم ومذاهبهم المتخالفة ، بقطع النظر عن وجود ، أو فقد ، أي مؤيدات لذلك .

من أبرز هذه التفسيرات ، تحليل عجيب يلصقه أصحاب اتجاه معين بصدر التاريخ الإسلامي ، يتلخص في القول بأن الفتح الإسلامي الذي قاده النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده ، إنما كان ثمرة معركة قامت بين يسار اقتصادي تمثل في الطبقة الفقيرة الكادحة ، ويمين رأسمالي تمثل في أثرياء مكة وأصحاب رؤوس الأموال فيها . وعلى هذا فإن بواعث ذلك الفتح ، لم تكن سوى مطامح اقتصادية ، أو كانت هذه المطامح ، على الأقل ، هي الباعث الرئيسي فيها[1] .

ترى أين تقف أحداث السيرة النبوية والفتح الإسلامي من هذا التفسير ؟

سؤال طبيعي ، لا بدّ أن يطمح لمعرفة الجواب عليه ، كل متطلع إلى معرفة الحقائق ، لا يقود عقله سلفاً نحو قرارات سابقة أو أحكام ذرائعية معينة .

وننظر ، فنجد أن أحداث الفتح الإسلامي والسيرة النبوية ، تناقض هذا التفسير مناقضة حادة ، وتقف منه موقف الند من الند ، فضلاً عن أنك لا تجد ـ مهما تلمّست ـ أي صلة إيجابية بينهما .

لقد عرضت قريش ، فيما هو ثابت ومعروف من أحداث السيرة ، على محمد ﷺ الزعامة والملك ، والثروة الطائلة ، على أن يتخلى عن الدعوة إلى الدين الذي جاءهم به ، وقدّموا له (وهم العرب الأوفياء) بين يدي عروضهم المواثيق ، حملها إليه شيخ وقور فيهم ، هو عتبة بن ربيعة . فأعرض عن ذلك كله قائلاً :

---

(١) من أحدث الكتابات التي تتبنى هذا التحليل ، كتاب (النزعة المادية في الفلسفة العربية والإسلامية) لحسين مروّة .

«ما جئت بما جئتكم به، أبغي مالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم. ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربّي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردّوه عليّ، أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فلما استيأسوا منه، وأيقنوا أنه لا يبغي عن الدعوة التي جاءهم بها بديلاً، ضربوا عليه، وعلى جميع المسلمين من أصحابه، حصاراً اقتصادياً مهلكاً دام ثلاث سنوات تقريباً، لم يسمع التاريخ بمثله، قوطع المسلمون خلالها عن سائر أنواع التواصل والتعامل، فلم يكن ينفذ إليهم من السوق درهم، ولم يكونوا قادرين أن يستجلبوا بدرهم مما معهم كسرة خبز أو قوت يوم. حتى أصبحوا يأكلون من ورق الشجر وبشيع الطعام، وتعرضوا مع أهليهم وأولادهم لأقسى مظاهر البؤس والضنك. وهم مع ذلك كله صابرون محتسبون، يقيناً منهم بأن هذه الدنيا عرض زائل، وأنهم مقبلون على الله، وأنّ ما عنده خير وأبقى. أفتلك هي حال من يثور بدافع اقتصادي، ويغامر في سبيل ابتزاز الأموال والثروات؟

ثم هل يطمع أصحاب الثورة اليسارية الاقتصادية، بأكثر من الحكم يكون في أيديهم، والمال يكون في جيوبهم، وقد جاءهم هذا وذاك، فلماذا تضامنوا مع رسول الله ﷺ، في الترفع على ذلك كله، والتمسك بالدعوة إلى المبدأ والعقيدة، وإن أوصلهم ذلك إلى شفير الهلاك؟

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة، واستقبلوا بوجوههم شطر يثرب، وقد تجرد أكثرهم عن كل ما يتعلق به الطامعون في المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلاً، ولا يقيمون وزناً لدنيا فاتتهم أو لملك أدبر عنهم. أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام؟!.

☆ ☆ ☆

ولنترك الآن صدر التاريخ الإسلامي ، لنقف قليلاً عند الخلافة الراشدة ، ثم عند العصر الأموي . ولنصغ إلى خلاصة التحليل الذي انتهت إليه طائفة من المؤرخين ، وفي مقدمتهم بعض المستشرقين ، من أمثال (كريمر وفان فلوتن) .

لقد تحول الفتح الإسلامي في هذا العهد ـ في نظر هؤلاء الكاتبين ـ إلى تسلّط عربي ضد الشعوب الأعجمية . فإن الفتح الإسلامي ما كاد يستقر ويمدّ جذوره إلى المناطق الشاسعة التي بلغها ، حتى استحال إلى عمل سياسي ، انشق بسببه المجتمع الإسلامي إلى طبقتين : السادة العرب ، ومنهم صاحب الرسالة ، وأصحابه ، والعائلة المالكة . والقواد والولاة وقسم كبير من الرعية العربية ، ثم طبقة الموالي وهم ذلك الخليط من الشعوب الأعجمية المغلوبة . فأما العرب فإنما خلقوا ليسودوا ، وأما غيرهم فإنما خلقوا لكسح الطرق وخرز الخفاف وحوك الثياب . كما زعموا بأن المولى كان محتقراً في المجتمع فلا يخاطبه العربي بالكنية ، ولا يتبوأ أي منصب في الدولة ، وأن الناس كانوا يتساءلون فيما بينهم عن أمر غريب ، هو : هل يستطيع الصالحون من غير العرب الزواج من العربيات في الجنة[1] ؟ .

تلك هي إذن الصورة التي آل إليها الفتح الإسلامي ... لقد غدا مجرد تعبير ثوري عن العنصرية العربية ، بل العنجهية العربية ، استهدف العمل على نقل السيادة من الأعاجم إلى العرب . ولئن لم تظهر هذه الأهداف في سعي قادته بادئ الأمر ، فإنه ـ في تصور هؤلاء الكاتبين ـ كان قصداً مستكناً ، وهدفاً خفياً ينتظر الفرص السانحة .

---

(١) من أبرز من رسم هذه الصورة للعهد الأموي ، بل لعصر الخلافة الراشدة أيضاً ، (فان فلوتن) في كتابه (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية) . ولقد حذا حذوه ـ ويا للأسف ـ أولئك الذين يطيب لهم أن يتقبلوا الأمور من أمثال هؤلاء المستشرقين على عواهنها . دون أي بحث أو تمحيص .

تلك هي الصورة فأين أصلها ؟ . أين هي الأحداث المؤيدة لها ، بل نقول : أين تقف الأحداث التاريخية منها ؟ .

إننا مضطرون أن نؤكد مرة أخرى ، بأن هذه الصورةلاأصل لها . فإن أعوزك الدليل على ذلك ، فحسبك دليلاً الأحداث التاريخية ذاتها .

على أننا نذكّر بما هو معروف ، من أن إسناد أي طبيعة أو باعث إلى أمة من الأمم ، لا يصدق إلا بالاعتماد على بينات من الأحداث أو الوثائق المتعلقة بتلك الأمة عامة ، أو بالغالبية العظمى منها . فلا جرم أن تصيّد الأحداث الشاذة أو النادرة ، لاتفسر إلا ضمن دائرتها الشاذة أو النادرة وحدها .

وإليك الآن بياناً موجزاً لمدى التناقض القائم بين هذا التفسير الذي أوضحنا خلاصته ، والأحداث التاريخية التي يفرض أن تكون غطاء له :

أولاً ـ لم يثبت أن كلمة (المولى) في هذا العهد ، كانت خاصة بالأعاجم من دون العرب ، بل كانت تطلق على كثير من العرب كما تطلق على الأعاجم ، بناء على أسباب لا شأن لها بالعجمة أو العروبة . فلقد كان عبد الله بن إسحاق ، مثلاً ، مولى للحضرميين ، وكان الحضرميون أنفسهم موالي لبني عبد شمس بن عبد المناف . وإلى ذلك يشير الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكنّ عبد الله مولى مواليا

ثانياً ـ لم نجد في شيء من الوقائع التاريخية ، العائدة إلى عصر الخلافة الراشدة أو العصر الأموي ، ما يدلّ على أن العرب عموماً ، أو أن غالبيتهم العظمى ، أو أي فئة كبيرة منهم ، كانت تحتقر العنصر الأعجمي ، أو تسعى لإبعاد الأعاجم عن الوظائف النبيلة التي يجب أن لا يتبوأها إلا العرب . بل الذي رأيناه في هذا الصدد يقرر العكس تماماً :

ـ لقي عمر بن الخطاب نافعاً ، وقد قدم للحج ، وكان قد استعمله على مكة . فقال : من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : عبد الرحمن بن أبزى ، مولى من موالينا . فسأله عن حاله . فقال : إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفقه والفرائض . فسُرَّ عمر ، وقال : أما إن نبيكم قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع آخرين » .

ـ كان عطاء بن أبي رباح مولى لبني فهر ، تولى إفتاء مكة ، وكان ينادي منادي الخليفة الأموي في موسم الحج : لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح ! .. وكان على دمامته وسواد شكله يتصدر أرفع مركز شعبي بين العرب .

ـ كان طاووس بن كيسان ـ وهو فارسي ـ لا يبالي أن يوبخ الخلفاء في مجال التذكير والإرشاد . وكانوا يتسبّبون إلى رضاه ، وكانت قلوبهم تفيض هيبة له وإجلالاً . وسارت جنازته يوم مات فوق رؤوس عربية مطأطئة تفوق العدّ والحصر .

ـ وكان واصل بن عطاء المعتزلي ، مولى لبني ضبَّة ، وكان صدراً في الأدب واللغة والعلوم ، لم ينازعه الصدارة فيها منازع ، ولم ينكر فضله وسمّوه أيّ إنسان .

ـ وكان عبدِ الله بن سليمان مولى لبني مازن ، وكان ـ كما قال المبرد ـ من جلّة الرجال . نازع عمرَو بن هِداب المزني في أمر من الأمور ـ وكان في ذلك الوقت سيد بني تميم قاطبة ـ فانتصر عليه المولى ، حتى أذن له عمرو في هدم داره ، إعلاناً عن انتصاره عليه . فأدخل عبد الله بن سليمان العمال في دار عمرو فلما قلعوا من سطحه سافاً ، أمرهم بالكف ، ثم قال : يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو .

هؤلاء نماذج ، من عشرات ، بل من مئات الموالي ، كلهم كانوا يتمتعون بين

العرب بالجاه والمكانة في العصر الأموي . ولم يثبت أن العرب تأففوا قائلين : إن الموالي إنما خلقوا لغرز الخفاف وكسح الطرق .

ومن الحقائق التي لاتقبل الريب ، أنهم جميعاً كانوا يقفون من هذا التآزر والتقدير المتبادل ، تحت مظلة من الوصية النبوية القائلة :

« كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى والعمل الصالح »[1] .

ثالثاً - ترى من هم الناس الذين بحثوا في ذلك الحكم (الفقهي) الخطير ! .. ألا وهو : هل يجوز للصالحين من الأعاجم أن ينكحوا نساء العرب في الجنة ؟

إن الذي يقرأ مثل هذا الكلام ،في كتاب مثل كتاب (السيادة العربية) لـ (فان فلوتن) ، أو في أي مصدر منقول عنه ، على سبيل الثقة والتسليم - وما أكثر هذه المصادر مع الأسف - لابدّ أن يتصور أن هؤلاء الناس هم جمهرة العرب ، بل لابد أن يتصور أنهم من الفقهاء الذين لا يتكلمون إلا باسم الدين وشرائعه .

ولكنا إذا مضينا نغوص ، في بطون الأحداث التاريخية في العهد الأموي ، بحثاً عن جذور هذه المسألة ، لم نعد إلا بالخبر التالي :

روى الأصمعي أنه سمع أعرابياً في البادية يسأل صاحبه : أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة ؟ .. فأجابه قائلاً : أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة .

هكذا نقل المبرد في كتابه (الكامل) ، هذه القصة ، مضعفاً ثبوتها ، عن رجل من أعراب البادية ، وقد رأيت كيف أن الجواب جاء من صاحبه في القصة ذاتها ، دليلاً على نقيض هذا التحليل المزعوم .

فانظر كيف ساغ أن يَفسّر الأعرابي الواحد من جفاة البادية ، بالناس

---

(١) من خطبته ﷺ في حجة الوداع .

كلهم ! .. ثم انظر كيف ساغ بتر الخبر عن مصدره ، وقطعه عن تتمته ، ليأخذ مظهر البحث الفقهي الذي من شأنه أن يحظى باهتمام الفقهاء ، وهم صفوة الناس في ذلك الوقت .

كل ذلك ، من أجل أن يتيسر القول بأن الفتح الإسلامي ، سرعان ما تحول إلى سياسة عنصرية ، استهدفت بسط السيادة العربية على سائر الشعوب الأخرى . لعل ذلك يساهم في تفتيت الوحدة الإسلامية ، ويبعث من جديد تلك الفوارق العنصرية التي حطمها الوازع الإسلامي في صدور المسلمين . ثم انظر كيف يسخر التاريخ للأغراض النفسية والبواعث العصبية في نفوس هؤلاء الباحثين .

☆ ☆ ☆

أما الآن ، فلنتجاوز العصر الأموي ، إلى الخلافة العباسية . ولنصغ إلى شيء من الكلام الكثير الذي يقال عن حياة الرشيد وأخلاقه الشخصية . إن أحدنا ليتصور وهو يسمع هذا الكلام ، أن هارون الرشيد لم يكن أكثر من إنسان يتطوح بين دنان الخمر ، وأنّ معظم لياليه كانت وقفاً على اللهو والمجون .

تلك هي الصورة التي رسمت له في كثير من كتبنا المدرسية ، وهي التي رسمت من قبل في كتب أكثر المستشرقين ، ثم في كتب في كثير ممن يسيرون وراءهم تجملاً وتقليداً .

ولعلّي لا أنسى تلك الكلمة التي ظلت مثبتة ، إلى عهد قريب ، في بعض الكتب المدرسية لإحدى سنوات المرحلة الإعدادية ، عن ترجمة هارون الرشيد ، وما انتهى إليه حاله من البذخ والترف . وخلاصتها : أنه قد بلغ من بذخ هارون الرشيد أنه كان ينفق على إعداد طبق جانبي صغير على مائدته ما يزيد على ألف درهم ! .

تلك هي الصورة التي كانت ولا تزال تحشى بها أخيلة أطفالنـا الصغـار ، عن تاريخنا العربي والإسلامي ، وعن كثير من قادة هذا التـاريخ وأسـاطينـه ! . ولا ريب أن هـذا هـو أقرب السبـل إلى إثـارة أهم أسبـاب التقـزز في نفـوس هـؤلاء الصغار ، تجاه تاريخهم الذي هو مصدر فخارهم وأرومة عزهم .

ومع ذلـك ، فليس المهم أن يتقزز هؤلاء الفتيـة أو لا يتقززوا . إنمـا المهم أن تكون الصورة صحيحة ، وأن نجد في أحداث التاريخ ما يؤيـدهـا ويبعث الحيـاة فيها .

وننطلق فنغوص مرة أخرى في أغوار التاريخ العباسي ، وفيما أثبتتـه أمهـات كتب التاريخ عن ترجمة هارون الرشيد ، بحثاً عن أي جـذور لهـذه الصورة ، فلا نعود إلا بما يلي :

روى الطبري في ترجمة هارون الرشيد « أنه كان يحج عـامـاً ويغزو عـامـاً ، وأنه كان يصلّي في اليوم والليلـة مئـة ركعـة ، مـا لم يعتلّ بعلّـة أو يكون مشغولاً بغزو . وأنه لم يكن يقطع في أمر من أمور المسلمين إلا بعـد الرجوع إلى الصـالحين من أهل العلم » .

وهذه الترجمـة ، لا تعني أن الرجل كان معصومـاً عن الأخطـاء والآثـام . بل لا ريب أنه كان على الرغم من هذه الصفات التي نعتـه بهـا الطبري وغيره ، واحـداً من البشر ، يجـوز عليـه الـزلـل والعصيـان . قـد يجتهـد فيخطئ . وقـد يغضب فيزل . وقد تجمح به نفسه فيقع في عصيان . ولكن تلك هي ترجمته في الجملـة على كل حال . والمهم أننا لم نجد في شيء من أمهات الكتب التاريخية أن الرجل كان كما يقول هؤلاء : يعيش حياته متطوحاً بين دنان الخمر ، يقضي لياليه غارقـاً في اللهو والمجون . بل الحـق أننـا لم نجـد لـه هـذه الصورة إلا عنـد (فيليب حتي وجرجي زيدان) وأمثالهما .

أما قصة الطبق الذي كلف ألف درهم . فمردّ ذلك إلى ما رواه المسعودي في كتابه (مروج الذهب) ، وهو خبر يزيدنا إعجاباً بسيرة الرشيد ومدى خوفه من الله عز وجل .

وها أنا أنقل لك خلاصة ما رواه المسعودي في ذلك :

« حدث إبراهيم بن المهدي ، قال : زارني الرشيد بالرقة ، فوجد مرة بين ما قرّب إليه من الطعام جاماً فيه ما يشبه سمكاً مقطعاً . فاستصغر القطع ، وقال : لم صغّر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت ياأمير المؤمنين هذه ألسنة أسماك . قال : فيشبه أن يكون في هذا الجام مئة لسان . فقال خادمه : ياأمير المؤمنين ، فيها أكثر من مئة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ! .. فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً حتى يُحضرَه ألف درهم . فلما حضر المال أمر أن يُتصدّق به . وقال : أرجو أن يكون كفارة لسَرَفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم . ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أول سائل تراه ، فادفعه إليه . قال إبراهيم : وكان الجام يساوي مئتين وسبعين ديناراً ، فغمزت بعض خدمي للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه ، ففطن الرشيد فقال له : ياغلام إذا دفعته إلى سائل ، فقل له : يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مئتي دينار ، فإنه خير منها »[1] .

تلك هي الصورة السيئة المشينة ، وهذا هو أصلها الرائع العظيم ! .

فيا للعجب من كاتبين ومؤرخين ، ينكسون الوقائع تنكيساً ، ويكرهونها بعملية (مونتاج) مخجلة ، ليجعلوا منها شاهد زور ضد أبطالها ، ثم يقدمون هذه الافتراءات مادّة تربية وعلم إلى الأطفال البرآء ! .

☆ ☆ ☆

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣/٣٦٣

أأزيدك ياأخي القارئ أمثلة ونماذج ؟ . إن في الجعبة أمثلة كثيرة أخرى . ولكنّ مساحة هذا البحث لاتتسع لكل ذلك ، وإن في بعض القول لغناءً عن الاسترسال[1] ؟

والمهم أن أعود فأقول : إن المذهب الذاتي في كتابة التاريخ ، لم يكن في حقيقته سوى إجازة مرور شرعية إلى العبث بالتاريخ وأبطاله ، ليتحول التاريخ بعد ذلك إلى مجرد خادم صغير صغير ، يهيئ لكل فرقة مسرحها الذي تهواه والمناظر المنسجمة معه . وما دامت الفرق المسرحية شتى ، ومصالح الناس متفرقة ، فمرحباً بالاختلاقات والأخيلة المتناقضة يرزح تحتها جميعاً منكب التاريخ .

(١) على أنني آمل أن يلهم الله بعض الأخوة المتخصصين في هذا المجال للقيام بجهد يشكرهم عليه الله والعباد ، يزيحون به اللثام عن حقيقة تاريخنا العربي والإسلامي الأصيل ، ويطهرونه من الافتراءات الملصقة به .

نعم ..
مشكلتنا أخلاقية وليست فكرية

قلت ذلك منذ حين في بعض ما كتبت ، فاستعظمه بعض الناس ، وحسبوا أنني أنتقص بذلك من قيمة الفكر والعلم ، وأنني أدعو الناس إلى أخلاق عارية عن كسوة الوعي والبصيرة والفكر .

وليس الأمر كما قد حسبوا ، وإنما هو كما تقول للفقير المختص بعلوم التجارة والاقتصاد ، والباحث عبثاً في اختصاصه النظري المجرد عن ثروة مالية تغنيه :

إن مشكلتك الحاجة إلى رأس مال تجاري تكتسب به ، وليست الخبرة الاقتصادية التي تتحدث عنها .

فما من عاقل إلا ويعلم من ذلك ، بأن الاختصاص العلمي مهما كانت ضرورته وبلغت أهميته ، فإنه لا يمكن أن يحقق وحده ثمراته المرجوة . وإنما يجب أن تتوفر بعد الخبرة والعلم قوة التنفيذ والعمل ، فمهما فقدت هذه القوة كانت المشكلة مشكلة طاقة معدومة لا مشكلة بحث وعلم متوفرين . وعندما تنعكس الحال تنعكس المشكلة تبعاً لها .

وفرق كبير بين أن نقول : نقص في الثقافة والفكر ، ونقول : أزمة في الثقافة والفكر .

أما النقص فحاصل ، ولا شك فيه . ولم نصل من الثقافة والفكر ـ كماً وكيفاً ـ إلى درجة التمام والكمال بعد . وأما الأزمة فالذي أجزم به أن المسلمين

اليوم لا يعانون من أزمة في الثقافة أو الفكر الإسلامي بمعنى أن شيئاً من مصائبهم الإسلامية التي تحل بهم اليوم ليس ثمرة نقص في أحد هذين الأمرين . وليكن واضحاً أنني إنما أقصد الجانب الإسلامي في كل من أمر الثقافة أو العلم والفكر .

إن المؤسسات والمؤلفات والنشرات التي ترعى شؤون الثقافة الإسلامية في أكثر البلاد الإسلامية عامة وفي البلاد العربية خاصة أكثر وأقوى منها في أي وقت مضى ، وما من شاب مسلم قد ارتضى لنفسه الإسلام ديناً إلا وله اليوم من هذه الثقافة الإسلامية نصيب .

والكتب الفكرية التي تتفنن في وصف الأمراض المستعصية في جسم العالم الإسلامي ، ثم تتفنن في وصف الدواء وكشفه ، وبيان منهجية السبيل إلى استعماله ، وتحطيم مكائد دعاة الغزو الفكري - هذه الكتب تغمر أسواقنا العربية ، كما لا يغمرها أي نوع آخر من الكتب الفكرية الأخرى ، والناس يقبلون عليها إقبالاً عجيباً دفع بالكثير من التجار إلى أن يقصروا تجارتهم على هذا الصنف وحده مهما كانت عقائدهم واتجاهاتهم الشخصية .

ولقد رأينا كيف تحولت جبهات كثير من المكتبات التجارية العامة إلى معرض للكتب الإسلامية المختلفة !

ومع ذلك ، فإن الخط البياني لواقعنا وسلوكنا الإسلامي ، يسير معاكساً لهذا الخط الفكري والثقافي الذي يمضي صعداً . وإنها لحقيقة ملموسة ما أظن أن أحداً من الناس يماري فيها .

إننا قد نلمس مزيداً من الوعي الإسلامي في مجتمعاتنا الإسلامية ، ولكننا نلمس معه مزيداً من التحلل والبعد عن السلوك الإسلامي في هذه المجتمعات ذاتها . وقد نلمس مزيداً من النضج في القدرة على اكتشاف مكائد الغزو الفكري وخططه العدوانية ، وفي عرض وسائل التغلب على ذلك كله . ولكننا لا نلمس

معه إلا مزيداً من الضعف والتخاذل أمام هذه المكائد الرهيبة ذاتها . وقد نلمس مزيداً من العمق في العلوم الإسلامية المتعلقة بأصول الاعتقاد أو المتعلقة بالفروع الفقهية والتشريعية ، ولكنا نفاجأ معه بمزيد من الشبهات الفكرية والشذوذات الفقهية ومظاهر التحريف والتبديل في أحكام الإسلام وشرعه .

وما من ريب أن هذه الظاهرة تعتبر مشكلة .

ولكن مشكلة أي شيء هي ؟

هل هي مشكلة نقص في الدراية والعلم ؟ لا ، ولا أظن أن أحداً من المنصفين يستطيع أن يحيل (لا) هذه إلى (نعم) .

إننا إذا أمعنا النظر ، رأينا أن معظم مآسينا التي نضج منها إنما ينبع من داخل بنياننا الفكري والعلمي ذاته ، بل بحماية ورقابة منه .

وعلى سبيل التمثيل أقول : إن تسويغ نسبة معينة من الفائدة الربوية ، لم يفرض نفسه في مجال النقاش والبحث العلمي إلا بحماية من العلم والفكر الإسلامي .

وإن تذويب كثير من الأحكام الشرعية على وقود القاعدة المعروفة : « تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان » لم يتم إلا بإشراف من منهجية النظر والبحث الإسلامي .

وإن التشجيع الذي لاقته إباحية التعري والاختلاط بين الجنسين ، لم ينهض إلا على ديباجة من التأويلات والفتاوى الشرعية .

وإن التلاعب الذي تم ويتم بأحكام الشريعة الإسلامية ، طمعاً بحظوة أو تجنباً لمكروه ، لم ينجح إلا من وراء ستار أو ضمن غلاف من الدراية الإسلامية ذاتها .

وما أكثر ما ظهر في جسم الأمة الإسلامية من صدوع ، وما أكثر ما ظهر في كيان الجماعات الإسلامية من شقاق وخصومات ، بل تهارج وعداء ، لا بفعل جرثومة أجنبية وفدت إليها من الخارج ، بل بسبب انحرافات سلوكية ظهرت بينها من الداخل . وما كان الانحراف لينمو ويشتد ، لولا احتماؤه بحيثيات وأفكار إسلامية في الظاهر .

إذن هي ليست مشكلة نقص في الدراية أو الفكر أو العلم . فمشكلة أي شيء تكون ؟ .

إنها ، كما قلنا ، مشكلة أزمة في الأخلاق . ولا نقصد بالأخلاق المعنى الفلسفي الموهوم لهذه الكلمة ، بل نقصد بها استيقاظ معنى الرقابة الإلهية في القلب .

إن علوم الدنيا كلها لا تفيد صاحبها شيئاً ، إذا لم يستشعر قلبه - في تعظيم وخشية - رقابة قيوم السموات والأرض عليه . وما هذه العلوم التي نتعلمها والأفكار التي ندرسها والمناهج التي نبدعها أو ننظمها ، بدون تحقيق هذا الأساس ، إلا كمفاتيح لأبواب مغلقة لم تجد من يستعملها على وجهها ، فبقيت الأبواب موصدة ، وبقيت المفاتيح أدوات للعبث .

ولو كانت العلوم والأبحاث الفكرية وحدها حلاً لمشكلة الفضيلة والسلوك إذن لبطل أن تكون هذه الدنيا دار ابتلاء كما قد قضى الله ، إذ كان الناس يجدون أنفسهم مسوقين إلى اتباع الصراط الإلهي الحق ، بمجرد أن يعلموا بعقولهم دلائل هذا الصراط ومعالمه وحدوده ، وإذن لما اختلف الناس بعد علم ، ولما بغوا بعد معرفة وفكر. كيف وقد قال الله تعالى في حق من لم يغنهم العلم بالحق أي غناء :

﴿ .. فَما اخْتَلَفوا إلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الجاثية ١٧] ، أجل . إن العلم وحده لا يغني .

إن العلم ـ بعد استكمال أسبابه ووسائله ـ عملية اضطرارية لا خيرة للعاقل فيها . أما السلوك فيظل عملية إرادية مهما تهيأت من حوله دلائل الحق وأسباب الوضوح .

وتقوم بين الإرادة الإنسانية وكثير من نماذج السلوك الإسلامي عقبات متعبة ليس من السهل اقتحامها ، لا يمكن أن ترى شيئاً منها أمام عملية التعلم والإدراك .

وهذه العقبات في جملتها لا تعدو أن تكون ركوناً إلى زينة الأرض ، بكل ما تفور به من أسباب الشهوات والأهواء . وهي التي عبر الله عز وجل عنها بقوله :

﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنوا ما لَكُمْ إذا قيلَ لَكُمْ انْفِروا في سَبيل اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ ﴾ [التوبة ٣٨]

وهي في تفصيلها تتشعب إلى فروع مختلفة كثيرة ، كحب الرئاسة والمنصب ، والانحياز إلى العصبة أو العصبية ، والرغبة في بلوغ شهوة من شهوات البطن أو الفرج ، أو الشهرة بين الناس ، والتأثر بعوامل الحسد والحقد والأضغان . وتلك هي في مجموعها مادة الامتحان الإلهي للإنسان في هذا الحياة .

وللعلم ضمن هذه المهيجات العاتية الخطيرة أثر واحد لا يتجاوزه ، هو الدلالة المجردة . وهيهات أن تتغلب الدلالة وحدها على آفات هذه العوامل الهائجة العاتية .

بل إنك إذا تأملت ، وجدت أن ٦٠ ٪ من عوامل النظر والفكر يتمثل في عوامل نفسية مجردة ، كدوافع العصبية وردود الفعل والانصياع لرغائب النفس . أما العامل العقلي الحر فلا يتجاوز ٤٠ ٪ فمعظم أحكام الناس وآرائهم الفكرية تأتي بسائق من هذه العوامل النفسية وأشباهها أكثر من أن تأتي بسائق من النظر العقلي المجرد .

ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا من اقتحم العقبة وكسر الطوق النفسي الذي يأسر الفكر والعقل ضمن سجن من رغائبها وإيحاءاتها ، فانطلق متحرراً من كل سلطان إلا سلطان العقل الكامل المجرد . وهم الذين رباهم الإسلام في ظل من مراقبة الله تعالى ، والاستشعار بأنه عز وجل يحصي عليهم كل صغيرة وكبيرة ، ثم يحاسبهم عليها في يوم آت لا ريب فيه ، وقليل ماهم .

أذكر أن مسؤولاً كبيراً ناقش صاحب إحدى الجرائد اليومية الكبرى حول ماتدأب عليه جريدته من نشر الصور العارية . فكان المسوغ الوحيد لذلك في نظر صاحب الجريدة أنها تحرز بذلك مزيداً من الكسب والانتشار . أي أن مجرد رغبة نفسية في المنافسة على كمية البيع أو كمية الربح والمال ، كان منطلقاً عقلياً وعلمياً كافياً لتسويغ هذه الخطيئة والسير في سبيلها ! .

وأعلم مجلات تنشر من الآراء والأفكار المتنوعة كل ما يتوفر له أنصار في المجتمع ودعاة . فهي لاتبالي أن تجمع من ذلك كله ضغثاً يمتزج فيه الحق والباطل والشبهات المتنوعة التي تتردد بين هذا وذاك ، لمسوغٍ واحدٍ فقط ، ألا وهو أن يتوفر لها مع كل طائفة من الناس أو مذهب من المذاهب وجه مضيء ، فيزداد بذلك انتشارها وتتصاعد بين الناس أرقامها .

فأي قيمة تبقى لمنبر . إنما أقيم لبث حقائق العلم والحياة ، وتصعيد الناس إلى مستوى سلوكي وخلقي أفضل - إذا كان مسوقاً بما فيه بيد الرغائب النفسية التي ليس بينها وبين حقائق الفكر ومقتضيات العلم أي نسب موصول .

وليس الجهل هو الخطر الأكبر في حياة الناس ، كما قد يتوهم البعض . وإنما الخطر الأكبر أن يسقى فيهم نبات العلم والفكر بماء الشهوات والآفات النفسية المختلفة ، فيتلون كل ذلك بلون هذه الآفات ويتشبع من وحيها ، حيث يتحول السعي المقدس للبحث عن الحقيقة إلى أحط ما يعتبر قاسماً مشتركاً بين الإنسان وسائر الحيوانات الأخرى .

أرأيت إلى العقل الذي يهدي الإنسـان إلى حقـائق الأشيـاء ؟ إنـه ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ نور يقذفه الله في شعور الإنسان فيضيء لـه سبيل الحق ويكشف له عن كوامن العلم والنظر . فـأي جريمـة أسمج وأخطر في حيـاة الإنسـان من أن يعمد إلى هذا النور الإلهي الطـاهر ، فيجعل منـه مطيـة ذلولاً لحيوانيتـه وغرائزه المطلقة .

والعلم في ذاته أقدس حقيقة في الوجود ، ولكنه يفقد قداستـه كلهـا وينقلب وبالاً على صاحبه والآخرين ، عندما يحمل أثقالاً من شهوات النفس وأهوائها .

ورب نـاس رفعهم الله بـالعلم درجـات ، ولكنهم لـما أخلـدوا بـه إلى شهوات الأرض ، واستخـدمـوه لخـدمـة النفس والهـوى ، أنـزلهم الله تعـالى إلى دركات من الحطة والشقاء الإنساني المهين .

وانظر في تصوير ذلك إلى قوله عز وجل :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِين ، وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إلى الأَرْض وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَل الْكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ .. ﴾ [الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦] .

ومثل هؤلاء الناس لا يغنيهم أي غنـاء أن تنـاقشهم أو تردهم إلى منطق الحق والعلم ، فـإن كلاً من الحـق والعلم في حيـاتهم ليس إلا سيفـاً مصلتـاً بيـد شهـواتهم وأمـانيهم النفسيـة ومـا أيسر على العـالم ـ إذا حكم هواه فيا يعلم ـ أن ينطـق علمـه بمكنون هواه ، وأن يجعل منه أصدق شاهد أمين له .

ذلـك أن نصوص القواعـد والأحكام الشرعيـة ، مثل النصوص القـانـونيـة . كلاهما قابل للتحوير والتأويل وإلحاق القيود والشروط المبتدعة . وكما أن المحامي لا يعجزه شيء عن أن يحور النصوص القانونيـة ويؤولهـا لصـالح موكلـه طمعـاً في مال يناله منه ، فكذلك لا يعجز الفقيـه شيء عن أن يؤول مـا شـاء من النصوص

الشرعية ، ويذيله بالقيود والشروط الوهمية ابتغاء عرض من الدنيا قليل .

وليس من حل لهذه المشكلة إلا أن يوقظ المرء مشاعر رقابة الله تعالى في قلبه . فإن الإنسان إذا آمن بالله عز وجل ، وأيقن بأن الله تعالى رقيب عليه ، يعلم خائنة عينه وما قد تخفيه نفسه ، وأن كل ذلك يقيد في سجل ، وأنه ينشر أمامه يوم القيامة مع صوت يناديه :

﴿ هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعمَلون ﴾ [الجاثية ٢٩]

وأن الله محاسبه على كل ذلك في محكمة لا نقض فيها ولا استئناف ، ولا ينفع معها شاهد زور ، ولا ملكة تحريف ولا تأويل ، وأنه سيستقبل من حياته يوماً ثقيلاً ، ينسى تحت وطأته طعم الشهوات التي أسكرته وساعات لذائذه التي أدبر عنها ، وأنه مخلد بعد ذلك إما في نارٍ أبداً أو في جنةٍ أبداً :

أقول : إذا عاش المؤمن في دنياه يستشعر هذه الحقيقة ويتمثلها ، وذلك هو شأن كل مؤمن ، فإن علومه وأفكاره كلها تتحرر عن سلطان نفسه ، وينطلق العقل صاعداً يبحث عن حقائق الوجود في حرية مطلقة ، مجاوزاً الواحدة إثر الأخرى ، حتى يقف عند حقيقة الحقائق كلها وسر الوجود كله .

وليس للنفس من سبيل إذ ذاك ، إلا أن تسعى جاهدة للحاق بالعقل في رحلته القدسية هذه . فلأياً بلأي ، تتجرد من غوائلها وترتفع فوق آفاقها وتنكسر خاضعة تحت سلطان العقل وقانونه . وذلك هو مجمل وظيفة الإسلام في حياة الإنسان .

وما يمنع المسلم ، أياً كان ، من أن يكون هذا شأنه في الحياة ، إلا أنه ينسى أنه مسلم ، ويستمر ناسياً ذلك ، حتى تتخطفه الأهواء وتنسج عناكب الشهوات من حوله خيوطها ، فتنمسخ فيه طاقة العلم وقدسية العقل ، ويتنكس وجوده

الذي خلق متجهاً إلى السماء وإذا هو قد انحط هابطاً إلى الأرض .

ويسير الرجل هكذا منكس العقل والوجود ، يفهم الحقائق منكسة ، ويرى أشياءها معكوسة : يزهد فيما ينبغي أن يحرص عليه ، ويتعلق بما يجب أن يزهد فيه ، ويحسب مئة حساب لما يبصره عند أرنبة أنفه ، ولا يحسب حساباً واحداً لما هو لاقيه عند موته .

حتى إذا وافاه الأجل ، انقلبت مرآته فجأة ، لتبصره الأمور على حقيقتها ولتريه الدنيا كما هي في ذاتها ، وامتلأ سمعه بمعنى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَديدٌ ﴾ [ق ٢٢]

وتصحو مشاعر الرقابة الإلهية إذ ذاك في النفس ، ولكنها مشاعر لا تنبع إذ ذاك إلا بنيران الندم ، وما كان الندم ليغني عن صاحبه شيئاً .

☆ ☆ ☆

وبعد فحاشا لأعداء الإسلام أن يتهيأ لديهم من الجرأة ما يقتحمون به إلى الإسلام بأي مكروه . فللإسلام في أفئدتهم رهبة تصدهم عن أن ينالوه بأي أذى مباشر .

ولكن من عادتهم أنهم يتلمسون بين المسلمين من كانت هذه حاله : مسلم ولكنه نسي إسلامه ، يعلم الحق ولكنه لا يبالي أن يدفع علمه في طريق ما تتمناه عليه نفسه .

يتلمسون من هؤلاء واحداً إثر آخر ، حتى إذا تهيأ لهم جند من هؤلاء الناس ، اتخذوا منهم جسراً إلى كيان الأمة الإسلامية وجوهر هذا الدين الحنيف ،

ففوقهم يصولون وعلى ظهورهم يرتعون ، وبواسطتهم يفسدون ويدمرون .

☆ ☆ ☆

سقطت قطعة فأس ذات يوم بين أشجار بستان ، فذعرت الأشجار لهذا العدو المداهم ، وداخلها الرعب والهلع ، ولكن شجرة عظيمة قد أتت عليها السنون ، نادت فيها قائلة : لا يهولنكم الأمر ، فلو أن قطعة الحديد هذه ظلت ملقاة فيما بينكم مئة عام لم يكن لها أن تؤذي واحدة منكم ، إلا أن يتبرع جذع منكم فيجعل من نفسه مقبضاً لهذه الفأس .

الوحدة أولاً، ولا وحدة بدون محور جامع ولا جامع إلا الإسلام

ليس أثقل عليّ من أن أكتب في موضوع يتعلق بمشكلة فلسطين وعلاجها ، وليس ذلك عن جهل مني بجوهر المشكلة وطريق علاجها ، ولكني أجدني عندما أتحدث فيها ، كمن يعزف في قاعة على لحن سمعه الجالسون أمامه ما يزيد على عشرة آلاف مرة ، سمعوه بآلات مختلفة وصور متعددة . وما من عازف ينتمي بنسب إلى الفن إلا وأقبل يبني أمجاده الفنية بينهم عليه ، يعيد اللحن من أوله كلما انتهى إلى آخره ، ويملأ الآذان بأنغامه ، كلما رأى أنها فرغت من ذكره وضجيجه .

فلو كان هذا اللحن مستوحى من نشوة فراديس الجنان ، أو الدواء الشافي من سائر المصائب والأسقام ، لكان في كثرة هذا التكرار له والمباهاة به وإقامة شوامخ الأمجاد عليه ، ما يقلب نشوته إلى اشمئزاز وسآمة ويحيل ترياقه الشافي إلى بلاء يزيد المريض آلاماً .

لو أحصينا النشرات والمقالات والمؤلفات التي كتبت عن قضية فلسطين ، وضممنا إلى ذلك المحاضرات والندوات والخطب التي ألقيت أو عقدت من أجلها ، لاجتمع من ذلك أعظم مكتبة عمومية في العالم كله . ولو كان من شأن الكلام يوماً ما أن يدفع الباطل ويزهقه ، ويحفظ الحق ويعيده لأهله ، لكان ذلك من شأن هذه المكتبة العظيمة من الكلام .

ولكن الكلام لا يفعل شيئاً من ذلك ، وإنما شأنه أن ينبه النـاس إلى الحق ، وأن يلفت أنظارهم إليـه . فـإذا تكرر واستمر يتكرر ، كأن من شـأنـه أن يثير في الناس مشاعر السآمة والضجر ، فإذا ظل مع ذلك يدور ويتكرر ، أثار في النـاس مشاعر الاشمئزاز والكراهية ، لأنهم يرون إذ ذاك أن المتكلم إنما يريـد بـذلـك أن يلفت الأنظار إلى ذاتـه ، بـدلاً من أن يلفتهـا إلى القضيـة التي يتحـدث عنهـا . وليس أثقل على الناس من رجل أعوزه أن يجد في عمله سبيلاً إلى الشهرة والمجـد ، فاتخذ إلى ذلك سبيلاً من الخطب والكلام .

لقـد انقضت سنوات طـويلـة من عمر النكبـة ، وأكثر الـذين يعـالجـونهـا في الظاهر ، إنما يحدقون بها ليتغذوا على مائدتهـا ، كل يحـاول أن يستلّ منهـا غـذاءه الصالح له .

فلقد كانت هذه النكبة ـ كما قد أريد لها ـ ينبوع فائدة عظيمة لمصالح الشرق والغرب ، كما كانت في الوقت ذاته دريئة شر وقنـاع فضيلـة لكثير من أهل الـدار ذاتها .

لقد بات من الحقائق الواضحـة التي لا تغيب عن الأطفـال في مـدارسهم أن كلاً من الشرق والغرب إنما يسعى جاهداً لخلق أو استبقاء مناطق نفوذ لـه في هـذا الشرق العربي المسلم ، وإنما السبيل إلى ذلك أن يتكئ على نقطة ضعف يعاني منها .

ولقد كانت قضية فلسطين ـ ولا تزال ـ أضعف نقطة رائعة تصلح معتمداً لهذا الغرض . إنها مفتـاح سحري يمكن أن يـدار بيـد غريبـة أجنبيـة ، وإذا الأبواب الموصدة بيننا وبين أصحاب هذه الأيدي مفتحة ، وإذا بسلطـانـه الاستعماري قـد انبسط فوق هذه المنطقة وأحدق بها .

لقـد كان من أخطر نتـائج المشكلـة الفلسطينيـة الفقر . والفقر لا ينـدفـع (وأستغفر الله) إلا بمعونة شرق أو غرب .

ولقد كان من أهم آثارها ضرورة الالتجاء إلى ركن شديد ينحاز إلى صفنا ، ويشد من أزرنا ، ويزجر بالتخويف أعداءنا ، وإنما يتم ذلك بأن نولي وجوهنا صاغرة ذليلة قبل الشرق أو الغرب .

ولقد كان من أبرز عواقبها حاجتنا إلى الجديد من السلاح ، والمال الذي يؤخذ به السلاح الصالح مفقود ، فكان لا بد للحصول عليه من الاعتماد على أريحية الشرق أو الغرب . وهكذا ، فقد كان احتياجنا إلى معونة دولة كبرى ترد عن بلادنا الحيف والظلم مجرد وسيلة من وجهة نظرنا ، ولكنه من وجهة نظر تلك الدولة غاية ذاتية تحلم بها وتخطط أكثر من سبيل إليها . فأي نتيجة ، إذن ، يحق أن ينتظرها السائل الذي يصبر على ذلّ المسألة طمعاً بالخير الذي يتأمله ، إذا كان المسؤول يرى في استجدائه أعظم غاياته التي يحلم بها ؟ ! .

لسوف يظل المسؤول يظهر فنون الرقة والتأثر بما يسمعه من لحن الاستجداء والرجاء ، ليظل السائل يأمل الخير بسعيه ، فيزداد في التشبث والرجاء . وتستمر القصة عند هذه الصورة التي لا تبديل لها .

ما هو الحل إذن .

أما عنوان هذا الحلّ فواضح معروف ، يردده اليوم كثير من الناس في كثير من المناسبات . وهو العنوان الذي يقول : لا حل للمشكلة إلا باعتماد أصحاب المشكلة ـ وهم العرب والمسلمون عموماً ـ على أنفسهم . إن هذا العنوان رغم بساطته يحمل البذور الحقيقية لحل المشكلة .

غير أن أي تفسيرات إيجابية صادقة لم تظهر لهذا العنوان إلى اليوم .

وكل ما يفعله دعاة هذا العنوان والمنادون به ، أنهم يقدمونه اسماً بارزاً ضخماً لكتاب فخم لم يكتب على شيء من صفحاته سطر واحد بعد .

أجل . لا بد من اعتماد أصحاب المشكلة على أنفسهم ، ولكن إذا اعتمدوا على أنفسهم فأي شيء ينبغي عليهم أن يفعلوه بناء على ذلك ؟ . ونقول في الجواب : إن عليهم أن يتذكروا التغيرات العضوية والذاتية التي أدخلت بتخطيط دقيق على كيان هذه الأمة بين يدي حلول نكبة فلسطين .

لقد كانت تلك التغييرات الجوهرية هي الأعمدة الأساسية لها .

فإذا تذكروها واستيقنوها ، كان عليهم أن يكروا عليها بالنقض ، فيعيدوا الأمور إلى ما كانت عليه من قبل ، ويستعيدوا لأنفسهم الذاتية التي كانوا يتمتعون بها فيما مضى .

لقد كان أكثر المسلمين - من قبل أن يفقدوا فلسطين - ينضوون تحت سلطان حكم واحد ودولة واحدة . (ولا يعنيني أن أخوض هنا في بيان شكل تلك الدولة وخصائصها) ولقد كان لشعب أو شعوب هذه الدولة ، إلى أوائل الربع الأخير من حياتها ذاتيتها المستقلة في المنهج والحياة والعقيدة والسلوك ، ولقد حاولت المحافل اليهودية والماسونية طويلاً أن تقتنص فلسطين من قلب هذه الدولة الإسلامية الواحدة فما استطاعت .

بل لقد منيت تلك الدولة في أواخر عهدها بأسباب استوجبت ضعفها وإسراع الهرم - قبل ميعاده - إليها ، فما استطاعت المحافل الصهيونية ، مستعينة بكل من كان يشدّ أزرها ، رغم ذلك الضعف ، أن تنال من بغيتها منالاً .

لقد كان السبب الذي خيب آمال اليهودية بشتى أحلافها ، هو طوق الوحدة .

(طوق الوحدة العثمانية) - وهو التعبير الذي عبر به حاييم وايزمن في مذكراته - هو الذي حال دون أن تجني المؤسسات الصهيونية لنفسها أي ثمار إيجابية من وراء طول سعيها وكثرة مؤتمراتها .

ولقد استفرغ اليهود كل مالديهم من جهد ، قبل أن يتجهوا بكامل قواهم إلى بنية الخلافة ذاتها ، فلم يأت شيء من جهدهم بطائل :

قدموا العروض المالية الخيالية إلى السلطان عبد الحميد ، فلم يتأثر بها ، ورفض أن يبيعهم شبراً من أرض فلسطين إلا بنفس الثمن الذي جاءت به ، ألا وهو الدم الطاهر الزكي .

وهددوه بتقويض ملكه وإزهاق روحه ، فلم يثنه التهديد ـ وهو عنوان الدولة المريضة ـ عن عزمه الذي واثق نفسه عليه .

ولقد أرسل إليه الثري اليهودي المعروف (قرصو) برقية من إيطاليا لا يزال بعض كتب التاريخ التركي يحتفظ بالصورة الأصلية لها ، وهي :

(أنت رفضت عرضنا ، ولكن هذا الرفض سيكلفك أنت شخصياً ، ويكلف مملكتك كثيراً)[1] .

وعندئذ اتجه السعي منهم إلى (تكسير طوق الخلافة) على حد تعبير (حاييم وايزمن) واعترافه . حتى إذا تم تحطيمه ، وانتشرت القوى التي في داخله ، وتمزق الشمل ، وظهرت حواجز الفرقة والخلاف ـ تحققت الغاية اليهودية من أيسر سبيل ، كل مستعمر يغرس لنفسه في أرض فلسطين فسيلة أو غرساً .

فهكذا ضاعت فلسطين .

وبإصلاح الفساد الذي تم ، وإعادة الطوق الذي تحطم ، ولم الشعث الذي تناثر ، تعود فلسطين مرة أخرى بأيسر سبيل كما ضاعت بأيسر سبيل .

وليثق العرب والمسلمون جميعاً أنها لن تعود بغير ذلك . مهما طال عمر النكبة . ومهما بذل لعلاجها من محاولات وجهود .

ولعل أكثر الناس اليوم يؤمنون بهذا الكلام إلى هذا الحد . فقد بات أمراً

---

(١) ارجع إلى مذكرات السلطان عبد الحميد ترجمة الدكتور محمد حرب عبد الحميد ٦٥ فما بعد .

معلوماً بأن الوحدة هي العلاج الذي لا بديل عنه ، وقد أصبحت كلمة (الوحدة) بسبب ذلك من أقدس الغايات التي تتطلع إليها الشعوب العربية .

ولكن أكثر هؤلاء الناس يحسبون أن من اليسير أن تستولد الوحدة في مراسيم ودساتير مجردة ، ثم لا تحتاج لبقائها ونجاحها إلا أن توثق بمعاهدات وتواقيع ثابتة . ويغيب عن تفكيرهم أن ثمة أساساً شاقاً وخطيراً لا يمكن أن تنهض الوحدة إلا عليه .

يرى هؤلاء الناس تاريخهم الطويل مستظلاً بظل وحدة كلية غالباً ، وجزئية في بعض الظروف ، ولا يتنبهون إلى المحور الجاذب لتلك الوحدة والعصب الممتد في كيانها ليقيها من التصدع والانتشار . فيحسبون أن إعادة مثل ذلك البناء أمر يسير ، لا يحتاج إلى أكثر من قناعة فكرية يلتقي عليها الحكام ، وإيمان بتاريخهم الوحدوي الطويل .

والحقيقة أن الأمر ليس بهذه السهولة واليسر .

إن الوحدة في تاريخنا ثمرة ضرورية لاجتماعها على عقيدة ومبدأ ، وليست إرادة ذاتية مستقلة نشأت في أعماقه أو كيانه . والأصل أن يظل الناس متفرقين مختلفين ، طالما لم يكن بينهم قاسم مشترك من الاعتقاد والشعور ، حتى إذا لمسوا فيما بينهم شيئاً من ذلك ، تكون لهم على قدر ذلك نسيج من الوحدة والائتلاف ، وكلما ازداد فيما بينهم هذا القاسم المشترك عمقاً واتساعاً ، ازداد نسيج هذه الوحدة قوة وكمالاً ، وازداد فيما بينهم شمولاً واتساعاً .

فعلى قدر ما يتوفر في الناس من قاسم فكري مشترك ، يتحدون ، وعلى قدر ما يستشعرونه من خلافات الفكر والرأي ، يتفرقون ويتدابرون .

وما أشبه الذي ينادي في أقوام يسلكون من حياتهم الاعتقادية والفكرية طرائق شتّى ، بالاتحاد والتضافر ، بمن ينادي في أرض قاحلة ليس فيها أي نبت بأن تلد الفاكهة والثمار .

إن وحدتنا التاريخية التي نحلم بمثلها ، لم تستولد في حياة أسلافنا رغبة منهم بالوحدة ذاتها ، ولم يكونوا في ذلك مخيرين . وإنما جاءت نتيجة مقدمات تحققت في حياتهم : بعث فيهم الرسول ﷺ ، فآمنوا بنبوته ورسالته ، وقرؤوا كتاب الله تعالى ، فأيقنوا أنه كلام منزل من عند الله . وأصاخوا السمع إليه ، فعلموا أن لا إله إلا الله الخالق البارئ الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه مآل كل أمر ، وأنه الحاكم المنفرد بالحكم في عباده ، فما ينبغي أن يجنحوا إلى شرع غير شرعه ، آمنوا بذلك كله ، فاضطرهم الأمر إلى أن يتخلوا عن كل مبدأ ورأي كانت تنزع إليه نفوسهم ، وأن يتراجعوا عن سبيل المنافسة على المناصب والزعامة والحكم ، وأن يرتضوا بالله الذي آمنوا به حكماً في كل ما يستشكلونه أو يختلفون فيه . فتولدت لهم من ذلك وحدة لم يكونوا مخيرين في شأنها . وذابت الخصومات وأسباب الشقاق مما بينهم تحت سلطان تآلف لم يكن لهم أي يد في إيجاده وفرضه .

لقد كان إذاً ثمة محور جذاب ائتلفت عليه أفئدة العرب واجتمع من حوله شملهم ، ولم يكن هذا المحور غير الإيمان الصادق بالله ورسوله ، واليقين بأن الحاكمية ليست إلا لله وحده . ولولا هذا المحور الذي طرح فيما بينهم لظلوا أشتاتاً متفرقين ، مهما ظهرت بينهم زعامات موحدة أو عقول مفكرة أو آراء مدبرة .

وانظر في تصوير هذه الحقيقة إلى دقة التعبير الإلهي : ﴿ واعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلا تَفَرَّقوا ﴾ [آل عمران ١٠٣] لقد أمر أولاً بوضع المحور ، ثم ذكر بضرورة الالتفاف من حوله والاجتماع عليه . ولو أمرهم ابتداءً بالاتحاد ونهاهم ابتداءً عن التباعد والشقاق ، لما انصاع أحد منهم إلى أمر ولا نهي .

ومن أعجب الغرائب أن ترى في الناس اليوم - على كثرة ما يُستشهد بهذه الآية ويُجمل القول بها - من لا يفهم منها إلا جزءها الثاني ، فيمضي يدعو الناس إلى بناء من غير أساس ، بل يدعوهم إلى ثمار بدون مثمر .

ومنذا الذي يكون ذا عقل ثم يجهل أن برادة الحديد إذ تمتزج وسط تراب في الأرض ، لا يمكن إلا أن تكون مبعثرة بين ذرات التراب ، وليس من قانون يستطيع أن يغير من وضعها الطبيعي هذا مهما طال عليها الأمد وتنوعت المحاولات ، حتى تعمد إلى قطعة من المغناطيس الجاذب فتلقيه بينها ، فعندئذ تلتقي هذه الذرات التائهة إلى بعضها ، وتجتمع من شتات ، وتتحول إلى كتلة قوية واحدة ذات ثقل واحد ، ملتصقة بذلك المحور المغناطيسي الجاذب .

واليوم . على أي محور يمكن أن يتحد العرب ، وقد تحول محور الاعتصام بحبل الله فيما بينهم إلى مئات الخيوط والحبال ، كلٌّ ينتهي إلى غاية غير التي ينتهي إليها الآخر .

أي جامع هذا الذي يمكن أن يضم أشتاتاً من الناس ضاعت مما بينهم معالم الجادة العريضة الكبرى ، فانطلقوا يتفرقون في متاهات من السبل الصغيرة المتعرجة ؟

ربما قال بعض الناس : حسبنا محوراً للوحدة والاتفاق ، وحدة الشعور بالمشكلة والاتفاق على ضرورة حلها باستعادة الأرض السليبة لأصحابها ، وما يضرنا أن نختلف بعد ذلك إلى مذاهب وآراء .

والواقع أن هذا الكلام لا يعدو أن يكون غلطاً بيناً نتيجة جهل وغباء ، أو مغالطة فاحشة نتيجة مكر وخبث !

من المعلوم أنه لا قيمة لأي رأي فرعي جامع إذا كان من قبله أصول من العقائد الكلية المتخالفة . ذلك لأن كل رأي فرعي في حياة الإنسان إنما ينصبغ لا محالة بلون عقيدته الكبرى ، بل إنه لا يظهر إلا بدافع من تلك العقيدة وعلى هدي منها . بل إن من المقطوع به أنه لا قيمة لأي رأي فرعي في حياة الإنسان إذا جاء ذلك مخالفاً لمقتضى مبدئه العام وعقيدته الكبرى .

وتستطيع أن تلمس تطبيق هذا الذي نقول في واقعنا ، حيال نفس المشكلة التي نتحدث عنها . فأنت ترى أننا رغم اتفاقنا على شعار : (الأرض العربية لأصحابها) نتفرق في صدد تحقيق هذا الشعار إلى شيع وأحزاب ، لأن كلاً منا يريد أن يجعل من هذا الشعار ظلاً لعقيدته وأثراً من آثار مبدئه .

وربما قال آخرون : نعم لابد من مبدأ جامع ، ولكن أنُحتِّم أن يكون هذا المبدأ هو الإسلام ؟ .

والجواب : أن أي مبدأ موحد جامع يمكن أن ينهض بحل المشكلة ، ولكن هل اكتشف العرب والمسلمون ـ بعد طول مغامرة ـ أي مبدأ غير مبدأ الإسلام لدين الله يمكن أن يجمع الناس كلهم في حمى منهج وشرع واحد ؟ .

إن من أجلى الحقائق الواضحة أن شيئاً من المبادئ والعقائد الأرضية ، لا يمكن أن تصلح ـ يوماً ما ـ محوراً لتوحيد الأمم وائتلافها . ذلك لأن الناس أحرار بفطرتهم ، وهم يشعرون بحريتهم هذه كما يشعرون بوجودهم ، ومن نتائج ذلك أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يفرض شيئاً من أفكاره وآرائه ، ويجعل منها عقيدة يدين بها الآخرون . ولئن استطاع فرض ذلك على أسرته بلسطان تربوي يمتلكه ، فإنه لا يستطيع أن يفرضه على أوسع من ذلك النطاق ، ولئن استطاع ذلك بما له من سلطان وهيمنة وقوة حكم ، فلن يكون ذلك إلا إلى حين . أي ريثما تتجمع عوامل الثورة على نظامه وحكمه .

وما الحروب الطاحنة التي تدور رحاها اليوم ، في كثير من جهات العالم ، وما التهديدات المتكررة بالإهلاك والتدمير ، إلا نتيجة صراع بين مبادئ الأرض . مبادئ متناكرة يسفه كل منها الآخر ، ويستبق الآخر إلى حرية الناس وسيادتهم .

ونحن لانريد ، في صدد بحث مشكلتنا الخاصة ، أن نتحدث عن علاقة هذه

الحقيقة بالمصائب العالمية الكبرى وتهديدها للسعادة الإنسانية المطلقة ، فحسبنا اليوم أن نعالج على ضوئها نكبتنا الإنسانية الخاصة بنا .

إننا في هذا الشرق مؤمنون بالله ، وغالبيتنا العظمى تفسر هذا الإيمان بالعقيدة الإسلامية التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين مؤيداً ما جاء به سائر النبيين من قبله . إذن فنحن نملك منطلق المبدأ الجامع والمحور الجاذب ، لو أحيينا كوامن هذه العقيدة في نفوسنا ، والتزمنا بما تقتضيه من منهج وشرعة ، نقيم عليهما حياتنا الفردية والاجتماعية . ونحن نملك ـ لو فعلنا ذلك ـ أن نحزم مشاعر المسلمين المتفرقة في شرق العالم وغربه في شعور ملتهب واحد ، لا ينهض على مواضعات فكرية عابرة ، بل على عقيدة راسخة تستند إلى دلائل العلم القطعي ، والواقع التاريخي ، والتجربة البصيرة الحية . فلماذا لا نفعل ذلك ؟ .

ألسنا مسلمين ؟ . ألسنا نبرهن على إسلامنا كل صباح ومساء على أمواج الأثير ، وفي شاشة التلفزيون ، عندما نقرأ مترنمين ، أو ننصت خاشعين إلى آيات من كتاب الله ؟ . فلماذا لا نتخذ من هذا الكتاب الذي نؤمن به المحور الجاذب لحياتنا والمبدأ المقوم لسلوكنا ، وإذن لتهاوت حواجز الفرقة مما بيننا ، ولقامت روابط الألفة والوحدة في حياتنا ، ولنبعت لنا من خلال ذلك قوة ذاتية تمدنا بالمال الوفير والرأي السديد والعدة الكافية .

ولعمري ما رأيت أغرب من عقل إنسان يزعم أنه مسلم ، ويتباهى بأنه من أسرة عريقة في إسلامها ، وأنه قد حجج والدته وأختيه على حسابه ! ثم يقول : ولكني أرى أن الإسلام غير صالح في هذا العصر أن يكون أساساً جامعاً أو مبدأ موحداً ! .

إذن فلماذا أنت ياأخي ، مسلم ؟ وماذا بقي من إسلامك الذي يرضي الله

ورسولـه ، إذا كنت لا ترى أن الاعتصـام بحبل الله الـذي هو منهجـه وتشريعـه ، يجمع من فرقة ويؤلف من شتات ، ويعتبر أساساً لدولة ؟ !

وإذا كان الإسلام الذي هو دين الله وحكمه ، لا يعتبر مبدأ جـامعـاً لأشتـات الناس ، فأين هو المبدأ الذي يعتبر جامعاً لذلك ؟ .

ملايين من الشبان المؤمنين بـالله المسلمين أنفسهم لـدين الله ، تنقـدح النيران في مشاعرهم تطلعـاً إلى سبيل من القيـادة الإسلاميـة الراشـدة . ليتحولوا في هـذه السبيل إلى شعلة وضرام ، وليبيعوا النفس والنفيس في سبيل إعزاز الحق واستعادة الأرض وحراسة القيم .

فلماذا تغمضون العين عن هذه القوى الهائلة العـارمـة ، ثم تبحثون عن ركائز جامعة أخرى ، لن تزيد عالمنا العربي إلا ضيعة وشتاتاً ؟ .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فإن الـذين استلبوا فلسطين منـا ، إنمـا استلبوا قبل ذلـك وحـدتنـا الإسلامية وخلقنا الإسلامي . والذي يكون جاداً في استعـادة الحق المسلوب ، هو الذي يحرص على استعادة الدار ، قبل أن يتجه إلى استعادة ما كان فيها من أثـاث ورياش . وهو الذي يحرص على استعادة البستان قبل أن يتجه إلى استعادة ما فيه من ثمار .

والذي يكون جاداً في استعادة حق له ، لا يفوته أن يعلم بأن الذي ليست له دار تؤويه لن يملك أثاثـاً يتنعم فيـه ، والـذي لا يملـك أرضـاً يجني قطـافهـا ، لن يمتلك ثماراً يستمتع بمذاقها . والذي لا يملك حصناً من الوحدة الحقيقية الواقيـة ولا خلقاً ذا صلابة ذاتية رادعـة ، لن يبقى على أرض ولا وطن . ومهما افتعل البحث والتنقيب ، فإنما يصيح في وادٍ وينفخ في رماد .

وللحج أيضاً

مشكلات دينية واجتماعية (☆)

كنت أدير في نفسي صياغة سليمة وحكيمة ، لمعالجة مشكلات الحج التي أخذت تتفاقم في السنوات الأخيرة ، عندما رأيت في العدد ٢٥١ من مجلة (العربي) مقالاً بعنوان : الساكت عن الحج والساكت عن الحق ، للأستاذ فهمي هويدي .

ولما قرأت المقال ، وجدته في إطاره العام تعبيراً عن الشعور الذي كان ، ولا يزال يساورني ، تجاه هذه الشعيرة العظيمة التي حيل بين المسلمين وتطبيقها على الوجه الذي أمر الله به ، بسبب مشكلات هامة ، لا سبيل لمعالجتها إلا بمزيج من الجرأة والإخلاص لدين الله عز وجل .

ولكني ـ في الوقت ذاته ـ أخالف الأستاذ هويدي في جزئيات اقترحها ، أو أثارها ـ بهذا الصدد ـ ليقيني بأنها ـ بحدّ ذاتها ـ لا تمت إلى المشكلة بشيء ؛ فلا هي تساهم في إيجادها أو زيادة تعقدها ، إن تركت كما هي . ولا هي تساعد على حلّها ، أو التخفيف من بلائها ، إن مستها يد التغيير والتبديل .

☆ ☆ ☆

ولأبدأ على كل حال ، بتصوير المشكلة في أذهان القراء ، بشيء من التفصيل ، إن كان ثمة من لم يتصور مشكلة الحج في هذه السنوات بعد . فإن

(☆) هذا المقال أرسل لمجلة العربي ، ولكنه لأمر مالم ينشر .

تصور المشكلة مع اليقين بأنها فعلاً مشكلة ، يعدّ ـ كما يقولون ـ اجتيازاً لنصف الطريق إلى حلّها .

في العام الماضي[1] أتيح لي أن أحج ـ وللمرة الثانية في حياتي ـ إلى بيت الله الحرام . وكانت المناسبة دعوة تلقيتها من جامعة الملك عبد العزيز في مكة ، لإلقاء محاضرات فيها ، على إثر موسم الحج .

وآثرت ألا أتصل ، أيام الحج ، بأي جهة رسمية في المملكة ، مفضلاً أن أندمج مع سواد الناس في أداء المناسك ، متحرراً عن القيود ، بعيداً ما أمكنني ـ في تلك الأيام ـ عن المعارف والمشاغل ، مؤملاً أن أتشرف ولو بنصيب من الصفة التي رغب رسول الله ﷺ للحاجّ أن يتصف بها عندما قال : « الحاج أشعث أغبر » .

ولكني ما عرفت إلاّ أخيراً بأن المعنى الذي قصد إليه رسول الله ﷺ بكلمتي : أشعث أغبر (وهو أن يكون الحاج متجرداً عن الزينة والرفاهية ، بعيداً عن الاهتمام بالمظهر والشكل ، مخشوشناً في سائر أوضاعه وتقلباته ، مستغرقاً في مظاهر الذل والعبودية لمولاه عز وجل ، ضمن مناخ من النظافة والطهر) لم يعد هو المعنى الذي يمكن تحقيقه في هذه الأيام . وإنما يمكن للحاج أن ينقلب اليوم أشعث أغبر بمعنى واحد ، هو أن يبرز للناس ، وكأنه خارج من تحت أنقاض . وأن ينسى كل ما هو بصدده من وظائف العبادة والعبودية لله عز وجل ، ليتفرغ لمدافعة أمواج العذاب والهلاك ، وليدخل مع عباد الله الوافدين إلى بيته في مباراة صراع وطعان .

فلئن كانت مزية الشَعَث والغبرة ، فيما مضى من تعاليم المصطفى عليه الصلاة والسلام أنها توقظ الإنسان من سكرة الدنيا وأهوائها ، وتقف به عبداً ذليلاً

---

(١) أي في عام ١٩٧٨ م .

خاشعاً أمام ألوهية الله عز وجل ، ليس بينه وبينها حجاب ، فإن مزية هذه الحال اليوم أنها تشغله عن عبادته كلها ، وتفسد عليه خلقه وحلمه ، وتضرب بينه وبين حقائق عبوديته لله عز وجل بحجاب صفيق من الخوف على المصير ، وعواصف الضيق والتبرم بسائر من حوله من الناس .

فلئن لم يرجع الحاج إلى بيته اليوم بأعباء جسيمة من الأوزار ، لشدة ماشغل عن آداب المناسك وضوابطها ، ولكثرة ماآذى الناس في سبيل التخلص من زحامهم وإيذائهم ، فإنه لجدير أن يُهنّأ لحظه العظيم في حسن الخلاص ، حتى وإن لم يعد بشيء من المثوبة والأجر يدّخرهما لنفسه عند الله .

وإني لأذكر كيف أني أحجمت عن طواف القدوم إلى اليوم الثاني وربما الثالث من قدومي إلى مكة المكرمة . ثم اتكلت على الله وغامرت ، كما يغامر رجل لا يحسن السباحة إذ يرمي بنفسه وسط يمّ متلاطم لا يتراءى له ساحل ولا قاع . ولقد رأيتُني في أحد الأشواط وقد ذهلت عن كل ماأنا بصدده من طواف وتلاوة ودعاء ، فقد أطبقت عليّ الحشود المتلاطمة ، وبدا لي أني سأغرق مختنقاً تحت وطأة الزحام . ولقد رأيتني مشدوداً مع ذلك إلى مشاعر مضحكة ، (وشر البلية ما يضحك) ، فإنه لمضحك حقاً أن يكون الإنسان مقبلاً على الله تعالى في تبتّل وضراعة وخشوع ، وإذا هو ينقلب فجأة إلى حيوان ضار ، يدافع مَن حوله في سبيل البقاء ، وقد تخلت عنه وداعته وضراعته ونسي أذكاره وأوراده .

أما مخاطر رمي الجمار والمآسي التي تحدق بأمكنته وما حوله ، فشيء يفوق الوصف والتصور . ولم أجد فيما بدا لي أن شيئاً من الترتيبات والتنظيمات الجميلة قد حقق الغاية المرجوة في الأمر ، لا لأن تلك الترتيبات أقيمت على غير وجهها الصحيح ، بل لأن من الطبيعي أن تتراجع آثارها الإصلاحية المفيدة إلى الوراء ، مادامت الحشود تتضاعف ، وما دامت السمة الغالبة على هذه الحشود هي الفوضى والعشوائية المطلقة .

وإنه لمبعث للطرافة المؤلمة أن تقارن بين ما يذكره علماء الشريعة الإسلامية ، من آداب الرمي وكيفيته والأدعية التي ينبغي أن تقال بكل خشوع وضراعة بعد رمي كل جمرة ، وبين ما يتم فعلاً عند كل جمرة من الجمرات في أعم الأحوال . فمن المستحيل بكل تأكيد ، أن يفكر الإنسان آنذاك بشيء آخر غير السعي إلى تخليص نفسه من الاختناق والهلاك .

والشيء الذي هو أخطر من هذا وذاك ، على مستوى النطاق الصحي والاجتماعي والآثار السيئة ، القريبة والبعيدة ، على سمعة الإسلام والمسلمين ، في أذهان من نزعم أننا نسعى لدعوتهم إلى الإسلام ، منظر آلاف من الحجاج ، وقد انتثروا في الأرض العراء بمنى ، يعومون بأرديتهم وأزرهم وسط أقذار ومياة آسنة ، ومنظر جثث كثيرة ممتدة بينهم لا تدري أهي في حال موت أم حياة . ولقد انتابتني حالة من التمزق النفسي وأنا أتأمل هذا المشهد ، وأسائل نفسي : أليس من المؤكد أنه يوجد بين هذه الحشود الكثيفة أناس ليسوا من الإسلام في شيء ، ساقتهم إلى هذا المكان رياح الأغراض والمصالح ، أو هم وافدون إلى الإسلام وهديه من جديد ، فهم لا يزالون من حقائقه ما بين مدّ وجزر . فماذا عسى أن يخلف هذا المشهد من الآثار في نفوسهم ؟ وهل يتصور أن يُسدل بينهم وبين الإسلام حجاب أغلظ وأصفق من حجاب هذه الحالة التي تفرض نفسها باسم الإسلام ، وفي أقدس بلاد الإسلام ؟

☆ ☆ ☆

فهذه هي المشكلة . وما أظن أنه يوجد في دنيا المسلمين كلهم من يزعم بأنها أمور طبيعية ، يقرها الدين الحنيف ، أو أنها مشكلات بسيطة لا تحتاج إلى أكثر من شيء من الصبر والتحمل .

إذن ، فلنتساءل قبل عرض الحلول : ما هي الأسباب التي أوجدت هذه المشكلة أو ساهمت مساهمة فعالة في تفاقمها ؟ .

والجواب : أما الجهود التي انصبت على التنظيم والتوسيع والتنظيف ، فلا نشك أن المملكة السعودية قد أنجزت من ذلك ما قد تعجز عن إنجازه أي دولة أخرى . غير أن هذه الجهود مهما عظمت واتسعت ، فهي محصورة ـ بطبيعة الحال ـ في نطاق مكاني محدود . فماذا عسى أن تحقق هذه الجهود وأضعافها ، إذا ضاق المكان كله عن الهضم والاستيعاب ؟ . ماذا عسى أن تفعل بالإناء الذي لا تملك غيره ، إذا فاض بالماء حتى انساح أكثره على الأرض ؟ .

إذن فالمشكلة تكمن في المتدفقين على المكان ، ولم تعد محصورة في سياسة المكان وأمر تنسيقه .

وهنا ، لا أجد ما يصدّني عن القول بأن السعي للحج إلى بيت الله الحرام ، قد غدا في هذه السنوات الأخيرة ، عند كثير من الناس لوناً من المتعة ، وفناً من فنون السياحة ، كما أصبح لدى آخرين منهم موسم تجارة وربح[1] .

ذلك لأن أسباب الحج قد تيسرت في السنوات الأخيرة بشكل لم يكن متوقعاً . وقد عبّدت (إلى جانب خطوطه الجوية والبحرية) طرقه البرية . فلم يعد عسيراً على كل صاحب سيارة أن ينظم مع أصدقائه ، رحلة حج ، يفرش طريقها بألوان السرور والمتعة ، ويملأ أيامها بمجالس البهجة ، ويحيي لياليها مع أصدقائه بحفلات (التجلي) والطرب . ثم يعود من رحلته موفور الراحة والمال . وأمر طبيعي لهذا الذي ذاق (طعم القرب) أن يشدّ الرحال إلى الحج في كل عام .

---

(١) قال العلماء ، ومنهم الإمام الغزالي ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تَبْتَغوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [البقرة ١٩٨] أي : لا جناح في أن يصاحب قصدكم الأساسي إلى طاعة الله تعالى هدف دنيوي مباح جاء عرضاً . ولكن إذا انقلب الأمر فأصبح الهدف الأول هو التجارة الدنيوية ، وجاء الحج مصاحباً له عرضاً ، فإن الآية بمعزل عن إقرار ذلك .

كما لم يعد مجهولاً أن كثيراً من أصحاب التجارات والصناعات والأعمال اليدوية المختلفة ، يرون في أشهر الحج موسماً تجارياً هاماً ، ما ينبغي أن يضيّع ؛ سيما والطريق معبد ، والسيارة موفورة ، ولسوف يعود الكل بالربح والفائدة بدلاً من تحمل الخسران والنفقات .

وثمة فريق آخر (يشكل السواد الأعظم) يندفع إلى الحج بما يتوهم أنه الشوق إلى بيت الله الحرام ، والرغبة في الأجر والثواب ؛ ولكنه لو محص النظر ، لعلم - كما يقول الإمام الغزالي - أنه مندفع إلى ذلك بأهواء نفسية ورغبات دنيوية ؛ ولعلم أنه رب جذوة شوق تشتعل في الفؤاد ، على البعد ، حنيناً إلى بيت الله الحرام أيام الحجيج ، تقرب صاحبها إلى الله ، أكثر من بعض الذين أطفؤوا تلك الجذوة بالوصول إلى المسجد الحرام والارتماء على الحطيم والمقام . لأن هؤلاء ، إنما أطفؤوها بإعراضهم عن واجبات ومصالح دينية أهم عند الله عز وجل من حجهم الذي حققوه ؛ أما أولئك ، فإنما تحملوا وطأة الشوق والبعد ، رغبة في تحقيق ذلك الأهم في ميزان مرضاة الله عز وجل . فلا جرم أن الله يكتب لهم أجر الحج الذي فاتهم ، والصبر الذي اعتلجت ناره في أفئدتهم ، والقربات التي حال اهتمامهم بتحقيقها دون الاشتراك بجسومهم وأشباحهم في زحمة الحجيج .

فمن هذا الفريق : أناس يتبرمون بأعمالهم ووظائفهم التي يحصرون جهودهم في محيطها المكاني والزماني على مدار السنة . بقطع النظر عن نوع هذه الوظائف دينية كانت أم دنيوية ، فيلجؤون في كل عام تقريباً إلى رحلة الحج ، يتخذون منها نافذة تنفس وسبيل إجازة واستجمام ، دون أن يتأملوا في الموازنة بين مصلحة استمرارهم في الوظائف التي أنيطت بهم ومصلحة السعي إلى مناسك الحج ، بمقياس صاف دقيق من النظر في مرضاة الله عز وجل .

ومن هذا الفريق ، أناس يشدهم (الشوق المستعر) إلى الانسياق في قوافل الحجيج ، وذممهم مشغولة بحقوق مالية للآخرين ، دون أن يحملهم ما يكافئ ذلك

الشوق ، من مشاعر الخوف من الله تعالى ، على أن يسألوا أنفسهم : أيجوز مثل هذا السفر لمثل هذا الإنسان ؟ . ولو أنهم فعلوا ذلك لعلموا أنه لا يجوز للمدين أن يسافر من بلدته إلى أي جهة ، لأي عبادة أو غرض ، إلا بعد أن يوفي دينه أو يستأذن غريمه .

ومن هذا الفريق أيضاً ، أناس آخرون ، تعودوا الحج في كل عام ، وتعودوا البذل والسخاء في سبيله ، مع أن لهم أولاداً بلغوا سنّ الزواج وأصبحوا يعانون من وطأة العزوبة ومن مخاطر الانحراف ، يسترحمون آباءهم بلسان القول والحال ، أن يوفروا شيئاً من هذا المال الذي ينفقونه ، في سبيل إعفافهم ، ولكنهم عن هذا الواجب معرضون . فأي قيمة تبقى لوجد هذا الحاج أو تواجده الذي لم يشكل أكثر من حاجز دخاني كثيف ، صده عن التنبه إلى عظم جريرته وعن سماع قول رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي وغيره : « من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه ، فإذا بلغ فليزوجه ، فإن بلغ ولم يزوجه ، فأصاب إثماً ، فإنما إثمه على أبيه » .

ألا فليعلم عوام المسلمين وكثير من متعلميهم ، أن من أخطر الآفات على الدين أن يخلط المسلم بين متعة النفس لركونها إلى كثير من أهوائها الظاهرة أو الخفية ، وبين ما يسمى بالتجليات الدينية أو الانشراحات الروحانية . ولو أنهم أمعنوا ودققوا ـ كما يوصي بذلك العلماء الربانيون ـ لاتهموا أنفسهم في تحليل هذه التجليات وأسبابها ، ولعلموا أن مداخل الشيطان في التلبيس على النساك والمتعبدين ، أخطر من المزالق التي يضعها تحت أقدام الفساق والمارقين .

☆ ☆ ☆

فإذا تجلت منابع المشكلة من خلال هذه النماذج التي ذكرناها ، فمن الواضح بأن الحلّ إنما يكمن في العمل على تنظيم روافد الحج على ضوء المشكلات التي ذكرناها . وذلك بأن تفتح سبل الحج بالدرجة الأولى ، بل مع مزيد من

التسهيلات ، أمام أولئك الذين لم يؤدوا فريضة الحج بعد . أما الـذين يغـاودون الحج نافلة ـ ولعلهم يشكلون نصف الحجيج على أقل تقدير ـ فما ينبغي أن يترك الأمر بالنسبة إليهم ـ وإن الحال كما وصفنا ـ طليقاً عن القيود والأنظمة التي من شأنها أن تخفف من وطأة الزحام وتيسر لإخوانهم الذين لم يحجوا بعد سبيل القيـام بمناسك صحيحة منضبطة مقبولة .

وإن الحديث حول رسم هذه القيود والأنظمة ، وبيـان طبيعتهـا ، حـديث متشعب طويل الذيل ، لامجال للخوض في تفصيلاته ، في مثل هـذا المقـال . غير أني أجزم بـأن العمـل على تطبيـق هـذه الأنظمـة والقيـود ، على صعيـد البلـدان الإسلامية المختلفة ـ بالتعاون مع المملكة العربيـة السعوديـة ـ لا يتوقف على جهود كبيرة ، ولاتعترضه مشكلات عويصة ، إذا ماتوفر حسن النية وسلامـة القصـد إلى جانب الجرأة في الحق .

على أني أجزم بأن وضع مثل هذه الترتيبات ، وإن كان الخطب فيها يسيراً ، يحتاج ـ كما يقترح كثيرون ـ إلى مؤتمر يعقد لهذا الأمر بخصوصه ، فليس موضوعه أقل أهمية من الموضوعات الأخرى التي تتلاحق من أجلها المؤتمرات ـ هنا وهناك ـ

ومهما يكن من أمر ، فإنني أجزم بأنـه لو بعث فينـا عمر بن الخطـاب ـ وهو الذي كان يستعجل الناس إذا انقضى الحج أن يرجعوا إلى بلادهم ، وينادي فيهم : ياأهل الشام شامكم ويـا أهل اليمن يمنكم ، حـذراً من عواقب الازدحـام المختلفـة ـ ورأى حالـة الحجيج اليوم ، لمـا ترك الأمور تسير على سجيتهـا ، ولصـدّ كثيراً من النـاس عن حـج ، خير لهم عند الله تعـالى أن يحبسـوا أنفسهم عنـه في بيـوتهم ، ليوسعوا على إخوانهم الذين لم يكتب لهم أداء مناسك الحج بعد .

☆ ☆ ☆

بقي أني أخالف الأستاذ هويدي الرأي ، في جزئيات أثارها في مقاله المذكور ، فماء زمزم لا صلة له ـ بحد ذاته ـ بالمشكلة التي نتحدث عنها . ولا مناص لنا ، مادمنا موقنين بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ، من الجزم بأن ينبوع هذا الماء كان ولا يزال ، ينبوع طهر وشفاء وخير . كيف وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله : « ماء زمزم لما شرب له » . وقوله : « ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم » . وما رأيت أو سمعت إلى اليوم بطبيب أو عالم يؤمن بالله ورسوله حقاً ، حذّر ـ سواء على وجه الشك أو اليقين ـ من أي أضرار قد توجد في أصل هذا الماء .

ولكن لعل الأستاذ هويدي يشير إلى هذا الذي نراه أمام مَوْرِد زمزم أيام زحمة الحجيج ، من مظاهر وتصرفات لا تتفق مع مبادئ الطهر والنظافة ، مما يبعث على الاشمئزاز من جانب ويهيئ الفرصة لانتشار الأوبئة من جانب آخر . فهذا الأمر إنما يعالج عن طريق تخفيف الزحام والإقلال من عدد الحجاج كما قلنا . وعندئذ يمكن للتوجيه والإرشاد أن يحققا أهدافهما في سائر الظروف والأحوال .

وكذلك الذبائح ، فهي ليست مشكلة بحد ذاتها ، ولكنها من نتائج المشكلة الأساسية التي تحدثنا عنها . إن شدة الكثافة والازدحام تجعل كثيراً من الحجاج يتخلون عن الشعور بمسؤولياتهم والانضباط بالأنظمة المريحة والميسرة ، يعمد الواحد من هؤلاء إلى ذبيحته ، فيطرحها أرضاً ، ويذبحها ، ثم يتركها ويمضي إلى سبيله ، وتتكاثر الذبائح التي بهذا الشكل ـ هنا وهناك ـ وما تلبث بعد دقائق أن تبدو وكأنها حيوانات نفقت بعادية المرض ونحوه ، فأي فقير أو جائع من الناس يستطيع أن يملأ عينه بهذه الصورة المؤذية البشعة ، فضلاً عن أن يدنو إليها ، فيباشر عملية سلخ وتقسيم وتنظيف ؟ !

وكذلك سائر الجزئيات المختلفة الأخرى . قد تبدو أنها مشكلات بحد ذاتها

في الظاهر ، ولكنها في الحقيقة ليست إلا آثاراً طبيعية لمشكلة الكثرة التي تجاوزت حدود الطاقة المكانية ، وحدود الرعاية والضبط .

إن النظام ، هو الآخر ، كأي كائن حيّ ، لا يحيا إلا بالتنفس ؛ وإنما يتنفس النظام بشيء من الراحة والهدوء يشيع في نفوس كل من المنظمين ومن يطلب منهم النظام . فإن لم تتوافر مقومات هذا التنفس ، لم يؤمّن أن يتحول كثير من الخير إلى شر ، وأن يصطبغ كثير من الحق بصبغة الباطل .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

يبدو أن الوقت قد حان لتقديم صورة كلية عامة عن الإسلام في مجموعه ، إلى تلك الأمم والشعوب التي لم تكن لها إلى الأمس القريب أي علاقة بالإسلام أو أي التفات إليه .. ولكنها اليوم تتجه برغبة جادة إلى فهمه والتعرف عليه !..

ولعل هذا الكتاب يمثل فاتحة حوار مع تلك الشعوب على طريق التبصير بحقيقة الإسلام ومدى ضرورته لأي مجتمع إنساني ، والكشف عن أقرب الطرق إلى تطبيقه على نهجه السليم .

وهو يعالج بعد ذلك أهم المشكلات الفكرية والثقافية والاجتماعية ، التي اختُلقَتْ لتكون عقبة على طريق فهم الإسلام والسعي إلى تطبيقه ، ولتخلق مزيداً من البلبلة والشقاق في صفوف المسلمين .